يصدرها
حلمي مراد
مطبوعات كتابي
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

اعترافات

جان جاك روسو

الجزء
الثالث

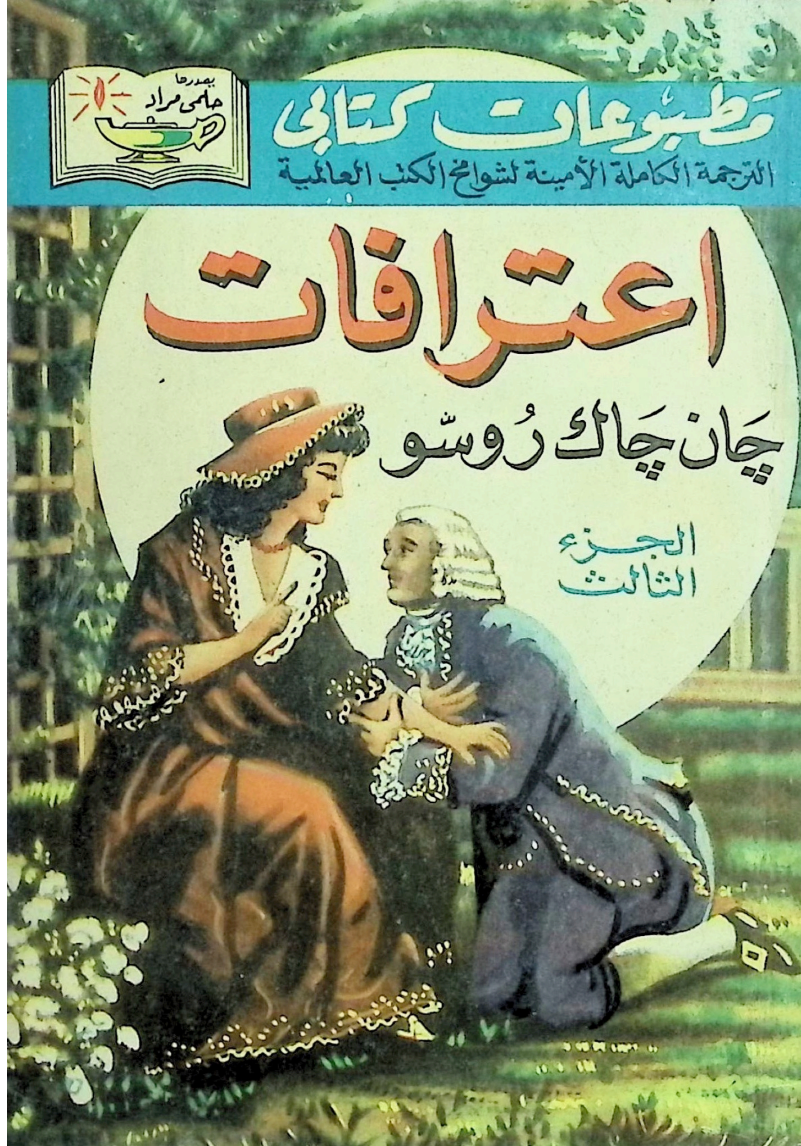

اعترافات

جان جاك روسو

LES CONFESSIONS

DE

J.J. ROUSSEAU

٢٣٠ صفحة

١٢ قرشا

مطابع الناشر العربى
٨ شارع الصحافة ـ القاهرة

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الثلاثون

اعترافات جان جاك روسو

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن سبعة وستون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ما عدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، اما الأعداد الستة الأولى والعدد العشرون فقد نفدت، والادارة مستعدة لشرائها •

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى •

• ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة او تحويلات عليه • واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما •

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، اوديب ـ مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة اجزاء) ، بوشكين وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر والثانى والعشرين ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون والعددان ٢٦ ، و ٢٧ : ١٢ قرشا ، والعددان ١٢ ، ٢٨ : ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص اجرة البريد المسجل) •

اعترافات

چان چاك روسّو

الجزء الثالث

مـوجز ما جاء فى الجزءين الاول والثانى

• **ولدت** فى (جنيف) ، فى سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل فى صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلا من ان يكرهنى أبى لذلك ، فانه أسرف فى حبه لى ، لأننى كنت شديد الشبه بأمى

• **تنبه** احساسى قبل ان يتنبه فكرى . ثم عمد أبى الى اسلوب خطر ، اذ اشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة

• **اضطر** ابى الى ان يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى ، كادت تلقى به الى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى «برنار»، الذى كان متزوجا من عمتى، والذى ارسلنى مع ابنه الى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ولنتلقى العلم على يديه ويدى اخته . وكانت الآنسة «لامبرسييه» تولينى حنان الأم ، ولكن عقابها اياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

• **على اثر** عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى.. والحقنى خالى بمكتب موثق للعقود، على أمل أن اشق طريقى فى المحاماة ــ فيما بعد ــ ولكننى لم استسغ هذا العمل

• **قرر** خالى ان من مصلحتى أن أتعلم حرفة ، فألحقنى كصبى ــ او تلميذ صانع ــ لدى حفار كان ينقش على المعادن. وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبروننى سنا ، فتعلمت السرقة، لاسيما وان معلمى كان يقسو علىّ بالعقاب والحرمان. ومع ذلك فاننى لم أكن أسرق حبا فى المال أو الحيازة .. والى جانب هذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى أصبح تهوسا

• **واضطرتنى** قسوة معلمى ، ونفورى من حياتى هذه ،

الى الهرب من (جنيف) .. وانتهى بى المطاف الى سيدة محسنة فى (انيسى)، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى «مدام دى فاران» ، التى اشفقت على، وارسلتنى الى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية، وأصبحت كاثوليكيا

• **واستطبت** بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت الى العودة الى السيدة دى فاران، التى رحبت بى ، وأنزلتنى من نفسها منزلة الابن، وأفردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضاؤل مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الأيام صرت أدعوها «ماما» !

• **وكانت** هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أوفدتنى «ماما» مرة لأعاون السيد «لوميتر» ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء ان يفر من وجوههم .. وقد رافقته الى (ليون)، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع، لفرط اسرافه فى الشراب ، ففررت منه فى احدى هذه النوبات ، وعدت الى (انيسى) .. واذا بى أفاجأ بأن «ماما» قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم ادر لها مقصدا أو مقرا !

• **وأقمت** فترة مع «فينتور» ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل، وكان يزعم انه موسيقى موهوب . وكان لبقا ، انيقا، مرحا، يستهوى النساء . وفى تلك الاثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شىء من الدهاء والقول المعسول ، وشغل عنى بأولاده منها

• **وانتهى** بى المطاف الى (لوزان) ، حيث رحت أتكسب عيشي بتدريس الموسيقى ، باذلا جهدى — فى الوقت ذاته — الى تنمية معرفتى بها . وحاولت اذ ذاك ان أكون ملحنا ، دون ما المام كاف بأصول التلحين ، فمنى لحنى الاول بفشل ذريع ،

جعلنى اعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت

• **ولم** اكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين الى «ماما» ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وانما لحاجتى القلبية قبل كل شىء ! .. ومع ذلك ، فان تعلقى بهـا ـ رغم ما كان عليـه من تأجج وقوة ـ لم يكن ليحول بينى وبين ان أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

• **وقدر** لى ان اذهب الى باريس ، ولكننى لم الق فيها الحظ الذى كانت تصـوره لى احلامى . على اننى ظفرت هنـاك بنبأ جعلنى انطلق من جديد بحثا عن السيدة دى «فاران» . وهكذا اخذت أجوب الأقاليم على غير هدى ، متعرضا للتشرد ، والتضور جوعا ، والنوم فى الطرقات .. حتى عرفت أخيرا ان « ماما » الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، فخففت اليها .. وما كان احلاه من لقاء !

• **واستطاعت** «ماما» ان تحصل لى على منصب فى «المساحة» ، فبدأت اكسب عيشي بعمل مشرف !.. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى !

• **واقمت** فى دار «ماما» ، ولكنها لم تكن فى بهاء دارها الأخرى فى (انيسى) ، اذ كانت موارد «ماما» فى تضاؤل ، وكانت أمورها مضطربة . وفى هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت ان «ماما» كانت على علاقة بخادمها الوفى « كلود آنيه » . وكان شابا لايكبرنى بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، فبدا منى بمثابة المربى . ومع اننى لم انج من الألم ، اذ ادركت ان ثمة من استطاع ان يعيش مع «ماما» فى مودة تفوق مودتى كثيرا ، الا ان وفائى للسيدة امتد الى الشاب ، فقد كنت راغبا فى سعادتها هى قبل كل شىء !

• **وانصرفت** الى الموسيقى ـ فى تلك الاثناء ـ فى استغراق ملك على حـواسى ، وحملنى على ان اسـتقيل من عملى فى «المساحة» ، وان اسـتعين علي الحياة بتدريس هـذا الفن .

وقادنى هذا الى المجتمع الراقى، والى دور ذوى الجاه والثراء. وبقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هــذا الوسط ، فان سذاجتى ـ التى ذهبت الى درجة الغبـاء ـ كانت تفوت على الفرص. الى ان أحست «ماما» بأن احدى السيدات كانت توشك ان توقعنى فى أحابيلها، فأشفقت على من مخاطر شبابى، ورأت ان تنقذنى منهـا بأغرب طريقة خطرت لامـرأة فى مثل ظروفها .. بأن تمنحنى نفسها !

• **وأخذت** «ماما» تروى عطشى الى النساء من معينها .. على ان العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحيــة والفكرية ، كمـا انها لم تؤثر على علاقة كل منـا بخادمها وعشيقها « كلود آنيه» ، بل قامت بين «ثلاثتنا» زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض !.. وما لبث « آنيه » ان مات ـ وهو فى ريعان شبابه ـ فحللت محله فى تدبير شئون «ماما» وماليتها . ولاحظت ان مواردها كانت فى نضوب، فاخذت اعمل جاهدا على ان أجنبها هاوية الافلاس .

• **وانتهى** بى التفكير الى وجوب الحصـول على عمل ، كى أعول من دخله «ماما» اذا ألمت بهـا الفاقة . وفى سـبيل ذلك رأيت ان أتعلم التلحين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جـديدا على تبديد مواردها المتضائلة !.. وكذلك شرعت فى تأليف الأغانى.

• **وقضيت** عامين او ثلاثة بين الموسيقى، ومجالسة الحكام وذوى الجاه ، والرحلات.. وما لبثت صحتى ان اخذت تتداعى، وغلبنى الاكتئاب والاسى والتشاؤم، فنصح لى الطبيب بأن اقيم فى الريف . وسرعان ما استـأجرت «ماما» منزلا ذا حديقــة وبستان ، فى ضيعة (شارميت) . وهناك ، نعمت بأهنأ فترة فى حياتى .. مع «ماما» !

• **ولكنه** كان هناء قصير الأجل .. ففى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب، وضيق فى التنفس ، وطنين فى الاذنين، وتراخ

فى حيويتى ، مما أوحى الى بأن عمرى لن يطول ، فرايت ان استمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع . وأقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما اكثرت من الأسفار ، انشد علاجا لعللى .

• **وفى احدى** هذه الاسفار ، ألتقيت بالسيدة دى «لارناج» وكانت تكبرنى فى السن كثيرا، ولكنها راحت تعمل على اغوائى، حتى اذا رات ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل اقبالى عليها ، لم تتورع عن ان تكون هى البادئة بالعناق والتقبيل . وأصبحت عشيقتى خلال الرحلة. ولو اننى عشت مائة عام ، لما استطعت ان افكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون ان يطغى السرور على !.. كانت متعتى مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق.. اما مع السيدة دى لارناج، فقد كنت فخورا برجولتى ، مزهوا بسعادتى

• **وكانت** صدمة لى ان عدت الى «ماما» ، فوجدت ان شابا قدحل محلى اثناء غيابى.. وكان شابا جاهلا ،مغرورا، استطاع ان يفرض على «ماما» سلطانه ، فلم استطع ان اطيق بقاء الى جوارها ، وقررت ان أهجر الدار ، وان ارحل الى باريس ، لأعرض على «الأكاديمية» طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات

الكتاب الثانى

• **وصلت** الى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ .. واستطاع بعض من حملت اليهم خطابات للتوصية ، ان يمكننى من التقدم الى «الاكاديمية» برسالتى التى قدر لى ان يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له المام كاف بالموسيقى ، فانتهوا الى الحكم بعدم صلاحية طريقتى. وبدلا من ان استسلم للقنوط، اسلمت نفسى للخمول وللقدر ، ورحت أقتر على نفسى لأفيد بما تبقى من مواردى المتضائلة

والآن . تعال نتابع « روسو » وهو يشق طريقه الى قمة المجد فى المجتمع الباريسى

• **ولقد** كانت السكينة ، واللذة ، والثقة التى استسلمت بها لهذه الحياة الخاملة المنعزلة ـ بالرغم من اننى لم اكن امتلك موارد تمكننى من ان استمر فيها ثلاثة أشهر ـ من الصفات الفذة فى حياتى ، ومن الظواهر العجيبة فى طباعى ! .. كانت الحاجة البالغة الي أن أجد من يعنى بى ، هى عين الشيء الذى جردنى من الجرأة على ان اظهر بين الناس .. كما ان الضرورة التى كانت تدعونى الى زيارة الناس ، جعلت الزيارات أمرا لا اطيقه،حتى اننى كففت عن زيارة اعضاء المحفل انفسهم وغيرهم من رجال الأدب ، الذين قد تعرفت اليهم . واصبح « ماريفو » والراهب دى «مابلى» و«فونتنيل» هم الوحيدون ـ تقريبا ـ الذين ظللت أزور دورهم فى بعض الأحايين .. كذلك اطلعت اولهم على مسرحيتى الهزلية « نارسيس » فراقت له ، وتكرم بأن ادخل عليها بعض التنقيح ! .. وكان « ديدرو » يصغرهم كثيرا فى السن، فقد كان يقاربنى عمرا. وكان مولعا بالموسيقى، ملما بنظرياتها ، ومن ثم فاننا كنا نتحدث عنها ، **كما انه كان يحدثنى عن مشروعاته الأدبية، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوى دامت خمس عشرة سنة ، وكان من المحتمل أن تدوم زمنا أطول ، لو اننى لم ادفع دفعا ـ لسوء الحظ ـ الى مهنته ذاتها .. وكان هو صاحب الذنب فى ذلك !**

ولن يمكن تصور الطريقة التى استغللت فيها هذه الفترة القصيرة ، الثمينة ، التى سبقت اضطرارى الى ان اتسول قوتى ! .. فلقد حفظت عن ظهر قلب أجزاء من الشعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها . واعتدت أن اتمشى كل صباح ـ فى حوالي الساعة العاشرة ـ فى حدائق (لوكسمبورج)، حاملا « فيرجيل » أو « روسو » فى جيبى (١) ، وأروح اردد

---

(١) يقصد ديوانى الشاعرين « فيرجيل » و « جان بابتيست روسو » .

فى ذهنى ـ حتى موعد الفداء ـ احد الاناشيد القدسية ، او احد اناشيد الرعاة ، دون أن يثبط من عزيمتى أننى كنت واثقا من اننى لن البث ـ اذ أردد الجزء الذى اخترته ليومى ـ ان انسى الجزء الذى حفظته بالأمس .. وتذكرت ان الاسرى الاثينيين ـ بعد هزيمة « نيسياس » فى (سيراكيوز) ـ (١) كانوا يستمدون قوتهم من ترديد اشعار « هوميروس » . ولقد كان الدرس الذى استخلصته من هذه ، كى أعد نفسى للفاقة ، هو أن أروض ذاكرتى البديعة على حفظ جميع الاشعار عن ظهر قلب !

* * *

• **وكانت** لدى طريقة مبتكرة مكينة أخرى فى الشطرنج ، الذى كنت اكرس له بانتظام فترة ما بعد الظهر ـ من الأيام التى لم أكن أذهب فيها الى المسرح ـ فى مقهى « موجى » . وقد تعرفت هناك الى السيد دى « ليجال » ، والى سيد يدعى « هوسون » ، والى « فيليدور » ، والى جميع لاعبى الشطرنج الكبار فى ذلك المهد ، دون أن أحرز مزيدا من التقدم فى اللعب . على أننى لم أكن أرتاب فى أننى لن البث أن أغدو فى النهاية أقوى منهم جميعا ، وكان هذا ـ فى رأيى ـ كافيا لأن يمدنى بمورد للعيش . وكنت كلما استهوتنى فكرة طائشة جديدة ، رحت أدبرها بنفس الطريقة دائما .. كنت أقول لنفسى : « ان الذى يبرز فى شىء ، يطمئن دائما الى انه منشود . فلنبرز اذن ، فى أى شىء ، واذ ذاك أغدو مرغوبا .. ان الفرص سانحة ، وعلى كفاءتى يتوقف ما بقى من الامر ! » .. ولم يكن هذا التفكير الصبيانى وليد سفسطتى ، وانما كان نتاج كسلى . فقد كنت فى جزعى من الجهود الضخمة السريعة التى كانت

---

(١) كان نيسياس من أشهر القادة الاغريق الذين برزوا فى حروب البلوبونيز ، وقد هزم وهلك فى حملة صقلية فى سنة ٤١٣ قبل الميلاد .

خليقة بأن ترهقنى ، أسعى الى أن أزين كسلى لنفسى ، والى ان أدارى خجلى من نفسى بحجج ملائمة !

وهكذا مكثت ساكنا الى ان انتهت نقودى . وأعتقد اننى كنت على استعداد لأن اقبع حتى آخر « سو » لدى ، دون اى قلق ، لولم يوقظنى الأب « كاستيل » ـ الذى كنت أذهب لزيارته أحيانا ، وأنا فى طريقى الى المقهى ـ من سباتى . ولقد كان الأب «كاستيل» مخبولا ، ولكنه كان ـ برغم هذا ـ رجلا طيبا . وقد غاظه أن رآنى أبدد وقتى وامكانياتى بهذا الشكل، دون أن أفعل شيئا . فقال لى : **« مادام الموسيقيون ، وما دام العلماء ، يأبون ان يغنوا بطريقتك ، فعدل من أوتارك ، وجرب النساء ، ولعلك تكون ـ فى هذه الناحية ـ اكثر توفيقا ! ..** لقد تحدثت عنك الى السيدة دى « بوزينفال » ، فاذهب لزيارتها ، واذكر انك قادم من لدنى ! .. انها امرأة طيبة ، يسرها ان ترى شخصا من موطن زوجها وابنها (١) ، ولسوف تلتقى فى دارها بابنتها السيدة دى « بروجلى » ، وهى أمرأة زكية .. وهناك السيدة « دوبان » ، وهى الأخرى ممن حدثتهن عنك ، فاحمل اليها مؤلفك ، لأنها تتوق الى رؤيته ، وسوف تحسن استقبالك ! .. **ان المرء لا يستطيع ان يبرم عملاً فى (باريس) الا بوساطة النساء ، فهن كالمنحنيات ، التى يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقاربية (٢) لها .. فالفريقان يتقاربان باستمرار ، ولكنهما لا يتماسان ابدا ! »**

وبعد ان ارجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم الى آخر ، استجمعت أخيرا شجاعتى، وذهبت لزيارة السيدة «بوزينفال» ، فأكرمت وفادتى ، واذ دخلت السيدة دى «بروجلى» الغرفة ،

---

(١) كانت البارونة دى بوزنيفال بولندية متزوجة من فرنسى .

(٢) الخط التقاربى - او التقريبى - فى الهندسة ، هو خط مستقيم يطابق المنحنى تطابقا لا نهائيا .. اى انهما يتقاربان دائما دون ان يتماسا !

بادرتها قائلة : « ها هو ذا ، يا ابنتى ، السيد روسو الذى حدثنا عنه الأب كاستيل ! » . فأطرت السيدة دى بروجلى مؤلفى ، وقادتنى الى معزفها ، لترينى انها كانت معنية به . ووجدت ان الساعة قد شارفت الواحدة ، فأردت الانصراف ، غير ان السيدة دى بوزينفال قالت لى : « انك على مسافة بعيدة من مسكنك ، فامكث ، وتناول غداءك هنا » . ولم أكن بحاجة الى الحاح .. **وبعد ربع ساعة ، ادركت ان المائدة التى دعتنى اليها كانت مائدة الخدم !** .. فقد كانت السيدة دى بوزينفال طيبة ، ولكنها كانت ضيقة الافق ، شديدة الاعتداد بعراقة اصلها البولندى ، وليست لديها فكرة تذكر عن الاحترام الواجب للمواهب . وقد حكمت على – فى هذه المناسبة – بمسلكى اكثر منها بملبسى الذى كان – رغم بساطته المتناهية – لائقا كل اللياقة ، ولا ينم قط عن رجل يؤاكل الخدم .. لا سيما واننى كنت قد نسيت الطريق الى مائدة الخدم من زمن طويل ، ولم أكن راغبا فى أن أتعلمها من جديد (١) .. وقلت للسيدة دى بوزينفال – دون أن أبدى غضبى – اننى تذكرت أن لا بد لى من العودة الى مسكنى لمهمة بسيطة . فاقتربت مدام دى بروجلى من امها ، وهمست فى اذنها ببضع كلمات كان لها تأثير سريع ، اذ نهضت مدام دى بوزينفال لتستبقينى قائلة : « اننى اقصد ان يكون تشريفك ايانا بالغداء .. معنا ! » . ورأيت ان التشبث بالكرامة عمل اخرق ، فمكثت . والى جانب ذلك ، كان لطف السيدة دى بروجلى قد ملك قلبى ، وجعلنى ارتاح اليها . فكنت جد مغتبط بتناول الغداء معها . وداخلنى الأمل فى انها لن تندم – اذا ماعرفتنى جيدا – على انها أولتنى هذا الكرم . ولقد تناول الغداء هناك

---

(١) يعنى «روسو» انه كان قد نسى معاشرة الخدم وارتفع فوق مستواهم . ولعلنا نذكر – مما جاء فى الجزء الاول – انه عمل خادما فترة من الزمن .

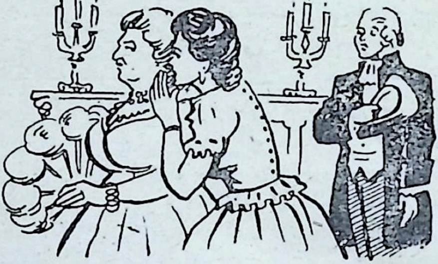

أيضا ، السيد رئيس (لاموانيون) ، وهو من اعظم اصدقاء الأسرة ،وكان ــ كالسيدة دى بروجلى ــ يألف اللهجة الباريسية الموجزة ، التى تتالف من كلمات صغيرة ، كلها كنايات بسيطة رفيعة .. **ولم يكن لجان جاك البائس مجال للتالق فى هذا المضمار ! .. وكنت من حسن الادراك بحيث اننى لم اشا ان اتظرف بالرغم من ((منيرفا)) (١) ، فأمسكت لسانى ! .. ماكان أسعدنى لو اننى كنت دائما بهذه الحكمة ؟ .. لقد كنت بهذا جديرا بأن لا أتردى فى الدرك الذى اجدنى اليوم فيه !**

ولقد استأت لما بدوت عليه من ثقل الفهم ، ولعجزى عن أن ابرر ــ فى نظر السيدة دى بروجلى ــ ما فعلته هى من أجلى . لذلك لجأت ــ بعد الغداء ــ الى موردى المعهود . فقد كانت فى جيبى رسالة شعرية ، كتبتها الى « بريسو » اثناء مقامى فى (ليون) ، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصاصة ، فعمدت الى قراءتها ، واستطعت أن أحمل ثلاثتهم على البكاء . ولقد خيل الى ــ سواء عن غرور ، أو عن صدق فى تأويلاتى ــ اننى رأيت عينى السيدة دى بروجلى تقولان بنظراتهما لأمها :

---

(١) مينرفا ربة الذكاء والحرب والفنون لدى الرومان . ويشير « روسو » بهذا التعبير الى انه لم يشا ان يدعى ما كان بعيدا عن ان يسعفه فيه ذكاؤه.

« ما رايك يا ماما ؟ ! .. أفكنت على خطأ اذ قلت لك ان هذا الرجل كان أكثر جدارة بان يتناول غداءه معنا منه مع وصيفاتك ؟ » .. وكنت حتى تلك اللحظة مثقل القلب ، ولكننى شعرت بالرضى بعد أن ثأرت لنفسى على هذا النحو . ولقد تمادت السيدة دى بروجلى قليلا فى الرأى الطيب الذى داخلها نحوى، معتقدة اننى لن البث أن اثير ضجة فى (باريس) ، وان اغدو ذا حظوة لدى النساء . **ولكى ترشدنى فى هذا المجال الذى كنت غير خبير به ، اعطتنى « مذكرات الكونت ... » ، قائلة : « ان هذا الكتاب مرشد ستحتاج اليه فى المجتمع ، وستحسن صنعا اذا أنت استعنت به بين وقت وآخر ! »** .

ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عاما ، بهذه النسخة ، معترفا بفضل اليد التى جاءتنى عن طريقها ، وان كنت كثيرا ما أضحك للراى الذى لاح ان هذه السيدة قد ارتأته عن مؤهلاتى للظرف والملاطفة .. ومنذ اللحظة التى طالعت فيها هذا الكتاب ، رغبت فى أن أخطب ود صاحبه . وقد حققت الأحداث هذه الرغبة ، فاذا هو الصديق الصادق الوحيد لى بين رجال الأدب (١) .

وجرؤت ـ منذ ذلك الحين ـ على ان اطمئن الى أن السيدة البارونة دى بوزينفال ، والسيدة المركيزة دى بروجلى ـ وقد اهتمتا بأمرى ـ لن تدعانى طويلا بلا مصدر للعيش . ولم أخطىء الحدس ! .. فلنتكلم الآن عن دخولى دار السيدة « دوبان » ، الذى كانت عواقبه أطول مدى وأجلا !

☆ ☆ ☆

• **كانت** السيدة « دوبان » ـ كما هو معروف ـ ابنة

---

(١) عقب « روسو » ـ فى هامش مذكراته ـ على هذا بقوله : « هكذا ظللت اعتقد طويلا ، وعن اقتناع راسخ ، حتى انى عهدت اليه ـ منذ عودتى الى باريس ـ باعترافاتى . اذ ان جان جاك الحذر المستريب ، لم يؤمن قط بوجود الغدر والخداع ، الا بعد ان وجد نفسه ضحية لهما » .

صمويل برنار ، والسيدة فونتين .. وكن ثلاث اخوات ، من الممكن ان يدعين بالحسان الثلاث : السيدة ديلا توش ـ التى فرت الى انجلترا مع دوق كينجستون ـ والسيدة دارتى ، عشيقة السيد الأمير دى كونتى ، بل ـ بالأحرى ـ صديقته الصديقة الوحيدة المخلصة ، وكانت امراة جديرة بان تعبد ، للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة،بقدر ما هو لذكائها المستحب، والمرح الذى لم يكن يفارق طباعها . وأخيرا ، السيدة«دوبان» ، اجمل الثلاث ، والوحيدة منهن التى لم يكن ثمة عوج يعاب عليها فى مسلكها ! .. وكانت جزاء كرم ضيافة السيد دوبان ، اذ ان أمها منحته اياها ، مع منصب « الملتزم العام » (١) وثروة ضخمة ، عرفانا لحسن حفاوته بها فى اقليمه !

وكانت ـ عندما رايتها لاول مرة ـ لا تزال من اجمل نساء باريس . وقد استقبلتنى فى غرفة زينتها ، وكانت ذراعاها عاريتين ، وشعرها مهوشا ، وثوبها مهدلا .. وكان مثل هذا الاستقبال الأول جديدا على ، فلم يحتمله راسى البائس ، واضطربت ، وارتبكت .. وموجز القول اننى شغفت هوى بمدام دوبان !

ولم يلح ان اضطرابى قد أحدث اثرا سيئا ، اذ انها لم تبد ما ينم عن انها لاحظته . وفى استقبالها للكتاب ولمؤلفه ، راحت تحدثنى عن مشروعى حديث الملمة به .. وغنت ، وصاحبت غنائها بالعزف ، واستبقتنى للغداء ، واجلستنى الى جانبها حول المائدة . وما كان ثمة ما يدير راسى أكثر من هذا ، فاذا بى اغدو مجنونا بها ! .. وسمحت لى بان اتردد عليها ، فاستغللت ـ بل اسات استغلال ـ هذا السماح ، اذ اصبحت اذهب الى دارها فى كافة الايام تقريبا ، واتناول الغداء هناك مرتين او ثلاثا فى الأسبوع ، وكنت أموت شوقا الى مصارحتها

---

(١) الملتزم العام هو الموكل بتحصيل الضرائب .

بحبى ، ولكننى لم اجسر على ذلك ، فقد ضاعفت من خجلى الطبيعى عدة أسباب .. **كان دخول اى بيت من بيوت الاثرياء المرفهين ، بمثابة باب مفتوح للحظ ، فلم أشأ ـ فى موقفى اذ ذاك ـ أن أتعرض لاغلاق هذا الباب . ثم ان السيدة دوبان كانت ـ رغم لطفها ـ رصينة وباردة ، فلم أجد فى مسلكها شيئا مشجعا يثير جراتى .** وكانت دارها متألقة كأية دار أخرى فى باريس ، فى ذلك الحين ، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشىء لكى تغدو نخبة من كل نوع من علية القوم . فلقد كانت السيدة تحب أن ترى جميع المتألقين : من عظماء ، وأدباء ، ونساء جميلات .. وما كان ليرى عندها سوى الدوقات ، والسفراء ، وذوى الأشرطة الزرقاء (١) .. ومن الممكن اعتبار السيدة الأميرة دى روهان ، والسيدة الكونتة دى فوركالكييه ، والسيدة دى ميربوا ، والسيدة دى برينوليه ، والليدى هيرفى ، بين صديقاتها ! .. كما ان السيد دى فونتنيل ، والراهب دى سان بيير ، والراهب

---

(١) لقب يطلق على فرسان الطيف المقدس . على ان من المحتمل ان يكون روسو قد استعمله هنا بمعنى : المبرزين من القوم .

ساليبه ، والسيد دى فورمو ، والسيد دى بيرنى ، والسيد دى بوفون ، والسيد دى فولتير ، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها . ولو ان مسلكها المتحفظ لم يجتذب اليها عددا كبيرا من الشباب ، لكانت الجماعة التى اعتادت الاجتماع فى دارها ، صفوة مختارة ، وبالتالى اكثر وقارا !.. وما كان لجان جاك البائس أن يزين لنفسه فكرة ان يتألق كثيرا وسط كل هؤلاء ! .. **لذلك فاننى لم أجسر على ان أفضى للسيدة بعواطفى ، ولكنى لم اعد اطيق صمتا ، فجرؤت على الكتابة . وقد احتفظت بالخطاب يومين ، دون ان تذكر لى شيئا عنه . وفى اليوم الثالث ، ردته الى مع بضع كلمات تانيب ، قالتها بلهجة باردة تجمد لها دمى !** .. وحاولت أن أتكلم ، ولكن الكلمات ماتت على شفتى ، وخبا وجدى الفجائى مع املى. وبعد هذا الاعلان الكتابى لحبى ، واصلت العيش بقربها كذى قبل ، دون أن أحدثها عن شىء من عواطفى ، ولو بنظرات عينى !

ولقد ظننت أن حماقتى أصبحت منسية ، ولكنى كنت مخطئا ! .. وكان السيد دى فرانكويى ، نجل السيد دوبان ، وابن زوج السيدة دوبان (١) ، يقارب السيدة فى السن ، ويقاربنى . وكان لامع الذكاء ، مليح الهيأة ، يحسن الظهور بمظاهر العظمة . ويقال انه كان مقربا الى السيدة دوبان ، لا لشىء الا لأنها زوجته من امراة شديدة الدمامة ، ولكنها ضافية اللطف ، وعاشت معهما فى وئام تام ، وكان السيد دى فرانكويي يحب المواهب ويتكفل بمساعدة اصحابها ، ومن ثم فان الموسيقى ــ التى كان يلم بها الماما عظيما ــ كانت وسيلة ورباطا بيننا . ولهذا اعتدت ان القاه كثيرا ، فتعلقت به .

---

(١) اى انه كان ثمرة زواج سابق للسيد دوبان . ويلاحظ ان « دى » قبل الاسم ، معناه ان صاحبه يحمل لقبا ، وهذا يبرر عدم حمل «فرانكويى» لاسم دوبان !

وقد اوعز الى — فجاة — بان السيدة دوبان اصبحت ترى ان زياراتى اكثر مما كان ينبغى ، ورجانى ان اكفعنها ! ..ولعل هذه الاشارة كانت فى محلها ، لو انهـا صدرت عند ما اعادت السيدة الخطاب الى . اما وقد صدرت بعد ثمانية ايام — او عشرة — ودون اى سبب آخر ، فقد لاحت لى غير ذات موضوع .
ومما زاد الموقف غرابة ، ان هذا لم يضعف الحفـاوة — التى كنت اقابل بهـا فى دار السيد والسـيدة دى فرانكويى — عن ذى قبل ! على اننى خففت من ترددى عليهما ، وكنت موشكا أن أقطع زياراتى تماما ، لولا ان السيـدة دوبان — مدفوعـة بنزوة لم اتبين اذ ذاك حقيقتهـا — سألتنى أن أعنى ، لثمانية أيام أو عشرة ، بابنها الذى كان اذ ذاك قد فقد مربيه السابق ، وكان من المنتظر أن يبقى وحيدا ريثما يصل المربى الجديد . ولقد قضيت هذه الأيام الثمانيـة فى عذاب ، لم يكن ليجعلـه محتملا سوى لذة ارضاء السيدة دوبان !..اذ كان « شينونسو » المسكين (١) قد اصيب بخبل كاد أن يجر الخزى على الأسرة ، وكان سببا فى موته بعد ذلك ، فى جزيرة (بوربون) . ولقد كنت — أثنـاء وجودى بجواره — احول بينـه وبين ان يؤذى نفسه أو يؤذى غيره . وما كانت هذه المهمة بالسهلة ، كما اننى لم اكن لأتولاها ثمانية أيام أخرى ، ولو منحتنى السيدة دوبان نفسها فى مقابل ذلك !

* * *

• وأولانى السـيد دى فرانـكويى صداقتـه ، فعملت معه ، وبدأنا نتلقى سويا منهجا فى الكيمياء لدى « رويل » . ولكى اكون على مقربة منه ، تركت نزلى — « سان كينتان » —

---

(١) « شينونسو » هو اسم ابن مدام دوبان .

وانتقلت للاقامة فى « ساحة التنس » بشارع (فرديليه) ، الذى كان يفضى الى شارع (بلاتيير) ، حيث يقيم السيد دوبان . وهناك ، نشأ عن اصابتى ببرد اهملته ، ان وقعت فريسة التهاب رئوى كدت اموت منه. **وكثيرا ما كنت اصاب فى شبابى بتلك الأمراض الالتهابية : التهابات البلورة (ذات الجنب)، والتهابات اللوزتين ـ التى كنت ضحية سهلة لها بوجه خاص ـ وغيرها ، مما لا ارانى بحاجة الى تسجيله هنا ، وكانت جميعا تدفعنى الى حيث ارى الموت عن كثب كاف لأن آلف شكله ! ..** وسنح لى الوقت ـ اثناء نقاهتى ـ للتفكير فى حالى ، وللرثاء لجبنى ، وضعفى ، وكسلى الذى كان ـ رغم ما كنت اكتوى به من نار ـ يتركنى اذبل فى خمول ذهنى على ابواب الفاقة !

وكنت فى اليوم السابق لوقوعى فى المرض ، قد ذهبت لمشاهدة « اوبرا » لروييه كانت تمثل اذ ذاك ، وقد غاب عنى اسمها . وبالرغم من ان تعنتى فى الحكم على مواهب سواى جعلنى دائما لا اطمئن الى مواهبى ، فاننى لم استطع ان اكبح نفسى عن ملاحظة ان الموسيقى كانت باردة ، فاقدة الحرارة ، خلوا من الابتكار والتجديد . وكنت اجرؤ ـ فى بعض الاحيان ـ على ان اقول لنفسى : « يخيل الى ان بوسعى ان اصنع خيرا من هذا » .. بيد ان الفكرة ـ الباعثة على التهيب ـ التى داخلتنى عن تلحين « الاوبرا » ، والأهمية التى كنت اسمع الاخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل ، ثبطت عزيمتى فى الحال ، وجعلتنى اتضرج خجلا لجراتى على التفكير فى ذلك ! .. ثم ، اين لى بمن يرضى بأن يزودنى بالأقوال اللازمة لأية «اوبرا»، وان يتجشم عناء تنسيقها وفقا لهواى ؟ .. **ولقد عاودتنى هذه الأفكار عن الموسيقى والاوبرا ، اثناء مرضى ، فرحت ابان هذيانى انظم الاغانى والثنائيات والاناشيد الجماعية ..واوقن اننى نظمت قطعتين او ثلاثا لفورى ـ وعفو الخاطر ـ ربما**

كانت جديرة باعجاب الاساتذة ، لو انهم سمعوها تؤدى .. ولو تسنى تسجيل احلام امرىء محموم ، فاية اشياء جليلة وعظيمة قد يتيسر استخلاصها احيانا من هذا الهذيان !

ولقد ظلت موضوعات الموسيقى والاوبرا هذه ، تشغلنى اثناء نقاهتى ، ولكن فى توارد أكثر هدوءا . وبدافع من التفكير فى ذلك ــ بل وبالرغم من نفسى ــ اعتزمت أن ارضى نفسى ، وان احاول وضع « اوبرا » ، بكلامها وموسيقاها ، دون معونة من أحد . ولم تكن هذه اول محاولة لى ، اذ كنت قد ألفت فى (شامبيرى)اوبرا ومأساة ــ اوبرا تراجيدى ــ بعنوان «ايفيس واناكساريت » ، وكنت من حسن الادراك بحيث رميت بها فى النار ! .. كما نظمت فى (ليون) اخرى بعنوان « اكتشاف الدنيا الجديدة » ، لم البث بعد ان قرأتها على السيد«بورد» ، والراهب دى « مابلى » ، والراهب « تروبليه » وغيرهم ، ان انتهيت بها الى عين المصير ، بالرغم من اننى كنت قد كتبت موسيقى المطلع والفصل الاول ، وعندما اطلع « دافيد » على الموسيقى ، انبأنى بأنها كانت تحتوى على مقاطع تليق ببونوتشينى (١)

وفى هذه المرة ، أتحت لنفسى وقتا للتفكير فىمشروعى ،قبل ان أمد يدى الى العمل . ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة (باليه) ثلاثة موضوعات مختلفة ، فى ثلاثة فصول مستقلة ، لكل منها لون من الموسيقى مغاير لما للآخرين . ونسجت كلا منهما حول غراميات احد الشعراء ، ثم اسميتها « عرائس الشعر اللطاف » (٢) .. وكان الفصل الأول يدور

---

(١) اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الايطاليين ، كانوا ابا وابنيه. وقد اقام اصغر الابنين ردحا فى انجلترا ، وكان اكثر الثلاثة شهرة .

(٢) Les Muses Galantes

حول « تاس » (١) ، وقد صيغت موسيقاه فى اسلوب قوى. اما الفصل الثانى ، فكان عن « اوفيد » ، وكانت موسيقاه رقيقة ، فى حين أطلقت على الفصل الثالث اسم « انا كريون »، وقد روعى فيه ان يفوح بأنفاس الاطراء والمديح ! .. وجربت براعتى - فى البداية - فى الفصل الاول ، فعكفت عليه بحماس مكننى - للمرة الاولى - من ان اتذوق لذائذ توقد القريحة فى التلحين !.. **وفى ذات مساء كنت أهم بدخول دار « الاوبرا » ، واذا بى أجدنى نهبا للأفكار ، واذا بها تطغى على ، فرددت نقودى الى جيبى ، واسرعت الى غرفتى واغلقتها على نفسى ، وارتميت على السرير ، بعد ان أحكمت ستائر النافذة لأحول دون تسرب ضوء النهار .. وهناك ، اسلمت نفسى تماما للالهامات الشعرية والموسيقية ، فوضعت بسرعة ، وفى سبع**

---

(١) تاس : هو الشاعر الايطالى توركاتو تاسو ، ويعتبر من اعظم اصحاب ملاحم البطولة . وقد عاش فى القرن السادس عشر . ولهذا اختار « روسو » طابع القوة للفصل الذى نسجه حوله . اما « اوفيد » ، فكان شاعرا لاتينيا، اقترن اسمه بالحب والهوى ، رغم ما قاساه فى حياته من شجون ومتاعب ، حتى انه مات منفيا . اما « انا كريون » ، فكان شاعرا غنائيا تفوح اغانيه بتمجيد اللهو والطعام واللذة .

ساعات او ثمان ، اروع قسم من الفصل ! .. وبوسعى ان اقول ان حبى للأميرة دى « فيرارى » ـ اذ اننى كنت «تاس» اذ ذاك ـ ومشاعرى النبيلة المترفعةازاء اخيها الظالم ، اتاحت لى ـ لليلة واحدة ـ من المتع ما كان يفوق مائة مرة ، كل ما كنت خليقا بأن اجده بين ذراعى الأميرة نفسها (١) .. ولم يبق فى راسى ـ فى الصباح ـ سوى قسط بسيط مما نظمته ولحنته ، ولكن هذا الجزء ـ الذى شوهه الاجهاد والنعاس تقريبا ـ لم يخفق فى ان يكشف عن قوة المقطوعات التى تبقت كالأطلال !

وفى هذه المرة ، لم امض بعيدا فى هذا المشروع كثيرا ، نظرا لانصرافى الى الشئون الأخرى . ولم تكن السيدة دى بوزينفال ، والسيدة دى بروجلى ـ اللتين ظللت ازورهما من وقت لآخر ـ قد نسيتانى تماما فى غمرة تعلقى بأسرة دوبان . فقد حدث ان عين السيد الكونت دى مونتيجى ـ الذى كان ضابطا فى الحرس ـ سفيرا فى (فيينا) . وكان مدينا بسفارته الى « بارجاك » (٢) الذى كان قد ثابر على مصاحبته . كما ان اخاه ـ الشيفالييه دى مونتيجى ـ كان « فارس الكم » للسيد ولى العهد (٣) . وقد كان على معرفة بهاتين السيدتين (٤) ، وبالراهب « الارى » ـ عضو المحفل الفرنسى ـ الذى كنت ازوره ، فى بعض الاحيان ، كذلك . واذ علمت السيدة دى بروجلى بأن السفير كان يبحث عن سكرتير ، رشحتنى لديه .

---

(١) كانت الأميرة اجمل نساء عصرها ، وقد تصور « روسو » انه « تاس » الذى تدله فى هواها ، وثار على مظالم اخيها !

(٢) كان بارجاك هو الخادم الخاص للكردينال دى فلورى ، الذى كان واسع النفوذ لدى الملك .

(٣) فرسان الكم : طائفة من النبلاء كانوا يجمعون بين التدين والبطولة . وكانوا يتولون رعاية الامراء الفرنسيين حتى يتموا تعلمهم .

(٤) السيدة دى بوزينفيل وابنتها .

وشرعنا نبحث الأمر ، فطلبت خمسين « لوى » كمرتب ، وهو مبلغ كان قليلا بالمنسبة لمنصب يتطلب الحرص على المظهر . ولكنه لم يشأ ان يدفع سوى مائة « بيستول » (١) كما كان على أن أتكفل بنفقات سفرى . وكان هذا اقتراحا يدعو للضحك ، ومن ثم فلم يقدر لنا ان نتفق ، وفاز السيد دى فرانكويى ــ الذى بذل قصارى وسعه ليحول بينى وبين الرحيل ــ بمأربه ، فمكثت بينما رحل السيد دى « مونتيجى » مصطحبا معه سكرتيرا آخر يدعى السيد « فولو » ، كانت وزارة الخارجية هى التى رشحته له . ولكنهما لم يكادا يبلغان (فيينا) ،حتى اختلفا واشتجرا . واذ رأى « فولو » انه سيضطر الى العمل مع رجل مجنون ، هجره هناك ، ولم يعد لدى السيد دى مونتيجى سوى راهب شاب يدعى دى « بينى » ، كان كاتبا تحت ارشاد السكرتير ، ولم يكن فى مركز يؤهله لأن يملأ المنصب. **ومن ثم اضطر السفير الى أن يلجأ الى مرة اخرى. وقد افهمنى اخوه « الشيفالييه » ــ الذى كان موفور الذكاء ــ ان ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير ، وبهذا افلح فى ان يغرينى بقبول الألف فرنك (٢) .. كما تسلمت عشرين «لوى» لنفقات رحلتى .. فبادرت الى السفر !**

من سنة ١٧٤٣ الى سنة ١٧٤٤

• وعند (ليون) ، تمنيت ان اتخذ طريق (مون سينى) ، لأزور « ماما » المسكينة ، زيارة عابرة . بيد اننى **انحدرت مع** نهر (الرون) ، ثم انتقلت بالبحر الى (طولون) . وكان **ذلك** بسبب الحرب ، وبداعى الاقتصاد ، وللحصول ــ كذلك ــ

---

(١) كان « اللوى » اذ ذاك ٢٤ فرنكا ، و « البيستول » ١٠ فقط .
(٢) يبدو انه يقصد قيمة المرتب السنوى .

على جواز للسفر من السيد دى « ميربوا » ، الذى كان يشرف على الأقليم اذ ذاك ، والذى كنت موفدا اليه بتوصيـة . واذ لم يكن بوسع السيد دى مونتيجى ان يستغنى عنى ، فقد راح يكتب لى الرسائل تلو الرسائل ، متعجلا سفرى . ولكن حادثا عاقنى .

كان الطاعون يتفشى اذ ذاك فى (مسينا) . وكان الاسطول البريطانى يرسو هناك ، فزار المركب التى كنت عليها ، وقـد عرضنا ذلك عند وصولنا الى (جنوا) — بعد رحلة طويلة شاقة — الى ان نحتجز تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يوما . وترك لنا الخيـار بين البقاء على سـطح المركب ، أو فى المعزل الصحى ، الذى انذرنا بأننا لن نجد فيه شيئا ، اللهم الا الجدران الاربعة ، اذ لم يكن الوقت قد اتسع لتاثيثه . واختار الجميع البقاء فى السفينة ، ولكن الحر المرهق ، وضيق المكان ، وتعذر التريض على القدمين ، والحشرات ، جعلتنى أفضـل المعزل . فاقتدت الى مبنى كبير ذى طـابقين . وكان عاريا تماما ، فلم أعثر فيه على نافذة ، ولا منضدة ، ولا سرير ، ولا مقعـد .. بل ولا كرسى منخفض بلا مسند لأجلس عليه ، ولا حزمة من القش أرقد عليها .. وأحضروا الى معطفى ، والحقيبة الصغيرة التى تضم ثياب النوم ، وحقيبتى الكبيرتين ، ثم اغلقت دونى أبواب ضخمة ، ذات اقفال هائلة .. وبقيت هناك ، حرا فى أن أتجول وفـق هواى ، من حجرة الى اخرى ، ومن طـابق الى آخر ، دون أن التقى فى كل مكان بغير العزلة والتجرد من الاثاث !

ولم يحملنى كل هـذا على ان اندم لاختيـارى المعزل دون المركب ، بل رحت أدبر أمورى — كما لو كنت «روبنصن» (١) جديدا — للأيام الثمانية والعشرين ، وكأننى كنت مقبـلا على

(١) يقصد « روبنصن كروزو »

الاقامة طيلة العمر ، وكنت أتسلى - فى البداية - باصطياد القمل الذى التقطته على المركب . فلما أصبحت نظيفا فى النهاية ، بفضل تغيير الثياب الداخلية والخارجية ، تحولت الى تأثيث الحجرة التى اخترتها ، فصنعت حشية بديعة من ستراتى وأقمصتى ، وملاءات من عدة مناشف خطت بعضها الى بعض ، وغطاء من ازارى المنزلى (الروب دى شامبر) ، ووسادة من معطفى الذى لففته ، واتخذت مقعدا من احدى حقيبتى بعد أن وضعتها على احد جانبيها العريضين ، ومنضدة من الحقيبة الأخرى بعد أن أقمتها على أحد جانبيها الضيقين ، واخرجت ورقا ومحبرة ، ونسقت حوالى اثنى عشر كتابا كنت امتلكها ، لتكون مكتبة . وقصارى القول اننى هيأت مقامى تهييئا طيبا حتى اننى كنت فى ذلك المعزل العارى انعم باقامة تعدل اقامتى فى مسكنى بساحة التنس فى شارع (ديلا فيرديليه) ، فيما عدا الستائر والنوافذ ! .. **وكانت وجباتى تقدم فى كثير من مظاهر الأبهة ، اذ كان يرافقها جنديان شهرا حربتيهما فى طرفى بندقيتيهما . وكان دهليز السلم بمثابة قاعة مائدتى ، كما**

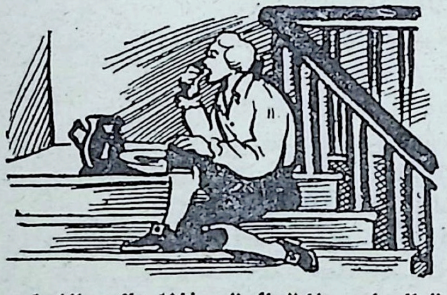

كانت عرصة السلم بمثابة مائدة ، فاذا ماأعد الغداء ، دق الذين احضروه ناقوسا - أثناء انسحابهم - لتنبيهى الى انه قد آن

لى أن أجلس الى المائدة .

وعندما كنت انصرف عن القراءة أو الكتابة ، او استكمال تأثيث حجرتى – بين الوجبات – كنت أتمشى فى مقبرة البروتستانت، التى كانت بمثابة ساحة لمسكنى ، أو أصعد الى برج يطل على الميناء ، حيث يتسنى لى رؤية السفن فى دخولها وخروجها . وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يوما ، وكنت قمينا بأن اقضى الايام العشرين بأسرها دون أن أضجر لحظة ، لولا السيد دى « جونفيى » – المبعوث الفرنسى – الذى كنت قد تمكنت من أن أرسل اليه خطابا معبقا بالخل ، ومعطرا ، وشبه محترق .. فقد انقص مدة احتجازى ثمانية ايام ، قضيتها فى داره ، حيث اعترف بأننى وجدت من راحة المقام ما لم أجده فى معزلى! .. وقد أبدى لى عطفا قويا ، كما ان سكرتيره « ديبون » كان شابا طيبا ، اصطحبنى الى بيوت عديدة – سواء فى جنوا أو فى الريف – حيث كانت التسرية موفورة . وقد وثقت معه روابط المعرفة والتراسل ، التى ظللنا نرعاها ردحا طويلا من الزمن . وما لبثت ان استأنفت رحيلى – راضيا مرتاحا – مخترقا سهل (لمباردى) . وزرت (ميلان) ، و (فيرونا) ، و (بريسيا) ، و (بادوا) ، ثم وصلت فى النهاية الى (البندقية) ، حيث كان السفير فى انتظارى ، وهو نافد الصبر !

* * *

• **ووجدت** اكداسا من الرسائل – سواء من البلاط الملكى او من السفراء الاخرين – لم يكن فى وسع السفير ان يقرأ ما كتب منها بالشفرة ، رغم انه كان يملك كافة مفاتيح الشفرة اللازمة لذلك . **ولما لم أكن قد عملت قط فى منصب من هذا النوع ، ولا رأيت فى حياتى شفرة حكومية ، فقد خشيت – فى البداية – أن أرتبك ، ولكننى تبينت انه لم يكن ثمة ما هو اسهل من**

ذلك .. وفى أقل من أسبوع ، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعا ، اذ انها لم تكن - فى الواقع - تستحق عناء . فقد كانت السفارة القائمة فى البندقية قليلة العمل دائما ، فضلا عن ان مثل هذا الرجل - السيد دى مونتيجى - لم يكن ممن يعهد اليهم بأية مفاوضات . ولقد كان فى حيرة بالغة الى ان وصلت، فما كان ليعرف كيف يملى رسائله ، ولا كيف يكتب بخط مقروء . ومن ثم فاننى كنت عظيم النفع له ، وقد شعر بذلك، فأحسن معاملتى . وكان ثمة باعث آخر حمله على ذلك ، فلقد تولى اعمال السفارة - بعد رحيل سلفه السيد دى فرولاى ، الذى اختبل عقله - القنصل الفرنسى ، الذى كان يدعى السيد لوبلون ، ثم واصل ادارتها منذ وصول السيد دى مونتيجى ريثما يدربه على نظام العمل . ولقد جنح السيد دى مونتيجى - فى غيرته من ان سواه كان يؤدى عمله ، رغم انه كان عاجزا عن ادائه بنفسه - الى كراهية القنصل ، فما ان قدر لى ان أصل ، حتى جرده من مهام سكرتير السفارة ، ليكلها الى . ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب « سكرتير السفارة »، فقد دعانى الى ان احمل هذا اللقب . وما أوفد - طيلة بقائى معه - أحدا سواى بهذه الصفة الى مجلس الشيوخ أو الى مندوبيه (١) . والواقع انه كان من الطبيعى ان يفضل ان يكون فى منصب سكرتير السفارة رجل تابع له ، عن ان يكل هذا المنصب الى القنصل او موظف كتابى معين بمعرفة البلاط .

ولقد أدى هذا الى أن أصبح مركزى جد ملائم ، ومنع افراد بطانته ، الذين كانوا من الايطاليين - كما كان أتباعه ومعظم

---

(١) كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية - فى ذلك الحين - ان يتباحث مع سفراء الدول الأجنبية ، عن طريق مندوبين يوفدهم اليهم ، ومبعوثين يوفدهم السفراء اليه . وقد كان مجلس الشيوخ - فى بعض نظم الحكم - ذا سلطة تنفيذية . وهكذا كان فى البندقية

خدمه ـ من ان ينـازعونى الاولوية فى داره . وقـد استغللت بنجـاح ما كان لهـذا المركز من سلطـان ، فى صون حقوقـه الديبلوماسية ، واعنى بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التى بذلت مرارا عديدة لانتهاكها ، والتى كان موظفوه ـ من ابنـاء البندقية ـ لا يحفلون بمقاومتها . **ومن ثم فاننى لم اسمح قط للخارجين على القانون باللجوء الى هـذا المقر ، بالرغم من اننى كنت خليقا بأن أجنى من وراء ذلك نفعا كبيرا ، ما كان صاحب السعادة ليتورع عن مقاسمتى اياه ! .. بل انه جرؤ على ان يستبيح لنفسه حقوق السكرتيرية التى يطلق عليها اسم ((أعمال الديوان))** . ومع ان الحرب كانت قائمة ، الا ان هذا لم يعف من اصدار عدد لا بأس به من جوازات السـفر ، وكان يدفع عن كل جواز منها ، ((سيكان)) (١) للسكرتير الذى ينجزه ويصدق عليه . وقد اعتاد كل من سبقونى ان يتقاضوا هذا السيكان من الفرنسيين ومن الاجانب على السواء . بيد اننى وجدت هذا الاجراء غير عادل ، ومع اننى لم اكن فرنسيا ، فاننى الغيته بالنسبة للفرنسيين ، وان رحت اتقاضى حقى ـ فى غير ما تساهل ـ من كل من عداهم . فلما ارسل لى المركيز سكوتى ـ شقيق الشخص الذى كانت له الحظوة لدى ملكة اسبانيا ـ يطلب يوما جوازا ، دون ان يرسل لى السيكان ، فطالبته به ، وهو اجتراء لم ينسه قط ذلك الايطالى المفطور على الانتقام . ومنذ ان اصبح هذا الاصلاح الذى ادخلته على رسوم الجوازات معروفا ، لم يعد يتقدم للحصول على جوازات سوى جحافل من منتحلى الجنسية الفرنسية ، الذين كانوا يزعمون ـ فى رطانة محتملة ـ ان هذا من اقليم (بروفانس) ، والاخر من (بيكار) ، والثالث من (بيرجندى) . ولما كنت قد اوتيت

(١) السيكان عملة تتراوح قيمتها بين ٩ و ١٢ فرنكا .

سمعا مرهفا ، فانني لم اكن اخدع قـط ، وما اظن ان ايطاليا واحدا استطاع ان يسلبني « سيكاني » ، او ان فرنسيا واحدا دفعه لى . **وكنت من الغباء بحيث انبأت السيد دى مونتيجي ـ الذى لم يكن يعلم شيئاً عن اى شيء ! ـ بمـا فعلت . فاذا كلمة « سيكان » تجعله يفتح اذنيه ، وبدون ان يبدى لى رأيا بصدد الغاء الرسم للفرنسيين ، طلب ان اسوى معه الحساب بشـأن الاخرين ، واعـدا اياى بمنافع فى مقـابل ذلك ! ..**
ورفضت اقتراحه عن احتقار لضعتـه اكثر منى عن تأثر من اجل مصلحتى ، وألح على ، فاذا بغضبى يحتـدم ، وقلت فى تحمس شديد : « لا ياسيدى .. ان لسعادتك ان تحتفظ بما هو حق الك ، ودع لى مـا هو حقى ، فلن انزل عن « سـو » واحد منه ! » . واذ راى انه لم يكسب شيئا بهذه الوسيلة ، عمد الى وسيلة اخرى ، ولم يخجل من ان يقول اننى ما دمت احصل على مكاسب من اعمال ديوانه ، فمن العدل ان اتحمل نفقات هذا الديوان . ولم اشأ ان اجادل فى هـذا الامر ، ومن ذلك الحين اخذت ابتاع من مالى المـداد ، والورق ، وشـمع الاختام ، وشمع الاضاءة ، والاشرطة ، وما الى ذلك .. حتى خاتم الدولة الذى اصلحته ، دون ان يدفع من نفقات اصلاحه شيئا ! .. ولم يحل هذا دون ان اعين جزءا صغيرا من ايراد عملية الجوازات للراهب دى بينى ، الذى كان شابا طيبا ، والذى كان ابعد من ان يطلب لنفسه شيئا من هذا القبيل . واذا كان قد تلطف نحوى ، فانني لم اكن اقل كرما نحوه ، ومن ثم فقد عشنا معا فى وئام على الدوام .

* * *

• **ولقد** وجدت عملى ـ اذ مارسته ـ اقل ارهاقا مما توقعت بالنسبة لرجل عديم الخبرة ، قدر له ان يعمل مع سفير لم يكن

يفوقه فى شىء ، بل انه كان بجهله وعناده يعرقل ــ وكأنما كان يسر بهذه العرقلة ــ كل ما كان يلهمنيه الادراك السليم وبعض أضواء المعرفة لأتقن خدمته وخدمة الملك !.. وكان اكثر اعماله انطواء على ادراكى ، هو ارتباطه بالمركيز دى « مارى » ، سفير اسبانيا ، الذى كان بارعا ، اريبا ، وكان بوسعه ان يقوده من انفه الى حيث شاء ، لولا انه ــ نظرا لارتباط مصالح التاجين ــ كان يمحضه عادة خير النصح ، فكان الآخر يضيع نفع هذا النصح ، اذ كان دائما يدس عليه بعض آرائه الخاصة عند التنفيذ ! .. **وكان الشىء الوحيد الذى اشتركا فى عمله ، هو اغراء البندقيين بالتزام الحياد . وكان هؤلاء لايكفون عن ادعاء الأمانة فى صون الحياد ، مع انهم كانوا يمدون الجنود النمسويين ــ علانية ــ بالذخائر ، بل وبالمجندين الذين كانوا يزعمون انهم هاربون من قواتهم** .. أما السيد دى مونتيجى ــ الذى أعتقد انه كان يبغى ارضاء الجمهورية (١) ــ فلم يكن يتوانى ، بالرغم من بياناتى من ان يحملنى على ان أؤكد فى كل رسائله انها لم تكن تنتهك الحياد اطلاقا . وكان عناد هذا الرجل المسكين وغباؤه يضطراننى الى ان اكتب وارتكب ــ فى كل لحظة ــ سخافات كنت مجبرا على ان اكون الوسيط فيها ، مادامت هذه رغبته ، ولكنها كانت ــ فى بعض الأحيان ــ تجعل اداء واجباتى أمرا لا يطاق .. بل امرا غير ميسور عمليا ! .. مثال ذلك : انه كان يصر اصرارا مطلقا على ان يكون الشطر الأكبر من رسائله الى الملك ورسائله الى الوزير مكتوبا بالشفرة ، رغم ان أيا من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شىء ما يجعل مثل هذه الحيطة لازمة !.. ولقد اوضحت له انه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة ــ الذى كانت رسائل البلاط تصل فيه ــ ويوم

---

(١) حكومة جمهورية البندقية

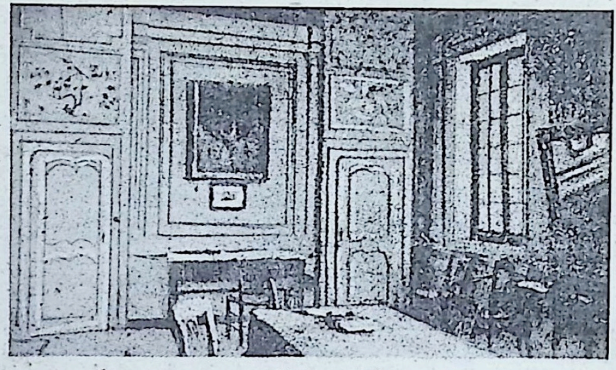

صالون البيت الذى شغله روسو مع مدام دى فاران فى شارميت

السبت ـ الذى كانت رسائلنا تصدر فيه ـ لكتابة هذه بالشفرة ، ولكتابة الكمية الكبيرة من الرسائل التى كان على ان اعدها ليحملها البريد فى اليوم ذاته . فابتكر لذلك خطة بديعة ، تلك هى ان أعد ـ فى يوم الخميس ـ ردود الرسائل التى يكون مقدرا لها ان تصل فى اليوم التالى ! . . ولقد تراءت له هذه الفكرة موفقة ـ بالرغم مما وسعنى أن أقوله عن استحالة ، بل وسخف ، تنفيذها ـ حتى انه حتم اتباعها ، فلم اكن اخفق قط ـ طيلة المدة التى مكثتها معه بعد ذلك ـ فى ان احمل اليه فى صباح يوم الخميس ، مسودة مصوغة من الكلمات القلائل التى كان يلقيها فى مناسبات عابرة خلال الأسبوع ، والتى كنت اسجلها فى مفكرتى ، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التى كنت التقطها من هنا ومن هناك ، لأتزود بها فى هذه المهمة العجيبة ! . . أقول اننى لم اخفق قط فى ان أقدم اليه فى صباح يوم الخميس مسودة للرسائل التى ينبغى

تصديرها فى يوم السبت ، فيما عدا بعض اضافات أو تعديلات كنت أؤديها فى عجلة ، على ضوء الرسائل التى تصل فى يوم الجمعة ، والتى كانت رسائلنا تعتبر ردا لها !

وكانت له نزوة أخرى،غاية فى الطرافة، اضفت على مراسلاته صبغة مضحكة لاسبيل الى وصفها : تلك هى ارسال كل نبأ الى مصدره ، بدلا من تركه يأخذ مجراه العادى.. فكان يرسل الانباء الواردة.عن البلاط الى السيد أميلو (١) ، وتلك الواردة عن باريس الى السيد دى موريبا ، وتلك المتعلقة بالسويد الى السيد دافرينكور ، وتلك الخاصة ببطرسبورج الى السيد ديلاشيتاردى .. بل انه كان يرسل الى كل منهم احيانا الانباء الواردة منه هو بالذات ، والتى كنت اجرى تعديلات طفيفة عليها !.. **ولما كان قد اعتاد ان يلقى نظرة على الرسائل الموجهة الى البلاط وحدها ـ دون بقية ما كنت احمله اليه ليوقعه ـ فانه كان يوقع الرسائل الموجهة الى السفراء الآخرين دون ان يقرأها، مما جعلنى أكثر مقدرة على ان اصوغ هذه الأخيرة وفقا لمزاجى ، أو ـ على الأقل ـ على أن أبدل من الانباء ، فلا أوجه لكل منهم عين الأنباء التى سبق ان ارسلها !** .. بيد انه كان من المستحيل على ان اصوغ الرسائل الهامة فى أسلوب معقول ، بل اننى كنت اعتبر نفسى سعيدا ، اذا لم يخطر بباله أن يدخل عليها بضعة أسطر متعجلة من وحى أفكاره . فقد كان هذا يضطرنى الى العودة الى نسخ الرسالة التى زانها بهذه السخافة الجديدة .. السخافة التى كان لابد من تكريمها بنسخها ـ بسرعة ـ بالشفرة ، اذ انه لم يكن يوقع الرسالة بدونها !..

ولقد راودنى الاغراء عشرين مرة ـ مراعاة لسمعته ـ بأن انقل بالشفرة شيئا غير الذى قاله ، ولكنى كنت ادرك ان ليس ثمة ما يبيح لى اطلاقا مثل هذا الانحراف عن الأمانة ، فكنت أدعه

---

(١) كان السيد اميلو وزيرا للخارجية ، وكان البلاط هو مقر منصبه

يهذى على مسئوليته ، قانعا بأن أصارحه برأيى ، وبأن أؤدى الواجب المفروض على نحوه !

☆ ☆ ☆

• **وهذا** ما حرصت على أن أفعله دائما بأمانة وجلد وحمية كانت تستحق جزاء غير ذاك الذى تلقيته فى النهاية .. كان قد حان لكى اكون ـ ولو لمرة واحدة ـ كما هيأتنى السماء التى أنعمت على بفطرة طيبة ، وكما أهلتنى التربية التى تلقيتها على أيدى افضل النساء وتلك التى اتحتها لنفسى.. وهذا ما حدث فعلا ! . فقد كنت وحيدا ، بلا أصدقاء ولا ناصحين ، وبلا تجربة ، فى بلد اجنبى ، وفى خدمة امة اجنبية ، وفى وسط ثلة من الأنذال الذين كانوا يستحثوننى على ان احذو حذوهم فى سبيل مصلحتهم ، ومن اجل التخلص من عار وجود مثل صالح بينهم .. **على اننى بدلا من ان افعل اى شىء من هذا القبيل ، اخلصت الخدمة لفرنسا ـ التى لم اكن مدينا اليها بأى واجب ـ وكنت أكثر اخلاصا فى خدمة السفير فى كل ما كان موكولا الى ، كما ينبغى ان يقال بحق! .. واذ لم يكن ثمة ما يؤخذ على فى منصب كهذا ، جد مكشوف للانظار المتطلعة ، فقد استحققت وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية(١) ، وتقدير السفراء الذين كنا نتبادل معهم الرسائل ، وحب كل الفرنسيين المقيمين فى البندقية .** ولم يشذ عن ذلك القنصل الذى خلفته ـ للأسف ـ فى المهام التى كنت أدرك انها من حقه ، والتى جلبت على من المتاعب اكثر مما جلبت من السرور !

واذ انصاع السيد دى مونيتجى دون تحفظ للمركيز دى « مارى » ـ الذى لم يكن ليهتم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسى ـ اهمل هذه الواجبات الى درجة انه لم يكن من المحتمل

---

(١) حكومة جمهورية البندقية

ان يدرك الفرنسيون ـ الذين كانوا فى البندقية ـ ان لفرنسا سفيرا مقيما فى المدينة ، لولاى انا ! .. ولما كانوا دائما يطردون دونما استماع الى شكواهم ـ كلما انشدوا حمايته ـ فانهم اصبحوا يزدرونه ، ولم ير واحد منهم قط فى معيته أو على مائدته ، التى لم يكن ـ فى الواقع ـ يدعوهم اليها اطلاقا . وكنت كثيرا ما آخذ على عاتقى اداء ما كان ينبغى على رئيسى ان يؤديه ، واؤدى للفرنسيين ـ الذين كانوا يلجأون اليه أو الى انا ـ كل ما كان فى طوقى من خدمات . ولقد كنت خليقا بأن أفعل فوق ما كنت أفعل ، لو اننى كنت فى اى بلد آخر .. ولكننى لم اكن أملك ـ بحكم منصبى ـ أن أقابل أى شخص من ذوى النفوذ ، فكنت كثيرا ما اضطر الى ان الجأ الى القنصل .. وكان لدى القنصل من دواعى الحذر ـ نظرا لاستقراره مع اسرته فى البلد ـ ما كان يمنعه من ان يفعل كل ما كان يهوى .. على اننى كنت اجسر أحيانا ـ عندما اراه صامتا لايجرؤ على الكلام ـ على الاقدام على تصرفات خطرة ، قدر لى التوفيق فى كثير منها. وانى لأذكر مغامرة منها ، لا تزال ذكراها تحملنى على الضحك. وما اظنه يخطر ببال أحد ، أن رواد المسرح بباريس مدينون لى بكورالين واختها كايى ، وان لم يكن ثمة ما هو أصدق من هذا. فلقد تعاقد « فيرونيز » ـ أبوهما ـ على الانضمام وابنتيه الى الفرقة الايطالية . وبعد ان تسلم ألفى فرنك لنفقات الرحلة ، لم يسافر وانما انضم ببساطة الى مسرح « سان لوك »(١) بالبندقية ، حيث اجتذبت كورالين ـ رغم انها كانت لا تزال طفلة ـ كثيرا من الناس . فكتب السيد الدوق دى جيفر ـ الأمين الأول للديوان الملكى ـ الى السفير مطالبا بالأب وابنتيه ، واسلمنى السيد دى مونتيجى الخطاب ، وكانت كل التعليمات

---

(١) أضاف روسو الى هذا قوله : « لست واثقا من انه لم يكن مسرح « سان صمويل » ، فان الأسماء الصحيحة تغيب عن ذاكرتى تماما »

التى زودنى بهـا ، هى : « انظر هـذا الامر ! » . فذهبت الى السيد لوبلون ، ورجوته ان يخـاطب السيد الذى كان يمتلك مسرح « سان لوك » ، والذى كان من اعضاء مجلس الشيوخ ــ ويدعى ، على ما اظن ، « جستنيانى » ــ فيقنعه بأن يسرح فيرونيز ، الذى كان متعاقدا لخـدمة الملك . ولم يكن لوبلون متحمسا للمهمة ، فأساء اداءها، وتعلل «جستنيانى» بمختلف الحجج، فلم يسرح فيرونيز. واغتظت .. **وكنا فى «الكرنفال»، فاستقللت زورقا وقد تقنعت، وذهبت الى قصر «جستنيانى». وبهت كل من رآنى فى جندولى وانا فى ثيابى الرسمية ، اذ ان**

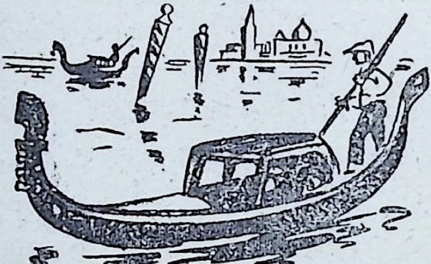

البندقية لم تر شبيها لهذا العمل من قبـل . ودخلت القصر ، وأوحيت بأن يعلن السـيد بمقدمى على اننى « السيدة ذات القناع » ، وما ان دخلت عليه ، حتى ازحت قناعى ، واعلنت اسمى، فامتقع وجه عضو الشيوخ، وجمد مشدوها . واذذاك قلت له فى لهجة ابناء البندقية : « سيدى ، يؤسفنى ان ازعج سعادتك بزيارتى ، ولكن فى مسرج « سان لوك » ــ التابع لك ــ رجلا يدعى فيرونيز ، تعاقد على خدمة الملك ، وقد طولبت به دون جدوى . لذلك جئت اطالب به باسم صاحب الجلالة !» . واحدث هذا القول ــ على ايجازه ــ اثرا . فلم اكد انصرف ،

حتى هرع صاحبنا الى محققى الدولة القضائيين ، الذين اوضحوا له الموقف ، ففصل فيرونيز فى اليوم ذاته . وكان ان اوفدت الى هذا من أنذروه بأنه اذا لم يرحل فى خلال أسبوع، فسوف اعمل على القاء القبض عليه .. ومن ثم رحل !

* * *

• وفى مناسبة اخرى ، انقذت ربان سفينة تجارية من مأزق ، بجهودى وحدها ، ودون معونة أى شخص تقريبا ، وكان الربان من ابناء (مارسيليا) ، ويدعى « أوليفييه » ، وقد نسيت اسم السفينة . فقداشتجر ملاحوه مع «الاسكلافونيين» (١) الذين كانوا فى خدمة الجمهورية . وكان من جراء الشغب الذى ارتكب ، أن احتجزت السفينة وفرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها ان أحدا ـ سوى الربان ـ لم يكن يملك ان يصعد اليها أو ان يغادرها دون اذن . **ولجأ الربان الى السفير، الذى صرفه فى جفاء ، فلجأ الى القنصل ، ولكنه قال له ان مسألته لم تكن مسألة تجارية ، وانه لايملك التدخل . واذ لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك ، جاءنى فأوضحت للسيد دى مونتيجى ان عليه ان يسمح لى بان ارفع مذكرة الى مجلس الشيوخ** . ولست أذكر ما اذا كان قد أذن لى ، ولا ما اذا كنت قد قدمت المذكرة ، وانما اذكر تماما أن المساعى التى بذلتها لم تنته الى شىء ، وظل التحفظ قائما ، فلجأت الى عمل حازم قدر له النجاح ، اذ أوردت بيانا عن هذه المسألة فى رسالة الى السيد دى «موريبا» ، وان لقيت عناء كبيرا فى اقناع السيد دى مونتيجى بأن يجيز هذا البيان . وكنت أعرف ان رسائلنا كانت تفتح فى البندقية ـ رغم انها لم تكن تستحق هذا العناء ـ اذ كنت أملك الدليل على ذلك ، ممثلا فى الفقرات التى اعتدت

---

(١) ابناء بلاد الكربات

أن أجدها منقولة بالنص فى الصحيفة الرسمية .. وهو لون من عدم الأمانة حاولت عبثا أن أحمل السفير على أن يحتج عليه . **وكانت غايتى من الحديث عن هذا الحادث المكدر فى الرسالة، هى أن أستغل فضول سلطات البندقية ، لكى أرهبهم وأحملهم على أن يطلقوا سراح السفينة . . فان الربان كان مسوقا الى الافلاس قبل ان يصدر رد البلاط عن هذه المسألة، لو انه اضطر لانتظار هذا الرد . .** بل اننى اقدمت على اجراء آخر، اذ زرت السفينة لأستجوب الملاحين ، واصطحبت الراهب « باتيزيل » ـ كاتم اسرار القنصل ـ الذى لم يأت الا كارها . فقد كان هؤلاء المساكين جميعا يخشون ان يغضبوا مجلس الشيوخ . ولما لم يكن بوسعنا ان نصعد الى سطح السفينة ، بسبب الحظر المفروض ، فقد بقيت فى جندولى ، وقمت بالتحقيق من هناك ، موجها اسئلتى بصوت مرتفع ، والى كل الملاحين تباعا، وقد صغت هذه الأسئلة بحيث تستدعى اجابات فى صالحهم . ولقد حاولت أن أحمل باتيزيل على ان يسألهم وان يعد التقرير بنفسه ، وهو أمر كان من مهامه ـ فى الواقع ـ اكثر مما كان من مهامى ، ولكنه لم يشأ ان يوافق على ذلك اطلاقا ، ولم ينبس بكلمة واحدة ، بل انه كاد يأبى ان يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا . . على أن هذه الخطة ـ المنطوية على شىء من الجراة ـ كانت موفقة للغاية ، فأفرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقت طويل . وأراد الربان ان يقدم لى هدية ، فقلت له وأنا ادق كتفه، دون أن أبدى استياء : « كابتن اوليفييه، أتظن ان رجلا لا يتقاضى الفرنسيين رسم الجوازات ـ وهو حق مقرر له ـ يرضى أن يتقاضاهم ثمن حماية الملك ؟ » .. ورغب الربان فى أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة ـ على الاقل ـ فقبلت مصطحبا سكرتير السفارة الاسبانية ، المدعو « كاريو » ـ وكان رجلا ذكيا بالغ اللطف ، غدا بعد ذلك

سكرتيرا للسفارة الاسبانية فى باريس، وقائما بالاعمال فيها .. وقد كنت مرتبطا معه بروابط من الود ، تماثل تلك التى كانت بين سفيرينا !

ولقد كنت خليقا بان اغدو سعيدا ، لو اننى عرفت ـ اذ رحت افعل كل ماوسعنى من خير ، فى اتم تجرد من المصلحة الذاتية ـ كيف ادخل قدرا كافيا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة ، حتى لا اغدو مستغفلا ، فاخدم الغير على حساب مصالحى!.. ولكن أتفه الأخطاء فى منصب ـ كذاك الذى كنت اشغله ـ لا تمر دون تبعات ، ومن ثم فقد كنت استنزف كل انتباهى فى الجهد لتفادى اية اخطاء مضادة لعملى.

* * *

• **ولقد كنت** ـ فى كل ما يتعلق بواجبى الرئيسى منظما الى اقصى درجات النظام ، ودقيقا الى اقصى درجات الدقة . وفيما عدا بضعة اخطاء اضطرنى التعجل المفرط الى ارتكابها فى صوغ الشفرة ـ وقد اشتكى منها معاونو السيد اميلو ذات مره ـ لم يأخذ على السفير ، او اى امرىء سواه ، اهمالا فى اداء أى واجب من واجباتى ، وهو امر كان جديرا بالملاحظة بالنسبة لرجل شديد الاهمال وشديد التهور مثلى. بيد اننى

كنت أغفل واهمل فى تصرفى فى المسائل الخاصة التى كنت آخذها على عاتقى - أحيانا - فكان حب الانصاف يجعلنى اتحمل دائما اللوم من تلقاء نفسي، قبل ان يفكر اى امرىء فى ان يشكو منه !.. ولن اذكر - فى هذا المجال - سوى حادث واحد ، كان له أثر فى رحيلى عن البندقية، وقدر لى ان أشعر بآثاره - بعد ذلك - فى باريس !

ذلك ان طاهينا - وكان يدعى « روسيلو » - أحضر من فرنسا سندا قديما بمائتى فرنك ، كان أحد صناع الشعر المستعار - من اصدقائه - قد تسلمه من نبيل بندقى يدعى « جانيتو نانى » ، فى مقابل قلنسوات من الشعر المستعار . واحضر لى « روسيلو » هذا السند ، ورجانى ان احاول عمل اى شيء بصدده ، بالاجراءات السلمية . **وكنت أعرف - كما كان يعرف هو الآخر - ان العادة التى كانت متبعة لدى نبلاء البندقية ، هى ان لايدفعوا قط اية ديون تحملوها فى الخارج، ماداموا قد عادوا الى وطنهم. فاذا بذل أى سعى لقسرهم على الدفع، ارهقوا الدائن التعس بالارجاء الطويل المتكرر، وبالنفقات، حتى تثبط عزيمته ، ولا يلبث أن يعدل - فى النهاية - عن المطالبة ، أو يقبل اية تسوية ضئيلة !** . ورجوت السيد لوبلون ان يتحدث الى « جانيتو » فاعترف هذا بالورقة ، ولكنه ابى ان يدفع قيمتها . وبعد كفاح طويل ، وعده بأن يدفع ثلاثة «سيكانات» . فلما حمل اليه لوبلون السند، لم تكن السيكانات الثلاثة حاضرة ، فلم يكن ثمة بد من الانتظار .. وفى خلال هذه المهلة ، دب الخلاف بينى وبين السفير ، فخرجت من خدمته . وقد تركت اوراق السفارة فى أتم نظام ، ولكن سند «روسيلو» لم يوجد بينها قط . وأكد لى السيد لوبلون انه كان قد رده الى ، وكنت اعرف انه من النبل بحيث لايرقى اليه الشك ، ولكننى عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند . ولما كان جانيتو

قد أقر بالدين ، فقد رجوت السيد لوبلون ان يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة فى مقابل ايصال ، أو أن يستدرجه الى تجديد السند بنسخة أخرى منه ، ولكن «جانيتو» رفض الأمرين ، اذ علم بضياع السند . فعرضت على روسيلو السيكانات الثلاثة – من جيبى الخاص – كسداد للسند ، ولكنه ابى أن يأخذها ، وأخبرنى بأن أسوى الامر مع الدائن الباريسى، الذى أعطانى عنوانه . ولكن صانع الشعر المستعار ، طالب بسنده أو بدينه كاملا ، اذ علم بما حدث . فما الذى كنت أضن به – فى سورة غيظى – فى مقابل العثور على هذا السند اللعين ؟!.. ودفعت المائتى فرنك من مالى ، فى وقت كنت فيه فى أشد الضيق المالى . وهكذا كان ضياع الوثيقة سببا فى حصول الدائن على دينه كاملا ، فى حين انه لو كان قد تسنى – لسوء حظه – العثور على السند ، لوجد عناء فى انتزاع العشرة « ايكو »(١) الموعودة من صاحب السعادة جانيتو نانى !

ولقد جعلتنى المقدرة – التى استشعرتها فى نفسى – على اداء عملى ، مفعما بالميل اليه .. وفيما عدا صحبتى لصديقى « كاريو » ، وللفاضل «التونا» – الذى لن ألبث ان اتحدث عنه – وفيما عدا بعض ألوان الترويح البريئة – التى تمثلت فى التردد على ساحة سان مارك وعلى المسرح – وبعض زيارات كنا نقوم بها سويا فى أغلب الأحيان . فيما عدا ذلك ، كانت واجباتى هى الأسباب الوحيدة للتسلية والمتعة . ومع ان عملى لم يكن شاقا اكثر مما ينبغى ، لاسيما ازاء العون الذى كنت القاه من الراهب دى « بينى » ، الا ان مراسلاتنا كانت كثيرة جدا ، كما اننا كنا فى فترة حرب ، ومن ثم فلم تكن تعوزنى الشواغل ، بل كنت اقضى شطرا كبيرا من النهار فى العمل – فى كافة الأيام – كما اننى كنت اعمل ، فى ايام البريد،

(١) العشرة ايكو تعادل في قيمتها السيكانات الثلاثة

الى منتصف الليل أحيانا . وكنت اكرس بقية الوقت لدراسة المهنة التى شرعت فى ممارستها ، والتى كنت ــ على ضوء البداية الناجحة ــ أعول كثيرا على أن أبلغ فيها منصبا طيبا فيما بعد .. والواقع انه لم تكن ثمة سوى فكرة واحدة عنى لدى الجميع ، ابتداء من السفير الذى كان راضيا عن خدماتى رضاء تاما ، فلم يشك منها قط . **وما جاء كل الغضب ــ الذى ثار فيما بعد ــ الا عن انني حين الفيت شكاياتى لاتلقى اذنا سامعة ، طلبت اعفائى من العمل . وكان كل سفراء الملك ووزرائه ــ الذين كنا على تراسل معهم ــ يهنئونه على كفاءة سكرتيره ، وهو ما كان يجب ان يثير اعتزازه ، ولكنه احدث أثرا عكسيا فى رأسه السىء التفكير** . وكانت بين هذه التهانىء واحدة بالذات ، تلقاها فى ظرف حرج ، فلم يغتفرها لى قط . وهى جديرة بأن اتكبد عناء شرحها

ذلك انه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضايقه ، حتى انه فى يوم السبت ذاته ــ وهو يوم ارسال كل الرسائل تقريبا ــ لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريثما ينتهى العمل ، وانما كان يستحثنى باستمرار متعجلا رسائل الملك والوزراء ، ليوقعها فى عجلة ، ثم يهرع الى حيث لم أكن أدرى ، تاركا معظم الرسائل الأخرى بدون توقيع ، مما كان يضطرنى ــ عندما لاتكون هناك سوى أخبار عادية ــ الى أن اصوغها فى قالب نشرات الاخبار . اما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك ، فقد كانت الضرورة تدعو الى توقيع الرسائل ، فكنت اتولى توقيعها بنفسى . وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلمناها من السيد « فانسان » ، القائم بأعمال الملك فى (فيينا) . وكان ذلك فى الوقت الذى سار فيه الأمير لوبكوفيتش ، زاحفا على (نابولى) ، والذى قام فيه الكونت دى جاج بتقهقره الذى لا ينسى ، والذى كان اروع عمل عسكرى فى القرن كله ، وكان حديث أوربا . وكان النبأ الذى بلغنا ، هو ان رجلا ــ ارسل الينا السيد فانسان

اوصافه ـ كان قد غادر (فيينا) ، معتزما المرور بالبندقية ، قاصدا ـ متخفيا ـ الى (ابروتسى) ليعمل على اثارة الناس عند اقتراب النمسويين. **ونظرا لغياب السيد دى مونتيجى ـ الذى لم يكن ليهتم بشىء ـ فاننى ارسلت الى السيد المركيز ((ديلوبيتال)) هذا النبأ الذى كان فى وقته المناسب ، حتى ليحتمل ان يكون آل ((بوربون)) مدينين الى جان جاك المغبون بفضل الابقاء على مملكة نابولى !**

واذ شكر المركيز ديلوبيتال زميله ـ كما كان ينبغى ـ امتدح له سكرتيره (١) والخدمات التى اداها للقضية المشتركة. فاذا الكونت دى مونتيجى ـ الذى كان جديرا بان يلوم نفسه على اهماله فى هذه المسالة ـ يخال انه يلمح لوما خلال هذه التهنئة ، فحدثنى عنها فى استياء . وكنت قد اقدمت على ان افعل مع الكونت دى كاستيلان ـ السفير الفرنسى فى القسطنطينية ـ ما فعلته مع المركيز ديلوبيتال ، وان كان النبأ اقل أهمية . واذ لم تكن ثمة وسيلة لارسال البريد الى القسطنطينية سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ ان يوفدهم من آن الى آخر الى « بايله » (٢) ، فقد كان السفير الفرنسى ينبأ بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل ، ليتمكن من الكتابة الى زميله اذا رأى داعيا لذلك . وكان هذا الاخطار يصدر قبل الرحيل بيوم او اثنين ، ولكن السيد دى مونتيجى لم يكن يلقى اعتبارا كافيا ، ومن ثم فقد كانوا يكتفون باخطاره قبل رحيل البريد بساعة او اثنتين ، لمجرد مراعاة الشكليات ! .. وكان هذا يضطرنى ـ فى كثير من المرات ـ الى ان اعد الرسالة فى غياب السفير . وكان السيد دى كاستيلان يذكرنى ـ فى رده ـ بعبارة التكريم ، وكذلك كان السيد دى جونفيى ـ فى

---

(١) اى « جان جاك روسو » نفسه

(٢) « البايل » : لقب سفير البندقية فى القسطنطينية

جنوا ـ يفعل ، فكان كل تعبير عن حسن رايهما فى شخصى ، سببا لخلافات جديدة ..

* * *

• **واعترف** بأننى لم أحاول ان اتحاشى فرصة التعريف بنفسى ولكننى لم اكن اسعى الى ذلك فى غير المناسبات اللائقة. وكان يبدو لى ان الانصاف يبيح لى ـ اذ أحسن الخدمة ـ ان اطمع فى الجزاء الطبيعى للخدمات الطيبة ، الا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقديرها ومنح الجزاء عنها . **ولست أملك أن أقول ما اذا كانت دقتى فى أداء مهامى كانت ـ فى نظر السفير ـ سببا مشروعا للشكوى والاحتجاج ، ولكن الذى أملك أن أقوله هو ان هذه الشكوى كانت هى الشكوى الوحيدة التى اعتاد أن يرددها الى يوم فراقنا !**

وكانت داره ـ التى لم يكن يحسن ادارتها اطلاقا ـ مليئة بالسفلة : كان الفرنسيون يلقون هناك اسوأ معاملة ، بينما كانت للايطاليين المكانة العليا .. وحتى فيما بين هؤلاء ، كان المستخدمون الصالحون الذين الحقوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة ، يطردون فى غير ما انصاف ، وكان من هؤلاء المستشار الأول للسفير ، الذى شغل المركز نفسه فى عهد سلفه الكونت دى فرولاى ، والذى كان يدعى ـ على ما اعتقد ـ الكونت « بياتى » ، او مايقرب من هذا الاسم .. أما المستشار الثانى ـ وكان السيد دى مونتيجى هو الذى اختاره بنفسه ـ فكان شقيا من (مانتوى) ، يدعى « دومينيك فيتالى » ، وقد عهد اليه السفير بشئون داره ، فاستطاع بالتملق وبالشح الخسيس ان يكتسب ثقته ويغدو أثيرا له ، مما أضر بمن كان قد ظل بالدار من أمناء قلائل ، وبالسكرتير الذى كان على رأسهم .. وعين الرجل الشريف أمينة ، تثير دائما قلق اللئام . وقد كان

هذا وحده كافيا لأن يجعل هذا الرجل يكرهنى ، بيد ان كراهيته كانت ترجع — كذلك — الى سبب آخر ضاعف منهـا الى حد كبير . ولا بد لى من ان أبدى هذا السبب ، ولكم ان تدينونى اذا كنت مخطئا !

ذلك انه كان للسفير — وفقا لتقليد راسخ منذ أمد طويل — مقصورة فى كل من المسارح الخمسة . وكان يعين — على مائدة الغداء ، فى كل يوم — المسرح الذى يعتزم الذهاب اليه ، فكنت انا الذى يليه فى الاختيار ، على أن يأخذ المستشارون المقصورات الأخرى . وكنت آخذ — عند انصرافى — مفتاح المقصورة التى اخترتها . ففى ذات يوم ، لم يكن فيتالى — الذى كان يحتفظ بالمفاتيح — موجودا ، فعهدت الى ساع كان فى خـدمتى ، بأن يحضر لى مفتاحى فى دار عينتها له . ولـكن فيتالى لم يرسل المفتاح ، بل قال انه قد تصرف فى شأنه . ومما زاد من غيظى ، ان الساعى أدلى بهذا النبأ أمام الملأ . فلما كان المساء ، حاول فيتالى ان يتقدم ببضع كلمات يعتذر بها ، ولـكننى لم انصت اليه ، بل قلت له : « تعـال غدا ايها السيد ، فقلهـا فى نفس الساعة ، وفى نفس الدار التى تلقيت أنا الاهانة فيهـا ، وامام الناس الذين شهدوها . والا ، فسوف اطالب بعد غد — ومهما يكن مايحدث — بأن يغادر احدنا هذه السفارة ! » . **وأفحمته لهجتى الحاسمة ، فجاء الى الدار فى الساعة المحددة ، واعتذر علانية ، فى صغار يليق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل . وبينما كان يبـدى لى احتراما بالغا ، راح يعمـل على شاكلة الايطاليين (١) ومع انه لم يستطع ان يحمل السفير على فصلى ، الا انه اضطرنى الى ان استقيل من تلقاء نفسى !**

ومن المحقق ان مثل هذا الوغد لم يكن أهـلا لأن يعرفنى ، ولكنه عرف عنى ما كان يخدم أغراضـه .. عرف اننى كنت

---

(١) يقصد الدس فى الخفاء ، والنميمة وما اليهما من اساليب

من الطيبة واللين بحيث أحتمل المظالم غير المقصودة ، وانني من الكبرياء بحيث لا احتمل الاهانات المتعمدة ، وانني أحب التواضع والوقار فى المناسبات الملائمة ، وانني لم اكن اقل حرصا على ما ينبغى لى من تكريم ، منى على اداء ما هو واجب على منه للغير .. وهذا مااستغله ووفق بفضله الى مضايقتى. فقد قلب السفارة رأسا على عقب ، وأزال منها ما كنت قد بذلته لصون الأصول ، وترتيب المراكز ، والدقة ، والنظام . والبيت اذا خلا من امرأة ، احتاج الى قواعد للنظام أقسى بقليل مما يحتاج اليه سواه ، فى سبيل التمكين للاحتشام من ان يسوده مقترنا بالكرامة والوقار . **أما هذا الرجل ،فانه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور ، ووكرا للانذال والفاسقين . وخلع منصب المستشار الثانى (١) على قواد (٢) مثله ، كان يمتلك دارا للدعارة (٣) فى (كروا دى مالت) ــ صليب مالطة ــ** فكان هذان اللئيمان فى وئام تام ، وعلى وقاحة تعادل فجورهما ! .. فلم يعد فى الدار ركن واحد يليق برجل شريف ، فيما عدا غرفة السفير وحدها .. بل ان هذه ايضا لم تكن كما ينبغى !

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد ان لايتناول عشاء قط، فقد كانت تمد لنا ــ المستشارين وأنا ــ مائدة خاصة فى المساء، يجلس اليها الراهب دى بينى والسعاة كذلك . وكان المرء حريا بأن يلقى فى أحقر الحانات خدمة أكرم ، وأدوات للمائدة انظف ، وطعاما أحسن مما كان يقدم الينا اذ ذاك ! .. فما كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء ، وصحاف من القصدير ، وشوكات من الحديد . ولقد كنت خليقا بأن أتحمل

---

(١) اذ انه خلف الكونت بياتى فى منصب الأمين الأول

(٢) فى الأصل الفرنسى .. Maq

(٣) qui tenait b...public

ما كان يدور فى السر ، لولا اننى حرمت من جندولى ، فأصبحت الوحيد ـ بين سكرتيرى السفراء ـ الذى يضطر الى ان يستأجر جندولا أو أن يسير على قدميه . ولم يكن يرافقنى ـ اذا ما اوفدت الى مجلس الشيوخ ـ سوى خدم صاحب السعادة السفير (١) . والى جانب هذا ، كان كل ما يحدث فى السفارة لا يخفى على أهل المدينة ، فقد كان كل موظفى السفير يرفعون عقائرهم بتلك الانباء . وكان « دومينيك » ـ السبب الأوحد فى كل هذا ـ هو اكثرهم امعانا فى رفع صوته ! .. فقد كان يعلم ان المعاملة غير الكريمة التى كنا نلقاها ، انما كانت تمسنى أكثر مما تمس سواى . وكنت الوحيد ـ من موظفى الدار ـ الذى يتورع عن الكلام خارجها ، ولكننى كنت أرفع صوتى بالشكوى للسفير .. لا مما كان يجرى فحسب ، بل منه هو نفسه كذلك اذ كان ـ بفضل التحريض الخفى من مستشاره الخبيث ـ يوجه الى فى كل يوم اهانة جديدة .

ولما كنت مضطرا الى الانفاق عن سعة لكى اظهر فى مستوى أقرانى ، وفى مظهر يليق بمنصبى ، فاننى لم أستطع أن أدخر ((سو)) واحدا من مخصصاتى ، وكنت اذا ماطلبت من السفير نقودا ، راح يحدثنى عن تقديره وثقته ، وكان هذا كاف لأن يملأ جيبى ولأن يمدنى بكل حاجاتى !

* * *

• **وانتهى** هذان الشقيان (٢) الى ان عبثا براس سيدهما الذى لم يكن سليم التفكير أصلا ، فقاداه الى الافلاس عن طريق استدراجه باستمرار الى شراء سلع زائفة كانا يقنعانه بانها تحف

---

(١) كان المألوف ان يرافق سكرتير السفارة اذا ما أوفد نائبا عن السفير ، حاجب رفيع الدرجة ومستشار

(٢) المستشاران الايطاليان

رسم بالألوان المائية ورسم مثبت على الزجاج
(من الصور الشائعة لجان جاك روسو)

اثرية . كما حملاه على أن يستأجر قصرا ــ فى (برينتا) ــ بأجر يعادل ضعف قيمته ، واقتسما الفرق مع المالك . وكانت الغرف مبطنة بالقيشانى ، ومزدانة بأعمدة وأركان من أجمل انواع الرخام ، وفقا للطراز الذى كان شائعا فى البلاد . ولقد عمد السيد دى مونتيجى الى تغطية كل هذه الزخارف ، بألواح من خشب الصنوبر ، متعللا بحجة عجيبة ، هى ان هذا هو الذى كان متبعا فى الدور الباريسية ! .. ولحجة اخرى كهذه ، كان هو السفير الوحيد ــ فى البندقية ــ الذى جرد سعاة سفارته من السيوف ، وخدمه الخصوصيين من العصى .. هكذا كان الرجل الذى راح يكرهنى ، لمجرد اننى كنت أخدمه بأمانة . ولعله كان صادرا فى ذلك عن تفكير مشابه لنفس التفكير الذى حمله على التصرفات السالفة الذكر !

ولقد كنت احتمل صابرا تصرفاته المهينة ، وقسوته ، وسوء معاملته ، طالما ظللت أراها صادرة عن الطباع التى جبل

عليها ، دون أن أحسبها صادرة عن كراهية . **ولكنني لم أكد أتبين ان الخطة كانت مرسومة لحرماني من الاعتبار الذي كنت استحقه بفضل خدماتي الصادقة ، حتى عقدت العزم على ان استقيل من منصبي** . وكان اول دليل تلقيته على سوء نيته ، هو ذاك الذي حدث بمناسبة مأدبة كان عليه ان يقيمها للسيد الدوق دي موديني واسرته ، عندما حلوا بالبندقية . فقد انبأني بأنه لن يكون لي محل في تلك المأدبة . فأجبته مستاء – ولكن في غير غضب – بأنني قد اعتدت ان أحظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفير يوميا ، فاذا أبدى السيد الدوق دي موديني – عند مجيئه – أنني يجب ان اغيب عن المائدة ، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة (السفير) ، ومن الواجب علي ، ان لا انصاع لهذه الرغبة . فقال في حدة : «ماذا ؟ ! . . ايطالب سكرتيري – وهو لم يبلغ مرتبة المستشار – ان يتناول الغداء مع عاهل ، في حين ان مستشاري لن يحضروا المأدبة ؟ ! » . فأجبت : « أجل ياسيدي ، فان المنصب الذي شرفتني سعادتك به ، يرفع مقامي – طالما كنت اشغله – الى درجة تجعل لي الأولوية حتى على مستشاريك ، أو اولئك الذين يقال عنهم انهم مستشاروك ، ومن ثم فان لي حق الحضور في مناسبات ليس لهم ان يحضروها . وانت لاتجهل أن التقاليد الرسمية ، والعرف المتبع من زمن أبعد من ان يذكر ، تحتم علي – في اليوم الذي تحضر فيه التشريفات الرسمية – ان اتبعك في ثياب التشريفة ، وان احظى بحضور مآدب قصر « سان مارك » معك . ولست ادري كيف لا يجوز للشخص الذي يجلس في مأدبة عامة مع « الدوج » (١) ومجلس شيوخ البندقية ، ان يجلس مع السيد الدوق دي موديني بالذات ، الى مائدة واحدة ؟ ! » . ومع ان حجتي كانت فوق كل رد ، الا

(١) لقب كان يطلق على رئيس الدولة في البندقية

ان السفير لم يسلم بها . غير اننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع، اذ ان السيد الدوق دى مودينى لم يأت للغداء على مائدته قط !

* * *

• **ومنذ** ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتى ، وعن امتهان حقوقى ، مغتصبا الامتيازات البسيطة التى تتعلق بمنصبى ، فكان يجردنى منها ليخلعها على عزيزه فيتالى . وانى لواثق من انه لو استطاع ان يجرؤ على ايفاده ـ بدلا منى ـ الى مجلس الشيوخ ، لفعل . وكان يستخدم الراهب دى بينى عادة ، لكتابة خطاباته الخاصة فى حجرة مكتبه ، فعهد اليه بأن يكتب الى السيد دى موريبا تقريرا عن مسالة الربان اوليفييه ، لم يذكرنى فيه البتة ، مع اننى كنت الوحيد الذى تدخل فى المسالة .. **بل انه انكر على شرف التحقيق الرسمى الذى قمت به ـ والذى ارسل الى السيد دى موريبا نسخة منه ـ وعزاه الى باتيزيل ، الذى لم ينبس ببنت شفة . فلقد أراد أن يغيظنى وان يرضى صاحب الحظوة لديه ، دون ان يستغنى عنى رغم ذلك** ، اذ شعر بأنه لم يكن ليعثر على خليفة لى ، بنفس السهولة التى عثر بها على خليفة للسيد دى فولو ـ سلفى ـ الذى كان قد اشاع فى الخارج فكرة صحيحة عنه ! .. ولم يكن له غنى عن سكرتير يعرف اللغة الايطالية ، نظرا لمراسلاته مع مجلس الشيوخ .. لم يكن فى غنى عن سكرتير قادر على ان يكتب كل رسائله ، ويدبر كل اموره ، دون تدخل منه .. سكرتير يجمع بين المقدرة على ان يخدمه بأمانة ، والهوان الذى يجعله يروق للسيدين المستشارين المدللين ! .. **ومن ثم فقد أراد أن يستبقينى وأن يكيدنى فى آن واحد ، بأن يمسكنى بعيدا عن وطنى وعن وطنه ، دون ما نقود تمكننى من العودة** . ولعله كان جديرا بان ينجح لو

انه سعى الى ذلك بمزيد من الحكمة . ولكن فيتالى كان يرى آراء أخرى ، وكان يبغى حملى على الرحيل ، وقد وفق فى غايته . فما ان تبينت اننى كنت ابدد جهودى ، وان السفير كان ينظر الى خدماتى وكأنها جرائم ، بدلا من أن يحمدها لى .. واننى لم يعد لى أن أطمع ـ طالما ظللت معه ـ فى غير المضايقات فى الداخل ، وعدم الانصاف فى الخارج .. وان الأذى الذى كان يحاول أن يلحقه بى قد يفوق فى الضرر ما قد اكسبه من رضائه اذا انا بقيت فى خدمته ، نظراً لما كان قد اجتلبه على نفسه من سخط عام .. ما ان تبينت كل هذا ، حتى قررت أن أستأذنه فى ان يعفينى من العمل ، مفسحا له الوقت كى يحصل لنفسه على سكرتير . على انه ظل سادرا فى مسلكه ، دون ان يجيب بنعم أو لا . فلما رأيت ان الأمور لم تتحسن ، وانه لم يتجه الى البحث عن سكرتير آخر ، كتبت الى اخيه ، مفصلا كافة البواعث، راجيا اياه ان يحمل اخاه على تسريحى، مضيفا الى ذلك اننى لن امكث فى منصبى على اية حال !.. وانتظرت طويلا ، دون ان أتلقى جوابا . وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة ،عندما تسلم السفير ـ أخيرا ـ رسالة من اخيه . ولا بد انها كانت شديدة اللهجة ، اذ اننى لم اره ـ رغم انه كان عرضة لأعنف نوبات الغضب ـ فى مثل الهياج الذى رأيته فيه اذ ذاك . وبعد سيل من السباب المقذع ، لم يعد يدرى مايقول ، فأتهمنى بأننى بعت اسرار الشفرة . وأخذت أضحك ، ثم سألته فى لهجة ساخرة عما اذا كان يظن ان فى البندقية بأسرها مغفلا واحدا يرضى بأن يدفع « ايكو » واحدا من اجلها . وجعله هذا الجواب يستشيط حنقا ، فهم بأن يدعو اتباعه لكى يلقوا بى من النافذة ، كما قال . وكنت حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئى ، ولكنى ازاء هذا التهديد ـ وجدت ان الغضب والعزة قد تملكانى بدورى ، فاندفعت الى الباب ، وبعد ان دفعت المزلاج الذى

يوصده من الداخل ، عدت اليه وقلت فى لهجة رهيبة : ((لا يا سيدى الكونت ، لن يتدخل اتباعك فى هذه المسالة ، فتكرم بتسويتها فيما بيننا !)) . وهذا تصرفى ومظهرى من سورته فى الحال ، وتجلت الدهشة والروع على أساريره . فلما رأيته قد تخلى عن هياجه ، ودعته بكلمات موجزة ، ثم ذهبت ــ دون ان انتظر منه جوابا ــ ففتحت الباب ، وخرجت ، فاجتزت الحجرة الملحقة بمكتبه فى ثبات ، وسط اتباعه الذين نهضوا كعادتهم ، والذين اعتقد انهم كانوا اكثر استعدادا لمناصرتى منهم لمناصرته . وبدون ان اعود الى غرفتى ، هبطت السلم ، وغادرت القصر ، فلم الجه بعد ذلك قط !

* * *

• **وذهبت** لفورى الى السيد اوبلون ، لانبئه بما حدث ، فلم يبد دهشه كثيرة ، اذ كان يعرف الرجل ، وانما استبقانى للغداء . وكان هذا الغداء ــ رغم التعجل فى اعداده ــ بهيجا ، وقد حضره كل الفرنسيين ذوى المكانة ، الذين كانوا فى البندقية . ولم يكن بينهم فرد واحد فى صف السفير ، فقد روى القنصل حكايتى على الجماعة ، وما أن الموا بها حتى صاحوا جميعا فى وقت واحد ، ولكن فى غير صالح صاحب السعادة . ولم يكن

هذا قد سوى حسابى ، ولا اعطانى « سو » واحدا . ولما كانت كل مواردى لاتتجاوز بضع قطع من فئة «اللوى»، فقد وجدتنى فى حيرة من أمر سفرى . واذا بكل الجيوب تتفتح لى ، فأخذت عشرين « سيكان » من السيد لوبلون ، ومثلها من السيد دى سان‌سير ، الذى كنت وثيق الصلة به ، وكان يلى القنصل فى المكانة من قلبى . ثم شكرت الباقين ، وبقيت ـ الى ان قدر لى الرحيل ـ مقيما لدى رئيس ديوان القنصلية ، لكى أثبت للراى العام ان الأمة لم تكن مشتركة فى مظالم السفير . **ولقد أهاج هذا أن رآنى موضع تكريم فى محنتى ، بينما كان هو ـ برغم مركزه كسفير ـ منبوذا ، ففقد حجاه تماما ، وأخذ يتصرف كالمخبول. وبلغ من غفلته ان قدم الى مجلس الشيوخ مذكرة لاعتقالى .** فلما انبأنى بذلك الراهب دى بينى ، قررت ان ابقى اسبوعين آخرين، بدلا من ان ابادر الى الرحيل فى اليوم التالى ، كما كنت اعتزم . وقد درس تصرفى فلقى اقرارا ، كما غدوت موضع تقدير عام . ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على مذكرة السفير الرعناء ، كما انبأتنى ـ عن طريق القنصل ـ بأن لى أن أبقى فى‌البندقية ما شئت ، دون أن أزعج نفسى بتصرفات رجل أحمق !. ومن ثم واصلت زياراتى لأصدقائى ، وذهبت لأودع السفير الاسبانى ـ الذى احسن استقبالى ـ والكونت دى فينوكيتى ، وزير نابلى ، الذى لم أجده فكتبت اليه واذا به يرد بخطاب من الطف الخطابات . وما لبثت ان رحلت ـ فى النهاية ـ غير مخلف ورائى اية ديون ، رغم ضائقتى ، سوى القرضين اللذين ذكرتهما من قبل ، وسوى خمسين « ايكو » كنت مدينا بها لتاجر يدعى «موراندى» ، وقد تكفل « كاريو » بدفعها اليه ، وان لم اردها اليه قط ، بالرغم من اننا تقابلنا كثيرا بعد ذلك الحين . اما القرضان اللذان تحدثت عنهما، فقد سددتهما كاملين بمجرد ان تيسر لى ذلك .

* * *

• **ولا يجوز** ان نترك البندقية دون كلمة عن ملاهى هـذه المدينة الشهيرة ، أو ـ على الأقل ـ عن القسط الضئيل منها ، الذى قدر لى ان انعم به اثناء مقامى هناك . ولقد رويت كيف اننى ـ فى شبابى ـ كنت مقلا فى السعى الى ملذات هذه المرحلة من السن ، أو ـ على الأقل ـ المتع التى توصف بأنها ملذات . **ولم اغير من مسلكى هذا فى البندقية ، ولكن مشاغلى ـ التى كانت كفيلة بأن تمنعنى من أى تغير ـ جعلت اسباب التسلية البسيطة ، التى كنت استبيحها ، اكثر امتاعا . وكانت أولى هذه الأسباب وألطفها هى مصاحبة الاكفاء من الناس :** السادة لوبلون ، ودى سان‌سير ، وكاريو ، والتونا ، وسيد فورلانى(١) نسيت ـ لشدة اسفى ـ اسمه ، ولـكنى لا استطيع ان اذكر لطفه دون أن تتأثر نفسى . ولقد أوتى ـ دون كل من عرفت من الرجال ـ اقرب القلوب شبها بقلبى . ولقد ارتبطنا كذلك باثنين أو ثلاثة من الانجليز ، واسعى الذكاء والمعرفة ، مشغوفين مثلنا بالموسيقى . وكانت لهؤلاء السادة جميعا زوجات ، أو صديقات ، أو عشيقات . وكن جميعا ـ تقريبا ـ نساء موهوبات ، تعزف الموسيقى ويدور الرقص فى بيوتهن . **وكان لعب الميسر يدور هناك ايضا ، ولكن فى القليل النادر ، اذ ان ميولنا النزاعة ، ومواهبنا ، وشغفنا بالمسرح ، جعلت هذه التسلية ـ الميسر ـ عقيمـة ، فالمقامرة ليست تسلية الا لأولئك الذين يستبد بهم الضجر ! . .** وكنت قد حملت معى من باريس ، التحامل الذى خلقه الشعور القومى ضد الموسيقى الايطالية ، ولكننى كنت قد أوتيت من الطبيعة ذلك الادراك المرهف الذى لا يمكن لمثل هذا التحامل ان يصمـد امامه . فسرعان ما سرى الى نفسى ذلك

(١) الفورلان اسم يطلق على ابناء منطقة (فريول) ، التى يقع جزء منها ـ الآن ـ فى النمسا ، وجزء آخر فى ايطاليا . وهناك رقصة باسم « فورلان »

الشغف الذي توحيه الموسيقى الايطالية الى أولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصددها . واذ سمعت « الباركارول »(١) تبينت أنني لم اسمع قبل ذلك غناء ! . . وسرعان ما اولعت بالاوبرا ولعا جنونيا، حتى انني كنت حين أضيق بالثرثرة والأكل واللعب فى المقصورات ـ فى الوقت الذى لم أكن أهفو فيه الا الى الانصات ـ أتسلل فى كثير من الأحيان من رفاقى، لأذهب الى ناحية اخرى من الدار . وهناك كنت اجلس وحيدا فى مقصورة مغلقة ، وأسلم نفسى للذة الاستمتاع بالأداء ، رغم طوله ، دون أن يزعجنى شىء ، حتى نهاية السهرة . وفى ذات يوم ، استسلمت للنوم ـ فى مسرح سان كريزوستوم ـ فاستغرقت فيه بدرجة لم انعم بها قط فى فراشى ، ولم تقو الالحان الصاخبة، الرائعة، على ايقاظى، **ولكن . . من لى بمن يصف الشعور العذب الذى أحدثه فى نفسى النغم الناعم والغناء الملائكى اللذان ايقظانى ! . . واية يقظة ، واى استغراق ، واية نشوة تلك التى استشعرتها حين فتحت اذنى وعينى فى آن واحد ! . . كانت اول فكرة واتتنى هى اننى كنت فى الفردوس ! . .** كانت تلك المقطوعة الرائعة ، التى لا ازال اذكرها ، والتى لن أنساها ما حييت ، تبدأ هكذا :

« استحوذت على الجميلة . . التى اثارت اعماقى » (٢)

ورغبت فى ان أحصل على لحن هذه القطعة ، وقد ظفرت به ، واحتفظت به زمنا طويلا ، ولكنه لم يكن على الورق فى روعته التى كان بها فى ذاكرتى . . كانت الانغام واحدة، ومع ذلك فان اللحن لم يكن واحدا . . لم يكن من سبيل الى اداء اللحن بالروعة السماوية التى كان يتردد بها فى رأسى ، والتى كان يؤدى بها فى

---

(١) اغانى نوتية الجندول

(٢) Conservami la bella che si m'accende il con

الواقع عندما ايقظنى !

اما الموسيقى التى تعتبر — فى رايى — اسمى من موسيقى الاوبرا ، والتى لامثيل لها فى ايطاليا أو فى بقية العالم ، فهى موسيقى « الاسكوله » .. و « الاسكوله » بيوت خيرية انشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللائى لا موارد لهن ، واللائى تعدهن الجمهورية بعد ذلك ، اما للزواج ، واما للالتحاق بالأديرة . وللموسيقى المكانة الاولى بين المواهب التى تنمى فى هؤلاء الفتيات الصغيرات . ففى يوم الأحد من كل أسبوع ، وفى كنيسة كل من هذه « الاسكولات » الاربع ، تؤدى خلال قداسات الغروب مقطوعات (١) يشترك فيها عدد كبير من المنشدات وعدد كبير من العازفات ، ويقوم بتأليفها وتلحينها وادارة ادائها أكبر الموسيقيين الايطاليين . . وهى تؤدى فى المقصورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المتشابك (المعشق كجدران المنابر) . ويقتصر اداؤها على الفتيات اللائى لا تبلغ اكبر واحدة منهن العشرين من عمرها .. وليس بوسعى ان أتصور شيئا ألذ وأعذب وأكثر تأثيرا فى النفس من هذه الموسيقى . فان دسامة الفن ، وعذوبة الغناء ، وجمال الأصوات ودقة الأداء .. كل مافى هذه الحفلات الموسيقية البهيجة ، يساهم فى خلق انطباع لاينسب قطعا الى « جودة الأسلوب » ، ولكنى ارتاب فى أن ثمة قلبا بشريا فى مناعة منه ! ..**ولم يتخل كاريو واياى قط عن حضور هذه القداسات فى كنيسة « المنديكتانى »** ، ولم نكن الوحيدين فى ذلك ، فقد كانت الكنيسة دائما تغص بالهواة .. بل ان ممثلى الأوبرا انفسهم كانوا يذهبون لينموا ذوقهم الغنائى مسترشدين بهذه النماذج الرائعة . وكان الشىء الذى يدفعنى الى القنوط ، يتمثل فى تلك الجدران الخشبية اللعينة ، التى لم تكن تسمح

---

(١) المقطوعات المقصودة "Motets" وهى مقطوعات موسيقية غنائية دينية ، تنظم من التعاليم اللاتينية الخاصة بالطقوس الدينية

بمرور شيء سوى الأصوات ، والتى كانت تحجب عنى الملائكة اللائى قد اوتين ـ ولابد ـ جمالا يليق بهذه الأصوات !.. ولم يكن لى من حديث الا عن هذا الموضوع، وقد تحدثت فيه يوما، فى دار السيد لوبلون ، فقال : « اذا كنت شديد الشوق الى ان ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات ، فمن السهل ارضاء شوقك . فاننى من المشرفين على المؤسسة ، وكم اود ان ادعوك الى وجبة خفيفة(١) معهن ! »

ولم أتركه يرتاح حتى بر بوعده . واذ دخلت القاعة التى ضمت هؤلاء الجميلات اللائى طال شوقى اليهن ، استشعرت رجفة عاشقة لم اعهدها من قبل . وقدم السيد لوبلون الى هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللائى كانت اسماؤهن واصواتهن هى كل ما عرفته عنهن : « تعالى يا صوفى ! » .. انها بشعة الخلقة !.. « تعالى يا كاتينا ! » .. انها ذات عين واحدة ! . . « تعالى يا بتينا ! » .. كان الجدرى يشوه وجهها ! .. لم تكد توجد بينهن واحدة تخلو من عيب ظاهر .. وضحك القاسى من المفاجأة العنيفة التي صادفتنى . . على انه كانت بينهن اثنتان او ثلاث يبدون مقبولات الشكل!.. ولم يكن يتقن الغناء الا مجتمعات (فى كورس) ، فتولانى الاسى . وفى اثناء الوجبة الخفيفة ، رحنا نداعبهن فاذا المرح يفيض بهن ، واذا الدمامة لا تخلو من بعض آيات البهاء التى تبينت وجودها فيهن . فقلت لنفسى : ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع ، مالم يكن قد اوتين ارواحا سامية .. وكن كذلك فعلا . واخيرا ، تغير رايى فيهن الى درجة اننى انصرفت وانا شبه متيم بهؤلاء الدميمات ! .. وجرؤت ـ فى عناء ـ على العودة الى حضور قداسهن ، وقد تبينت ما طمأننى . وقد ظللت أجد غناءهن عذبا ، وارى ان اصواتهن كانت تضفى على وجوههن بهاء، حتى

---

(١) Gouter « تصبيرة » ، او وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء

اننى كنت أصر ـ ما دمت أسمع غناءهن ـ على أن أتصورهن جميلات ، بالرغم مما كانت تصر عليه عينا ى!

والموسيقى ـ فى ايطاليا ـ لاتكاد تتكلف شيئا يذكر ، ومن ثم فان حرمان النفس منها ـ اذا كان لدى المرء ميل اليها ـ لايكاد يستحق العناء الذى يبذل فى سبيل ذلك . **وقد استأجرت معزفا ، وكنت فى مقابل ((ايكو)) واحد ، استقدم الى دارى أربعة أو خمسة من عازفى الموسيقى الغنائية ، اتدرب معهم ـ مرة فى الأسبوع ـ على عزف القطع التى تكون قد استأثرت بأعظم قدر من اعجابى فى ((الأوبرا)) . وكنت أجرب كذلك عزف بعض الالحان الغنائية التى ضمنتها ((عرائس الشعر اللطاف)) (١)**

ولقد سألنى استاذ الموسيقى الايقاعية فى ((سان جان كريسوستوم)) قطعتين منهما ـ اما لأنه اعجب بهما حقا ، واما لأنه اراد ان يتملقنى ـ فسرنى ان أسمعهما تؤديان على أيدى فرقته الرائعة ، وان تؤدى رقصاتهما الصغيرة ((بتينا)) . . وهى فتاة جميلة لطيفة ، كان يرعاها اسبانى من أصدقائها يدعى ((فاجواجا)) ، كثيرا ما قضينا السهرات فى داره .

---

(١) « الأوبرا » التى كان « روسو » قد ألفها فى باريس

* * *

• **أما عن** النساء ، فليس لرجل ان يعرض عنهن فى مدينة كالبندقية ! .. وقد يقال لى : « أليس لديك ما تعترف به فى هذا الصدد ؟ » .. بلى ، فان لدى ما يقال فعلا ، وانى لمقدم على هذا الاعتراف بنفس الصراحة التى اتبعتها فى كل اعترافاتى الأخرى .. ولقد كنت دائما انفر من البغايا ، بيد أنه لم يكن لدى سواهن فى البندقية ، اذ كان محرما على ولوج معظم البيوت فى المدينة ، من جراء منصبى . ولقد كانت فتيات السيد لوبلون جد لطيفات ، ولكن التقرب اليهن كان امرا عسيرا ، كما ان احترامى لأبيهن وأمهن كان اعظم من ان يسول لى مجرد التفكير فى اشتهائهن !

ولقد كنت خليقا بأن أميل كل الميل الى شابة تدعى الآنسة دى ((كاتاليو))، كانت ابنة مندوب ملك بروسيا. ولكن كاريو كان يهواها ، حتى انه كان يسعى الى الزواج منها .. ولقد كان ميسور الحال، فى حين انني لم أكن املك شيئا .. كان مرتبه مائة « لوى »، اما انا فلم اكن اتقاضى سوى مائة « بيستول » . وبغض النظر عن اننى ما كنت لأستبيح ان اسطو على صيد صديقى ، فانى كنت أدرك ان ليس لرجل خالى الوفاض ان يقدم على التقرب الى الحسان ، اينما يكن .. ولو كان فى البندقية !. ولم اكن قد فقدت عادتى المشئومة، واعنى بها استبدال الحاجات التى اصبو اليها . ولما كنت جد مشغول الى درجة لا تدع لى سبيلا الى الشعور الملح بالحاجات التى يخلقها الجو المحيط بى، **فاننى عشت فى هذه المدينة عاما تقريبا ، وانا محتفظ بما كان لى – فى باريس – من طهر وحكمة .. كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرا دون ان اقرب الجنس اللطيف فيما عدا مرتين ،** وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين سأذكرهما فيما يلى :

ولقد أتاح لى اولاهما السيد الشريف فيتالى(١) ، بعد انقضاء فترة على الاعتذار الذى أجبرته على ان يقــدمه لى فى اكمل صيغة رسمية. فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهى البندقية، فأخذ الســادة يعتبون على عــدم اكتراثى بأشد هذه الملاهى حرارة ، ويطنبون فى اطراء رقة الغوانى البندقيات ، قائلين ان ليس فى العالم من يضارعهن . وقال دومينيك اننى خليق بأن أتعرف الى ابدعهن طرا ، وانه يرجو ان يقدمنى اليها ، واننى سأطرب لمعرفتهــا . وانطلقت اضحك لهــذا الاقتراح المحرج ، فاذا بالكونت بياتى ـ وكان كهلا وقورا ـ يقول فى صراحة لم اكن اتوقعهــا من ايطالى ، انه يؤمن بأننى أعقــل من أن أدع عدوى يقودنى الى دار غانية . والواقــع اننى لم استشعر ميلا ، ولا تأثرت باغراء ، ولكننى انتهيت بالرغم من ذلك ـ وبدافع من احدى النزوات المتناقضة التى لم أكن أملك ان افهمها ـ الى ان تركت عدوى يقودنى ، على النقيض من املاء ميولى ، وقلبى، وعقــلى ، بل وارادتى . . كنت منســاقا له لمجــرد الضعف والخجل من ابداء عدم الثقة به ، او بلسان تلك البلاد :

Per non Parer Troppo Coglione (٢) ولقد كانت «البادوانا» (٣) التى ذهبا اليها ذات وجه لا بأس بحسنه بل انه كان جميلا ، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذى يروق لى . وتركنى دومينيك فى دارها ، فأرسلت فى طلب بعض المثلوجات (آيس كريم) ، وسألتها ان تغنى لى ، ثم تهيأت ـ بعد نصف ساعة ـ للانصراف ، تاركا على المنضدة «دوكا» (٤) ، ولكنها فى عزة نفس غريبة ـ أبت اطلاقا ان تقبل المبلغ دون ان تكون

---

(١) واضح ان « روسو » يسخر من « فيتالى » اذ يصفه بانه شريف

(٢) عبارة ايطالية معناها : « لكى لا ابدو مفرط الغباء »

(٣) الغانية ، او المومس

(٤) عملة ذهبية كانت قيمتها تتراوح بين ١٠ و١٢ فرنكا

قد ادت ما يقابله .. وفى غباء ــ لا يقل غرابة ــ أرضيت عزة نفسها ! .. وعدت الى القصر وانا موقن من اننى اصبت بمرض خبيث ، حتى ان اول ما فعلت هو ان ارسلت فى طلب طبيب لأطلب منه بعض الأدوية . وليس ثمة ما يعادل الغم الذى عانيته طوال ثلاثة اشهر ، دون ما علة حقيقية، ودون ظهور اية علامة تبرره . فما كنت لأتصور ان من الممكن مغادرة احضان مومس دون ما ضرر !.. بل ان الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره ، لكى يطمئننى ، فلم يوفق الا الى اقناعى بأننى كنت مخلوقا على نمط خاص ، لايجعلنى أصاب بالعدوى بسهولة . ومع اننى قد اكون أقل من اى رجل آخر تعرضا لهذا الخطر ، الا ان عدم تأثر صحتى البتة من هذه الناحية بالذات ، يبدو لى دليلا على ان الطبيب كان مصيبا ! .. على ان هذا الرأى لم يجعلنى متهورا قط ، واذ كنت قد أوتيت فعلا هذه الميزة الطبيعية ، فان فى وسعى أن أقول اننى لم اسىء استغلالها !

* * *

• **اما مغامرتى الأخرى** ، فمع انها كانت مع غانية كذلك ، الا انها كانت من نوع جد مختلف ، سواء فى اصلها أو فى نتائجها . فلقد ذكرت ان الكابتن اوليفييه ــ الربان ــ قد دعانى الى الغداء على ظهر سفينة ، واننى اصطحبت سكرتير السفارة الاسبانية . وكنت اتوقع ان تحيينا المدافع ، فاذا البحارة يستقبلوننا مصطفين، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تشعل، مما غاظنى كثيرا ، بسبب كاريو ، الذى رأيته مستاء . والواقع ان التحية بطلقات المدافع ــ على السفن التجارية ــ كانت تؤدى لأناس لايعادلوننا مقاما بالتأكيد ، **كما اننى كنت اخالنى جديرا بشىء من التمييز من الربان . ولم استطع ان اخفى ما كان بنفسى ، فقد كان ذلك امرا مستحيلا دائما** . ومع ان الغداء كان

بديعا ، وقد ادار اوليفييه الأنخاب فى اكرام رائع ، فاننى بدات المأدبة وانا منحرف المزاج ، ومن ثم فقد اكلت قليلا وتكلمت أقل !

وعند احتساء النخب الاول ، توقعت تصفيقا على الاقل ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. وضحك كاريو ــ الذى قرأ ما فى خاطرى ــ اذ رآنى أغمغم كالطفل. وفى ثلث الغداء ، رأيت جندولا يقترب ،واذا الربان يقول لى : «لعمرى ! .. خذ حذرك ياسيدى فها هو ذا العدو ! » فسألته عما كان يعنى ، واذ ذاك اجاب بدعابة . **ورسا الجندول بجوار السفينة ، فرأيت فتاة باهرة الجمال ، بالغة الرشاقة ، فى ثياب مغرية ، تغادره .. وفى ثلاث قفزات كانت فى الغرفة . ورأيتها تستقر الى جوارى ، قبل ان افطن الى أن ثمة مكانا قد أعد لها !.. وكانت فاتنة بقدر ما كانت رشيقة .. سمراء فى العشرين من عمرها، على الأكثر !** .. ولم تكن تتكلم بغير اللغة الايطالية ، وكانت لهجتها وحدهاكافية لأن تدير رأسى. وفيما كانت تأكل وتتكلم، اخذت ترمقنى ، ثم تفرست فى لحظة ، وما لبثت ان صاحت : « يا للعذراء الطيبة !.. آه ! ما اطول الوقت الذى انقضى ياعزيزى بريمون دون ان اراك ! » .. وارتمت فى احضانى ، والصقت فمها بفمى ، واحتضنتنى حتى كادت تزهق انفاسى !.. وراحت عيناها الواسعتان السوداوان ــ على غرار العيون الشرقية ــ ترميان قلبى بشواظ من لهب . ومع ان المفاجأة احدثت شيئا من الاضطراب فى البداية ، الا ان غريزتى الشهوية سرعان ما تملكتنى ــ بالرغم من الحضور ــ الى درجة ان الفاتنة نفسها اضطرت الى ان تكبح جماحى ، اذ اننى ثملت ، أو بالاحرى جننت ! .. **فلما رأتنى قد بلغت الدرجة التى كانت ترجوها ، خففت من عناقها ، ولكنها لم تخفف من فورة عواطفها .. حتى اذا راق لها ان تبدى لنا السبب الحقيقى أو الزائف لهذا النزق**

قالت لنا اننى كنت اشبه السيد دى بريمون ، مدير جمرك توسكانى، الى درجة يصعب معها التمييز بيننا .. وانها كانت - ولا تزال - متيمة بهذا السيد دى بريمون ، وانها كانت قد هجرته لحماقتها .. وانها قد اختارتنى بديلا عنه ، فشاءت ان تهوانى ، لأن هذا كان يروق لها ، وان من الواجب - للسبب ذاته ! - ان احبها ، طالما ظل هـذا يلائمها ، فاذا ما هجرتنى فجاة ، وجب ان احتملها صابرا ، كما كان يفعل عزيزها بريمون! .. واستولت على كما لو اننى كنت ملك يمينها ، فعهدت الى بقفازيها ، ومروحتها ، وحزامها ، وقلنسوتهـــا .. وراحت تأمرنى بأن اذهب الى هنا أو هنـــاك ، وان أفعل هذا أو ذاك ، وانا اطيعها ! .. وقالت لى ان اذهب فأصرف جندولها ، لأنها كانت راغبة فى استخدام جندولى ، فصدعت !.. وأمرتنى بأن اغادر مكانى ، وان ارجو « كاريو » بأن يحل فيه محلى ، لأنها كانت تريد ان تتحدث اليه ، ففعلت ! .. وتحدثا طويلا ، فى صوت جد خفيض ، فتركتهما يفعلان .. ونادتنى ، فخففت اليها ، فقالت لى : **« اسمع يا جانيتو .. لست اريد البتة ان اكون محبوبة على الطريقة الفرنسية ، اذ ليس من ورائها طائل فى الواقع .. ففى اول لحظة تشعر فيها بالضجر ، لك ان تمضى عنى . ولكن ، لا تمكث بين بين .. اننى انذرك ! »**

وذهبنا بعد الفـداء لمشاهدة مصنع الزجاج فى (مورانو) ، فابتاعت كثيرا من التحف الصغيرة ، التى تركتنا ندفع ثمنها فى غير كلفة .. ولكنها كانت - فى كل مكان - تجود بما يفوق بكثير كل ما انفقنا . وكان من الواضح - من الاستخفاف الذى كانت تبعثر به نقودها ، وتحملنا على ان نبعثر نقودنا - انها لم تكن تقيم للمال وزنا .. واعتقد انها عندما كانت تطلب أجرا لنفسها ، لم تكن تصدر فى طلبها عن جشع بقدر ما كانت تصدر عن زهو . فقد كانت تطرب للأجر الذى يدفع فى مقابل المتع التى تجود بها!

« ديدرو »

وفى المساء ، ذهبنا الى دارها . وفيما كنا نتحدث ، لمحت مسدسين على منصدة الزينة ، فقلت لها وانا اتناول احدهما :

« آه ! آه ! .. هاكم مصيدة للذباب من نوع جديد .. هل من سبيل الى معرفة فيم تستخدم ؟.. اننى أعرف ان لديك أسلحة أخرى ، أقوى فتكا من هذا ! » .. وبعدبضع مداعبات من هذا القبيل ، قالت لنا فى غرور أرعن، زادها فتنة : «عندما أتكرم على أولئك الذين لا احبهم، فاننى أتقاضاهم ثمن الضجر الذى يسببونه لى ، وليس هناك ما هو أعدل من هذا !.. على اننى وان احتملت عناقهم ، فلست أحب اطلاقا ان احتمل اهاناتهم .. ولن اخطىء اصابة اول رجل ينتقص من شأنى !»

وعند انصرافى ، اتفقنا على الموعد الذى أوافيها فيه، فى اليوم التالى . ولم ادعها تنتظر ، ووجدتها فى « ثوب الخلوة » (١) . . وهو ثوب مكشوف ، اكثر من ان يوصف بأنه خليع ، غير معروف الا فى الدول الجنوبية ، ولن أمتع نفسى بوصفه ، رغم اننى اذكره تماما !.. كل ما سأقوله هو أن كميه وفتحة عنقه كانت مطرزة بخيط حريرى ، مزدان بكرات صغيرة فى لون الورد. وقد بدا لى ان هذا كان يضاعف من تورد بشرتها الرائعة الجمال. وقد تبينت فيما بعد ان هذا الزى كان من المستحدثات الرائجة فى (البندقية) ، وانه كان ذا تأثير جد فاتن ، حتى اننى

---

(١) Investito di confidenza

لأعجب من انه لم ينتقل قط الى فرنسا . ولم تكن لدى ادنى فكرة عن الغواية التى كانت فى انتظارى .. لقـد تحدثت عن مدام دى « لارناج » ، وانا فى تلك النشـوات التى تنقلنى اليها ذكراها فى بعض الاحيـان ، ولكن .. لشـد ما كانت عجوزا ، ودميمة ، وباردة الحس ، اذا قيست بحبيبتى « جولييتا » !.. ولا تحاولوا ان تتصوروا مفاتن ومحاسن هذه الفتاة الساحرة ، فلسوف تظلون بعيدين كل البعد عن الحقيقة ! .. ان عذارى الأديرة أقل نضرة ، وحسـان الحريم أقل حيوية ، وحوريات الجنة اقل جاذبية !.. **أبدا ما حظى قلب وحواس انسان فان بمثل تلك المتعة الحلوة !.. آه ! ليتنى عرفت كيف اتذوقها فى أتم كمالها للحظة واحدة ، على الأقل ! . . لقد تذوقتها حقا ، ولكن دون ما افتتان ، اذ اننى افسدت كل الملذات .. قتلتها وأنا غير حافل ، كما ينبغى ان يقال .** لا ، ان الطبيعة لم تخلقنى قط للاستمتاع ، وانما بثت فى راسى الفاسد سم هذه السعادة التى لا سـبيل الى وصفهـا ، والتى غرست فى قلبى شـهوة الشوق اليها !

* * *

• **واذا** كان فى حيـاتى ظرف واحـد يعبر تمام التعبير عن فطرتى ، فهو هذا الذى أوشك أن أرويه . ان القوة التى أذكر بها ـ فى هذه اللحظة ـ الغاية المنشودة من كتـابى ، لتجعلنى أطرح عنى الحياء الكاذب الذى يمنعنى من أن أحققها . فعليك ايها الراغب فى معرفة دخيلة قلب انسان ـ ايا كنت أنت ـ ان تتجلد اذ تقرأ الصفحتين أو الثلاث التالية ، فسوف تعرف فيها جان جاك روسو معرفة تامة !

لقـد كنت ألج غرفة الغـانية ، وكأننى ألج معبـدا للحب والجمال .. وكنت أخال اننى ابصر القداسة فى شخصها . فما كنت لأعتقد ان بوسعى ان أحظى بالانفعالات التى ألهمتنيها ، مالم

احترمها وأقدرها . ولم أكد أعرف ــ خلال محاولات التقارب والتآلف الاولى ــ نعم مفاتنها وعناقها ، حتى تولانى الخوف من انأفقد ثمارها مقدما، ومن ثم فقد تقت الىالتعجيل باقتطافها. وفجأة ، أحسست ــ بدلا من النيران التى كانت تكوينى ــ ببرودة قاتلة تسرى فى عروقى ، وخذلتنى ساقاى ، فجلست وانا أرى نفسى موشكا على الاغماء ، ورحت أبكى كالطفل !

ترى منذا الذى يستطيع ان يحدس سبب دموعى وما كان يجرى فى رأسى فى هذه اللحظة ؟ . . كنت أقول لنفسى : « ان هذه الحسناء التى أجدها فى متناولى هى أروع نتاج الطبيعة والحب . . فالروح والجسد فى أكمل آياتهما . . وانها لطيبة وكريمة كما انها جميلة وبديعة .. وخليق بالعظماء والأمراء ان يكونوا عبيدا لها ، كما يجدر بصولجانات الملك ان تكون عند قدميها .. ومع ذلك ، فهاهى ذى تعسة ، تجوب الطرقات ، فى خدمة كل انسان .. لقد نفض أحد ربابنة السفن التجارية يديه منها ، فجاءت والقت بنفسها على رأسى .. على أنا الذى كانت تعرف انه لايملك شيئا . . انا الذى لم يكن بوسعها ان تعرف فضائله ، ولا كانت هذه الفضائل شيئا يذكر فى نظرها ! .. ان ثمة شيئا يجل عن الادراك ، فى هذا . فاما ان قلبى يخدعنى ويزيغ حواسى ويجعلنىمطية مومس لا قيمة لها، واما ان ثمة عيبا خفيا لا ادريه ، يهدم مفعول مفاتنها ، ويحيلها قميئة فى نظر أولئك الذين كانوا خليقين ــ لولا ذلك ــ بأن يتناحروا فى سبيل الظفر بها » . . وشرعت ابحث عن هذا العيب فى استغراق عجيب ، دون ان يخطر لى البتة ان للفسق والعهر نصيبا فى ذلك . فان نضرة بشرتها ، واشراق محياها ، واسنانها التى كان بياضها يبهر البصر، وحلاوة انفاسها، والجو العام المحيط بشخصها والموحى بالنظافة .. كل هذا محا هذه الفكرة تماما من ذهنى . **واذ كنت لا ازال فى شك من حالى ــ منذ زياراتى لبيت البغى « البادوانا » ــ فقد وسوست لنفسى**

بالخوف من أننى لم أكن فى صحة تجعلنى أهلا لها ، واقتنعت كل الاقتناع بأن يقينى من هذا لم يكن زائفا !

ولقد أهاجتنى هذه الخواطر — التى جاءت فى حينها المناسب — الى الدرجة التى أبكتنى . أما « جوليتا » — التى كان هذا المنظر جديدا عليهـا ولا ريب ، فى مثل تلك الظـروف — فقد بهتت لحظة ، ولكنها بعد ان تمشت فى ارجاء الحجرة ، ومرت أمام مرآتها ، أدركت الحقيقة ، كما أكدت لها عيناى ان هـذا الأسى التهوسى لم يكن من النفور فى شىء . ولم يكن عسيرا عليها ان تبرئنى منه ، وأن تمحو الحياء الطفيف . ولكننى اذ هممت بأن انطرح متهالكا على هـذا النحر الذى بدا وكأنه كان يسمح — للمرة الاولى — ليـد رجل وفمه بأن يمساه ، لمحت أنها لم تؤت سوى حلمة ثدى واحـدة . وضربت جبهتى براحتى ، وتفرست ، فخيل الى اننى أرى ان هـذه الحلمة لم تكن على غرار الأخـرى فى الشكل . واذا بى أنقب فى ذهنى عن تعليـل لوجود حلمة شوهاء ، ولما رحت اقلب الفكر ، اقتنعت بأن لهذه الظـاهرة علاقة بعيب طبيعى واضح .. وتجلى لى — كوضح النهار — اننى لم أكن احتضن بين ذراعى اجمل حسنـاء كان بوسعى ان اتصورها ، وانما كنت اضم نوعا من المسخ . كنت أضم نفاية الطبيعة ، والرجال ، والحب . وذهبت فى غبائى الى حد ان احدثها عن هـذا العيب ، فتلقت الأمر — فى البداية — على محمل الدعابة ، وقالت فى مرحها وفعلت أشياء كانت كفيلة بان تميتنى هياما ، ولكنها حين رأت بقيـة من قلق لم أقو على اخفائها ، اذ بها تتضرج خجلا — فى النهاية — فتعتدل ، وتسوى ثيابها .. ثم سارت — دون أن تنبس بكلمة واحدة — فجلست لدى نافـذة مخدعهـا . ورغبت فى ان اجلس الى جـوارها ، فغادرت مكانهـا وجلست على اريكة ، ثم نهضت بعـد لحظة وتمشت فى الحجرة وهى تزفر ، وقالت فى لهجة قاسية مهينة

« جانيتو .. دع النساء ، وادرس العلوم الرياضية » !
وقبل ان ابرحها ، سألتها موعدا آخر كى القاها فى اليوم التالى ، فأرجأته الى اليوم الثالث ، واردفت — وهى تبتسم ابتسامة ساخرة — اننى ولابد بحاجة الى الاستجمام . وقضيت هذا الوقت متوعك المزاج ، ملىء القلب بمفاتنها وحسنها ، شاعرا بحماقتى ، لائما نفسى ، متحسرا على اللحظات التى اسأت استغلالها — والتى كان فى يدى ، انا وحدى ، ان أجعلها أعذب لحظات حياتى — مترقبا بأشد ألوان نفاد الصبر اللحظات التى استطيع فيها ان أعوض ما فاتنى .. ولكننى ظللت — مع ذلك — قلقا بالرغم من نفسى ، لا أدرى كيف أوفق بين مفاتن هذه الفتاة الرائعة ، وبين فحش حالها .. وهرعت ، بل طرت الى دارها فى الموعد المحدد . ولست ادرى أكانت هذه الزيارة خليقة بأن تضاعف من ارضاء طباعها الحادة .. كان غرورها — على الأقل — قمينا بأن يجد فى الزيارة عملا يتملقه ، ومن ثم رحت استمتع — سلفا — بغبطة ما كنت اعتزمه من أن أريها ، بكل الوسائل ، اننى كنت أعرف كيف أصلح أخطائى . ولكنها اعفتنى من هذا العناء . فان نوتى الجندول — الذى اوفدته الى دارها ، عندما رسونا — عاد الى بنبأ رحيلها فى اليوم السابق الى (فلورنسا) . **واذا كنت لم أشعر بمدى حبى لها عندما كانت بين ذراعى ، فقد شعرت به فى قسوة اذ فقدتها !** .. ولم يفارقنى قط ندمى المهتاج .. ولقد استطعت ان أتعزى عن فقدها — وهى التى كانت موفورة اللطف وموفورة الفتنة فى عينى — ولكنى اعترف بأننى لم استطع البتة ان أهون على نفسى الفكرة التى راودتنى من انها لم تحمل معها عنى سوى ذكرى مهينة زرية !

* * *

• **هاتان** هما قصتاى الوحيدتان، فان الشهور الثمانية عشر

التى قضيتهـا فى البندقية لم تخلف لى مزيدا أرويه ، اللهم الا غراما لم يتجاوز ان يكون مجرد.. مشروع! فلقد كان «كاريو» مشغوفا بالنساء ، وقد سئم الذهاب دائما الى دور فتيات كن على علاقات بسواه ،فساورته نزوة انتكون له بدوره عشيقة.
ولما كنا لانفترق ، فقد اقترح على مشروعا لميكن نادر المثال فى البندقية : ان نقتنى فيما بيننا عشيقة ! .. ولقد وافقت على ذلك ، وبقى ان يجد غانية نطمئن اليها .. وبحث كثيرا ، حتى اهتدى الى فتاة صغيرة، فيما بين الحاديةعشرة والثانية عشرة من العمر ، كانت امها الخسيسةتسعىلكى تبيعها. وشاهدناها معها ، فاهتز قلبى اشفاقا اذ رأيت تلك الطفلة.. كانتشقراء، وادعة كالحمل ، لايظن من يراها انها ايطـالية . وكانت نفقات

المعيشة فى (البندقية) زهيدة ، فأعطينا الأم بعض المال، وتكفلنا بأن نعول الفتـاة . وكان لهـا صوت رخيم ، فوهبناها معزفا صغيرا ، واستأجرنا لها مدرسا ليلقنها الغنـاء ، كى نهيىء لها وسيلة للعيش وكان كل هذا لايكاد يكلف كلا منـا قطعتين من فئة «السيكان» فى الشـهر ، وقد كان كفيـلا بأن يوفر علينا نفقات اخرى . ولكنه كان بمثابة البذر الذى لن يؤون حصاده الا بعد أمد طويل ، اذ لم يكن ثمة بد من ان ننتظر حتى تنضج

الفتاة !.. على اننا كنا قانعين بأن نتردد على الدار (١) ، فنقضى امسياتنا فى لعب وثرثرة بريئين مع هذه الصبية ، فننعم بلهو قد يكون أنسب وافضل مما كنا نحظى به لو اننا نلنا منها وطرا .. وكم هو صحيح أن أشد ما يجذبنا الى النساء لا يمت الى الفسق بقدر ما يمت الى لون خاص من المتعة يستمد من الاقامة بالقرب منهن .. ولقد تعلق قلبى بالصغيرة «انجوليتا» فى شغف جنونى ، ولكن هذا الميل كان أبويا !.. ولم يكن لشهواتى اثر يذكر فى ذلك ، فبقدر ما أخذ حبى ينمو ، راح احتمال السماح لهذه الشهوات بأن تكون ذات سلطان عليه يتضاءل .. وكنت أشعر بأننى خليق بأن استبشع ان أمس هذه الفتاة - اذا ما ادركت سن البلوغ - كما لو ان هذا العمل كان فاحشة مرذولة !.. وكنت أرى مشاعر كاريو الطيب تتخذ عين الاتجاه، دون ان يفطن . . **كنا قد دبرنا لأنفسنا - دون ان نتكبد عناء التفكير فى الأمر - متعا لا تقل عذوبة عن تلك التى كنا قد فكرنا فيها من قبل ، وان اختلفت عنها . وانى لواثق من اننا كنا زعيمين بأن نظل حاميين للفتاة ، لا مفسدين لها ، مهما كان يحتمل ان يصير اليه جمالها اذا ما كبرت .** على ان نكبتى (٢) وقعت بعد ذلك بقليل، فلم تدعنى أساهم فى هذا العمل الطيب، ولم يعد لى من نصيب فى هذه المسألة اللهم الا ميول قلبى .. فلنعد الآن الى رحلتى :

كان اول ما فكرت فيه بعد مغادرتى دار السيد دى مونتيجى، هو ان اعود الى (جنيف) ، أملا فى ان تؤدى بعض الظروف السعيدة الى ازاحة العقبات وتمكينى من الانضمام الى «ماما» المسكينة (٣) . ولكن الضجة التى احدثها شجارى مع السفير ،

(١) كانت الصبية تقيم مع امها ،ويتكفل روسو وصديقه بنفقاتها
(٢) يقصد خلافه مع السفير ومبارحته البندقية
(٣) يقصد مدام دى فاران طبعا

وحماقته التى حملته على الكتابة من ذلك الى البلاط ، جعلتانى اقرر الذهاب الى البلاط بنفسى لأقدم حسابا عن مسلكى ، ولأرفع شكواى ضد هذا الرجل المجنون . وكتبت الى السيد دى «تيبل» — القائم بالشئون الخارجية مؤقتا ، عقب وفاة السيد «اميلو» — عن قراره ، ثم بارحت البندقية فى أعقاب رسالتى مباشرة ، فاتخذت طريقى مارا ببيرجامى ، و (كومى)، و (دومو دوسولو) — وعبرت ممر (سيمبلون) . وفى (سيون)، ابدى لى السيد دى «شينيون» — القائم بأعمال فرنسا — ألف مظهر من مظاهر الود . وكذلك فعل السيد ديلا كلوزير ، فى (جنيف) . وهناك ، جددت التعارف مع السيد دى جوفكور، الذى اضطررت لأن أتقبل منه بعض المال . واجتزت (نيون) دون ان أرى أبى ، **ولم يكن هذا العمل ليعفينى من ألم قاس اختلج به فؤادى ، ولكنى لم أكن أملك أن أحمل نفسى على أن اظهر أمام زوجة أبى ، بعد ماأصابنى من سوء الطالع ، اذ كنت موقنا من انها ستلقى الذنب على دون ان تسمع قولى .** والقد لامنى «دوفيار» الكتبى — وكان صديقا حميما لأبى — على هذا الخطأ لوما شديدا ، فذكرت له السبب . ولكى نصلح الخطأ، استأجرت محفة ورحلنا معا الى (نيون) ، فهبطنا فى فندق ، وانطلق «دوفيار» بحثا عن أبى ، الذى لم يلبث ان جاء مهرعا، فاحتضننى . وتناولنا العشاء معا . وبعد ان قضينا سهرة كانت جد ممتعة لفؤادى ، عدت فى صباح اليوم التالى الى (جنيف) مع دوفيار ، الذى ظللت دائما اذكر له بالعرفان ، ما بذله من فضل فى هذه المناسبة !

* * *

• **ولم يكن** طريق (ليون) هو اقصر الطرق لغايتى ، ولكننى رغبت فى ان امر بالمدينة، لاتحرى عن حيلة خسيسة من حيل السيد دى مونتيجى . اذ اننى كنت قد اجتلبت من باريس

صندوقا صغيرا ضم صديرية وشيت حوافها بالذهب ، وبضعة ازواج من أساور الاقمصة المزركشة ، وستة ازواج من الجوارب الحريرية البيضاء ، ولا شيء أكثر من ذلك. واستجابة لاقتراح عرضه على السيد دى مونتيجى نفسه ، ضممت هذا الصندوق – أو بالأحرى ، هـذه العلبة – الى متاعه . ولـكنه فى كشف حساب الصيدلى – الذى أراد حملى على قبوله فى مقابل مرتبى ، والذى كتبه هو بيـده – ذكر ان هـذه العلبة ، التى أسماها «طردا» ، كانت تزن احـد عشر قنطارا ، وتقاضانى لذلك عن نقلها أجرا هائلا. واستطعت التحقق – بفضل السيد بوى ديلاتور ، الذى أوصاه بى السـيد روجان خاله – من سـجلات جمارك ليون ومارسيليا ، ان «الطرد» المزعوم لم يكن يزن سوى خمسة وأربعين رطلا ، وان أجـر النقل لم يدفع الا عن هـذا الوزن . وقد اضفت هذا البيان الرسمى الى ذكريات السـيد دى مونتيجى . وعدت الى باريس مزودا بهذه الوثائق وبكثير من أمثالها ، وانا متلهف على استغلالها. ولقد صادفت – خلال هذه الطريق الطويلة – مغـامرات صغيرة فى (كومى) ، باقليم (فاليه) ، وفى بقاع أخرى . ولقد رأيت – فيما رأيت – جزر (بوروميه) التى كانت جديرة بأن توصف . **ولـكن الوقت كان يمر سراعا ، وكان الجواسيس يضيقون على النطاق ، ومن ثم فقد كنت مضطرا الى ان أنجز – فى سرعة وبأسوأ حال – رحلة كانت تتطلب سـعة من الوقت والطمـأنينة ، الأمر الذى كان يعوزنى** . واذا قدر للعناية ان ترعانى وان تتيح لى – أخيرا – أياما أكثر سكينة وطمأنينة ، فلسوف اخصص هذه الأيام لاعادة صوغ هـذا المؤلف – ان استطعت – أو لأضيف اليـه جزءا مكملا ، اشعر بأنه محتاج اليه كل الاحتياج (١)

---

(١) عقب « روسو » على ذلك بقوله : « ولقد عدلت الآن عن هذا المشروع »

وكان ضجيج قصتى قدسبقنى ، فما ان وصلت الى باريس حتى الفيت كل امرىء ـ سواء من الرسميين او من العامة ـ قد استنكر حماقات السفير . وبالرغم من هذا ، وبالرغم من صيحة الرأى العام فى البندقية، وبالرغم من الأدلة غير المدحوضة التى قدمتها ، فاننى لم استطع ان اظفر بالانصاف !.. بل ان الأمر لم يقتصر على اننى لم أفز بارضاء ولا بتعويض ، وانما تركت ـ فوق هذا ـ تحت رحمة السفير، فيما يتعلق بمرتبى، وذلك لمجرد اننى لم اكن فرنسيا ، فلم يكن لى الحق فى ان استجير بالدولة، ومن ثم فقد كانت المسألة شخصية، لا تخص سوانا نحن الاثنين ! .. **كان كل امرىء يقرنى على اننى اهنت واوذيت ونكبت ، وعلى ان السفير كان معتوها ، قاسيا ، ظالما، وان المسألة كلها كانت عارا باقيا له. ولكن، ماذا بعد كل هذا ؟! .. لقد كان هو السفير ، أما انا فلم أكن سوى السكرتير ..** وكان النظام الصالح ـ أو ما يطلق عليه هذا الاسم ـ يقتضى ان لا انال اى انصاف، فلم انل شيئا منه !.. ولقد خيل الى اننى بالشكايات المستمرة ، وباظهار هذا الاحمق امام الملأ بما كان يستحق ان يظهر به ، قد استطيع ان اضطرهم الى ان يطلبوا الى ان اعقل لسانى ، وهو عين ما كنت ارتقبه ، اذ اننى كنت قد صممت على ان لا اطيع حتى اظفر بالانصاف . بيد انه لم يكن ثمة وزير للخارجية اذ ذاك . ولقد تركت اصرخ ، بل اننى لقيت تشجيعا على ذلك ، ووجدت من ردد صراخى ، ولكن القضية ظلت دائما عند هذا الحد ، حتى سئمت ـ فى النهاية ـ ان اظل دواما على حق دون ان انال انصافا، فثبطت عزيمتى، وبقيت على حالى !

وكان الشخص الوحيد الذى اساء استقبالى، والذى كان اقل الناس اصغاء لشكاتى ، هى السيدة دى بوزينفال . فقد كانت لفرط اعتزازها بالامتيازات المترتبة على الجاه وسمو المكانة ، لاتملك ان تفهم ان من الممكن لسفير أن يسىء الى سكرتيره .

وقد كان مسلكها فى استقبالى مطابقا لهذه النعرة الباطلة : **ولقد غاظنى هذا ، حتى اننى كتبت اليها ــ بعد مبارحتى دارها ــ خطابا لعله اشد واعنف خطاب كتبته فى حياتى ، ولم اذهب الى دارها بعد ذلك قط !..** ولقد أكرم الأب كاشيل وفادتى ، ولكننى لمحت ــ خلال تملقه الجزويتى ــ انه كان يتبع فى امانة مبدأ من أعظم مبادىء المجتمع .. ذلك هو : التضحية دائما بالأضعف من أجل خاطر الأقوى !.. ولكن شعورى المتأجج بعدالة قضيتى، وكبريائى الفطرية، لم يدعانى اطيق هذا التحيز صابرا . فكففت عن زيارة الأب كاستيل ، وبالتالى زيارة الجيزويتيين الذين لم أكن اعرف من بينهم سواه!.. والى جانب هذا ، فان روح الجور والدس لدى زملائه ، كانت تختلف عن صلاح الأب هيميه الطيب، مما جعلنى اشعر بنفور من اجتماعهم ، حتى اننى ــ منذ ذلك الحين ــ لم ار احدا منهم ، اللهم الا الأب بيرتييه ، الذى قابلته مرتين او ثلاثا لدى السيد دوبان ، اذ كان يعمل معه بكل ما فى وسعه على تفنيد آراء مونتسكيو !

فلنختتم ــ الى غير رجعة ــ ما بقى لدى من قول عن السيد دى مونتيجى ! .. لقد كنت أقول له ــ فى منازعاتنا ــ انه لايليق به ان يستخدم سكرتيرا ، وانما الأليق به ان يستخدم

احـد كتبة المحامين . ولقد اخـذ برايى هذا ، واستخدم ـ كخليفة لى ـ كاتب محام حقا ، فلم يلبث ان سرق منه، فى اقل من عام ، عشرين الف أو ثلاثين الف ليبرة. ولقد فصله وزج به فى السجن ، وفصل مستشاريه فى عاصفة من الفضيحة والتشهير ، وتشاجر فى كل مكان ، وتلقى من الاهانات ما كان الخادم يربأ بنفسه ان يتلقاه ، وانتهى ـ بفضل حماقاته ـ الى ان استدعى ، وفصل من منصبه واقصى الى الريف !.. **وكان من الواضح ان مسألتى لم تكن منسية بين المسائل التى وجه اليه اللوم بشأنها فى البلاط** . وعلى اية حال ، فقد اوفد الى ـ بعد قليل من اعتزاله العمل ـ وكيل اعماله كى يسوى حسابى ويدفع لى نقودى ، التى كنت فى حاجة ماسة اليها ، اذ كانت ديونى فى(البندقية) ديون شرف ـ اذا جاز ان نسميها كذلك يوما ـ وكانت تثقل قلبى بالهم . فانتهزت الفرصة لتسديدها ، بما فى ذلك سند «جانيتو نانى» . ومن ثم اخذت ما قدم لى ، ودفعت كل ديونى . ومع ان هذا خلفنى معدما ـ كما كنت من قبل ـ الا اننى تخففت من عبء كان قد أصبح أثقل من ان أحتمله. ومنذ ذلك الحين لم أسمع كلمة عن السيد دى مونتيجى حتى موته، الذى علمت به من صوت الشعب(١) .. فليرحم الله هذا الرجل المسكين !.. لقد كان فى صلاحيته لمهنة السفير لايفضلنى فى صلاحيتى ـ فى صباى ـ لمهنة المحاماة(٢) . على انه كان فى يده ـ هو وحده ـ ان يسلك مسلكا شريفا فى الاستعانة بى ، وان يكفل سرعة ارتقائى الى المنصب الذى كان الكونت دى جوفون قد رسم لى الطريق اليه ـ فى صباى ـ والذى استطعت بالاعتماد على نفسى فقط ان اصل اليه فى سن متقدمة !

---

(١) يقصد الصحافة

(٢) ذكر روسو فى الكراسة الأولى من اعترافاته ان اباه كان يريده على ان يكون محاميا ، ولكنه لم يفلح فى فترة التدريب

ولقد خلفت عدالة شكاياتى ، وعدم جدواها ، بذور السخط فى نفسى على نظمنا المدنية الحمقاء ، التى تضحى بفضلها المصلحة العامة والعدالة الحقة ، لغير ما مصلحة واضحة اعرفها . بل انها لتهدم فعلا كل نظام ومصلحة ، ولا تؤدى الا الى ان تخلع شرعية السلطة العامة على ماينال الضعيف من ظلم ، ومايبديه القوى من جور ! .. ولم يمنع هـذه البذور من ان تنمو اذ ذاك ــ كما ترعرعت فيما بعد ــ سوى امـرين : اولهما ان المسألة كانت شخصية لاتتعلق بسواى ، والمصلحة الشخصية ــ التى لم تؤد قط الى أى شىء عظيم أو نبيل ــ لايمكن ان تنتزع من قلبى قط تلك الخفقات القدسية التى لايمكن لغير أنقى حب للعدالة والجمال ان يثيرها فيه .. اما الثانى فهو سحر الصـداقة الذى سكب على غضبى شعورا ناعما خفف من حدته وهدأ من سورته . اذ كنت قد تعرفت فى البندقية على شخص من ابناء منطقـة خليج (بسكاى) ، كان صديقا لصديقى كاريو ، وكان جديرا بصداقة كل رجل شريف . وكان هذا الشاب اللطيف ــ الذى اوتى كل المواهب وكافة الفضائل ــ قد شرع فى جولة فى ربوع ايطاليا ، لينمى فى نفسه الميل الى الفنون الجميلة . واذ خيل اليه انه لم يعد ثمة مزيد يحصله ، هم بالعودة الى وطنه مباشرة ، فأخبرته بأن الفنون ليست سوى مجرد تسلية لعبقرى مثله خلق لكى ينمى العلوم . واشرت عليه بأن يرحل الى باريس ، فيقضى فيها ستة أشهر فى سبيل ذلك .

وقد صـدقنى واخـذ بنصيحتى ، ومن ثم فانه رحـل الى باريس .. وكان فى انتظارى عنـدما عدت اليها .. وكان مسكنه اكثر اتساعا من حاجته ، فعرض على ان اشاطره اياه ، وقبلت . وقد وجدته مليئا بالتحمس لفروع المعرفة العليا . ولم يـكن من شىء يسمو على قوى ادراكه ، فـكان يستوعب ويهضم كل شىء بسرعة تدعو الى العجب . ولكم شكر لى أن

هديته الى هذا الغذاء لعقله الذى كان يتحرق ظمأ الى المعرفة، دون ان يدرى كنه هـذا الظمأ ومبعثـه ! .. أية كنوز غنيـة بالانوار والفضائل وجـدتها فى هـذه النفس القوية ! .. **لقد شعرت بأنه الصـديق الذى كنت أصبو اليـه ، ففدونا وثيقى الصلة . ولم تكن مشاربنا واحدة ،فكنا دائما فى جدال .. ولم نكن نتفق قط على امر واحد ، اذ كان كل منا عنيدا . ومـع ذلك فقد كنا لانطيق فراقا** . ومعاننا كنا نتعارض دون انقطاع، الا ان كلا منا لم يكن يتمنى ان يكون الاخر غير الذى كانه !

كان « ايناسيو ايمانويل دى ألتـونا » من أولئك الأفـراد النادرين ، الذين لا تنجبهم سوى اسبانيا ، وقلما تستأثر بهم من أجل مجدها الخاص . ولم تكن له تلك النعرات القوميـة العنيفة ، المألوفة لدى قومه ، كما ان فكرة الثأر كانت من البعد عن ذهنه بمثل ما كانت الرغبـة فيه بعيدة عن قلبـه . وكان أسمى نفسا من ان يحقـد ، وكثيرا ما سمعته يقول فى هـدوء مفرط ، انه ليس فى وسع الانسان الفانى ان ينال منه . وكان ميالا الى النسـاء فى غير لين أو ضـعف ، فكان يلاعب النسـاء وكأنهن أطفال صغار .. وكان يلهو مع عشيقات أصـدقائه ، ولكنى لم أر له يوما عشيقة قط ، ولا عرفته يشتهى ان تكون له واحدة . كانت نيران الفضيلة المتأججة فى قلبه لاتدع مجالا قط للواعج الشهوة !

ولقد تزوج هـذا الشاب عقب أسفـاره ، ومات فى ريعان الشباب ، مخلفا أطفالا . وانى لأومن ـ ايمانى بوجودى ـ بأن زوجتـه كانت المرأة الأولى ، والوحيـدة ، التى اذاقتـه ملاذ الحب ! .. **ولقد كان فى ظاهره تقيا كأى اسبانى آخر ، اما فى باطنه فكانت تقواه كتقوى الملائكة . وفيما عـداى ، كان هو الشخص المتسامح الوحيد الذى رأيته فى حياتى ، فمـا سال امرءا عن آرائه الدينية ، وما كان ليعنيه كثيرا ان يكون صديقه**

يهوديا ،او بروتستانتيا ، او تركيا (١)، أو متعبدا ،او زنديقا، ما دام هذا الصديق أمينا شريفا . وبقدر ماكان عنيدا ، جامد الراس ازاء آراء ضئيلة الأهمية ، فانه كان يتراجع بمجرد ان ينحول الجدل الى الدين ، او حتى الى الاخلاق ، وكان يمسك لسانه ، او يكتفى بأن يقول : « لست مسئولا الا عن نفسى ! ». ومن الامور التى تجل عن التصديق ، ان يتسنى الجمع بين سمو روحى كهذا وعقل يعنى بأدق التفصيلات . فقد كان يقسم يومه بالساعات ويحدد ــ مقدما ــ استخدام كل ساعة، بل كل ربع ساعة وكل دقيقة ، ويتبع هذا التقسيم بدقة بالغة، الى درجة انه كان ــ اذا دقت الساعة وهو فى منتصف احدى العبارات ــ يغلق الكتاب دون ان يتم العبارة ! .. وكان بين كل هذه الاقسام ــ التى اعتاد ان يقسم اليها يومه ــ ما هو مخصص للدرس ، وما هو للتأمل ، وما هو للحديث ، وما هو للعبادة ، وما هو لقراءة مؤلفات « لوك » ، وما هو لتلاوة التسابيح ، وما هو للزيارات ، وما هو للموسيقى ، وما هو للرسم .. ولم يكن لأى لهو ، أو اى اغراء ، أو أية مجاملة مجال للتدخل فى هذا النظام ، اللهم الا اذا كان واجبا لابد من ادائه ! **.. وعندما أعطانى بيان تقسيمه الوقت ــ عسى ان اتبعه ــ طفقت أضحك ، حتى انتهيت بدموع الاعجاب !** .. ولم يكن يثقل على الغير اطلاقا ، ولا يحتمل ان يثقل عليه الغير ، وكان حازما مع اولئك الذين كانوا يحاولون مضايقته فى ادب . وكان حار المزاج ، ولكن فى غير عبوس . فكثيرا ما رأيته منفعلا ، ولكنى لم اره قط مغضبا . ولم يكن ثمة ما يفوق مرحه وبشاشته ، وكان ينصت الى الفكاهة ويحب أن يتفكه ، وكان فى ذلك لامع البديهة ، أوتى موهبة فى قصائد الهجاء . فاذا ما استشاره أحد ، انقلب صارخا صاخبا ، حتى ليسمع صوته

(١) يستعمل « روسو » لفظ « تركى » كمرادف لمسلم

((خناقة)) بين فولتير وروسو
كاريكاتير من القرن الثامن عشر

على بعد .. ولكن الابتسامة كانت ترى على اساريره ، اثناء صياحه ، وكان — فى غمرة انفعاله — يطلق بعض الملح فيحمل

الجميع على الضحك . ولم يكن بدين الجسم ، كما انه لم يؤت سيماء الاسبانيين .. كانت بشرته بيضاء ، وخداه ممتلئين ، وشعره بنيا فاتحا ، يكاد يقرب من الصفرة ، وكذلك كان طويل القوام ، متين البنيان ، ذا جسد جدير بأن يأوى روحه !

هذا الشخص الذى أوتى قلبا يشبه رأسه حكمة وعقلا ، كان على بصيرة بالناس ، وقد كان صديقا لى .. وهذا كل ما أقول لمن هو ليس من أصدقائى . ولقد توثقت صلتنا ، حتى لقد فكرنا فى ان نقضى عمرينا معا ، فأذهب ــ بعد سنوات ــ الى (اسكويشيا) لأعيش معه فى ضيعته . ولقد دبرت جميع أجزاء هذا المشروع ــ فيما بيننا ــ فى اليوم السابق على رحيله. ولم يعد ينقصنا سوى ذلك الذى لا يملكه الانسان لنفسه فى مشروعاته ، مهما يحسن تدبيرها .. فلقد قدر للأحداث بعد ذلك ــ واعنى مصائبى ، وزواجه ، وموته فى النهاية ــ ان تفرق بيننا الى الأبد ! .. **وما أجدر المرء بأن يقول انه لا نجاح الا للخطط السوداء التى يدبرها اللئام .. اما المشروعات البريئة التى يدبرها الطيبون ، فانها لا تكاد تتحقق قط !**

* * *

• **ولما** كنت قد تذوقت متاعب العمل فى خدمة الغير ، فقد عقدت العزم على ان لا اعرض نفسى لذلك مرة اخرى . ذلك اننى رايت ان خططى الطموحة التى أغرتنى الظروف بتدبيرها كانت تنقلب رأسا على عقب بمجرد مولدها ، وثبطت رغبتى فى العودة الى مهنة بدأتها بمثل هذا النجاح ، ولكننى ــ رغم ذلك ــ طردت منها .. **ومن ثم فقد آليت على نفسى ان لا ألتحق ثانية بخدمة أحد ، وان اظل مستقلا ، فأستغل مواهبى التى كنت قد بدأت ــ أخيرا ــ اقدر مداها ، والتى كنت ــ حتى ذلك الحين ــ لا انظر اليها الا فى تواضع . لذلك استأنفت**

العمل فى ((الاوبرا)) التى كنت قد انصرفت عنها نظرا لرحيلى الى (البندقية) • ولكى افرغ اليها فى اقصى هـدوء ممكن ـ عقب رحيـل ((ألتونا)) ، فقـد عدت الى الاقامة فى فنـدقى القديم ـ ((سان كينتان)) ـ الذى كان يقع فى حى منعزل ، يبعد قليلا عن (لوكسمبورج) ، فـكان لذلك اكثر ملاءمـة ـ لتمكينى من العمل فى هدوء ـ من المسكن القائم فى شارع (سانت اونوريه) الصـاخب . وهناك وجـدت فى انتظارى السـلوى الحقيقـة التى أذاقتنيها السماء فى شـقوتى ، والتى كان لهـا وحدها فضل تمكينى من ان اتحمل تلك الشقوة . ولم تـكن هذه السلوى معرفة عابرة ، ومن ثم فلا بد لى من الاقدام على بعض الاسهاب فى بيان الطريقة التى نشأت بفضلها

فلقد أوتينـا فى الفندق مضيفة جديدة من (اورليـان) ، اختارت للعناية بالغسيل فتـاة من بلدها ، فيما بين الثانيـة والعشرين والثالثة والعشرين من عمرها ، كانت تتناول الطعام معنا ، شأنها فى ذلك شأن المضيفة . وكانت هذه الفتاة ـ المسماة تيريز لافاسير ـ من اسرة طيبة ، فقد كان والدها مراقب العملة فى اورليان ، وكانت امها تاجرة . وكان الأبوان كثيرى العيال . ولما كفت دار سك النقود ـ فى اورليان ـ عن العمل ، وجـد الأب نفسه على قارعة الطريق ، بلا عمـل .. فى حين ان الأم افلست ، وتخبطت فى اعمالها ، وانتهت الى التخلى عن تجارتها ، فجاءت الى باريس مع زوجها وابنتها التى اخذت تعول ثلاثتهم من عملها !

وعندما رايت هذه الفتاة على المائدة للمرة الاولى ، اخـذت بمسلكها المحتشم ، وزادتنى دهشة نظراتها الوثابة اللطيفـة ، التى بدت لعينى ـ اذ ذاك ـ نادرة المثال . وكانت الثـلة التى تجتمع حول المائدة تضم ـ الى جانب السيـد دى بونفون ـ عدة من القساوسة الايرلنديين والجسـكونيين ، وبعض افراد

آخرين على شاكلتهم . وكانت مضيفتنا نفسها زعيمة الفوضى فى حياتنا ، فى حين اننى كنت الوحيد الذى اعتاد ان يتكلم وان يتصرف فى وقار واحتشام . **ولقد عاكسوا الفتاة المسكينة ، فتوليت الدفاع عنها ، فاذا بالساخرين ينقلبون على .ولو اننى لم أحس بميل طبيعى نحو الفتاة المسكينة ، لكان الشعور بالاشفاق ، بل والمعارضة ، كفيلا بأن يخلق هذا الميل ، فقد كنت أعجب بالاحتشام فى الاقوال والافعال ، لا سيما لدى الجنس الاخر .** ومن ثم غدوت جهارا نصير الفتاة . ورايت انها قد تأثرت بعطفى ، وان نظراتها اخذت تطفح بعرفان لم تكن تجرؤ على البوح به ، مما كان يزيدنى لباقة وطلاقة لسان !

ولقد كانت شديدة الخجل ، وكذلك كنت انا . وسرعان ما نمت الرابطة التى لاح ان هذا التشابه فى الطباع كان خليقا بأن يعوقها ! .. وأهاج ذلك مضيفة الفندق ــ اذ لاحظته ــ فاذا بمسلكها الفظ يزيد من تطور علاقاتى مع الصغيرة التى لم يكن لها سواى نصير فى الدار ، ومن ثم فانها كانت ترمقنى فى أسى اذا خرجت ، وتتنهد فى ارتياح اذا ما عاد حاميها ! .. وما لبث تجاوب قلبينا وتشابه طباعنا ان أحدثا اثرهما المعتاد ! .. فقد خيل للفتاة انها رات فى شخصى رجلا شريفا ، ولم تكن مخطئة فى ذلك .. ولقد خيل الى اننى أرى فيها فتاة مرهفة الحس ، بسيطة ، خالية من الخلاعة ، ولم اكن ــ بدورى ــ مخطئا فى ذلك ! .. ولقد انبأتها ــ منذ البداية ــ بأننى لن اهجرها قط ، ولن اتزوجها اطلاقا ! .. وكان الحب ، والاحترام ، والاخلاص الصادق هم رسل فوزى ، وذلك لأن قلبها كان رقيقا ، امينا ، مما جعلنى سعيدا دون ما حاجة الى أن أكون جريئا !

ولقد أدى خوفها من أن أستاء اذا لم أجد لديها ما كانت تعتقد اننى انشده ، الى تأخير هنائى أكثر من أى شىء آخر . **ورأيت انها كانت مضطربة مرتبكة قبل أن تسلمنى نفسها ،**

مشوقة الى ان تمكنني من أن أفهمها ، دون ان تجرؤ على الايضاح بنفسها . واذ كنت بعيدا عن أن أحدس السبب الحقيقى لحرجها ، فانني عزوته الى سبب جد خاطىء ، وجد مهين لشخصها واخلاقها . فقد اعتقدت انها كانت ترمى الى ان تنبهنى الى ان صحتى قد تتعرض للاخطار ، واوقعنى هذا فى كثير من الحيرة ، التى لم تصدنى عنها ، ولكنها سممت هنائى اياما عديدة . واذ عز على كل منا ان يفهم الآخر ، فان احاديثنا فى هذا الصدد كانت الغازا واحاجى تدعو الى اكثر من الضحك ،

حتى لقد كانت الفتاة موشكة ان تظننى معتوها ، كما اننى كنت لا أكاد أعرف لنفسى رأيا فيها . وأخيرا تصارحنا . واعترفت لى — وهى باكية — بزلة وحيدة تعرضت لها وهى تغادر مرحلة الطفولة ، وكانت ثمرة جهلها ودهاء الشخص الذى اغواها . **وما ان فهمتها حتى صحت فى اغتباط : «البكارة !.. جميل ان ترتجى فى باريس ، وفى سن العشرين ! .. آه ! يا تيريزى ، اننى لجد سعيد بأن أحظى بك حكيمة سليمة ، ولا أجد فيك مالم أكن أنشده !»**

* * *

• **ولم اكن** اسعى فى البداية لغير العبث ، ولكننى ما لبثت

ان تبينت اننى وجدت اكثر من ذلك ، واننى أوتيت زميلة ! ..
فان قليلا من الألفة مع هذه الفتاة الرائعة ، وقليلا من التأمل فى موقفى ، جعلانى اشعر اننى ـ فى الوقت الذى لم أكن افكر فيه فى غير ملذاتى ـ قد خطوت خطوات كثيرة فى تدعيم هنائى .
كان لابد لى من عاطفة محتدمة تحتل محل طموحى الخابى ، فتملأ فؤادى . وقصارى القول اننى كنت بحاجة الى خليفة لماما ..
ولما كنت مضطرا الى أن لا اعاود العيش معها قط ، فقد بات من المحتوم ان أبحث عمن تعيش مع تلميذها ، وعمن اجد لديها من البساطة ورقة القلب ما كانت تجده لدى . وكان لا بد لى من نعيم الحياة الخاصة وألفة المعاشرة ، لتعوضنى عن المهنة اللامعة التى كنت قد نبذتها . كنت اذا ماخلوت بنفسى وحيدا ، اشعر بقلبى خاويا ، لايمكن ان يملأه سوى مخلوق آخر ..
وكان القدر قد حرمنى من تلك التى خلقتنى الطبيعة من اجلها ، أو أقصانى عنها على الاقل . ومن ذلك الحين ظللت وحيدا ، اذ اننى لم اعرف فى حياتى قط وسطا بين كل شىء أو لاشىء (١).
ولقد وجدت فى تيريز العوض الذى كنت بحاجة اليه ، فعشت بفضلها سعيدا بقدر ما سمحت تطورات الاحداث !

ورغبت ـ فى البداية ـ فى أن أشكل ذهنها ، فبددت فى ذلك جهودى ، اذ ظل ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة والتعليم تأثير عليه . ولست أخجل اطلاقا من ان اعترف بأنها لم تتعلم البتة كيف تجيد القراءة ، وان لم يكن ثمة بأس بكتابتها .
وعندما انتقلت للسكنى فى شارع (نيف ديه بيتى شاب) ، كانت هناك ـ امام نوافذى فى فندق بونشارتران ـ ساعة اضطررت الى أن أقضى أكثر من شهر فى تدريب تيريز على تعرف الوقت عليها . ومع ذلك فانها لاتكاد ـ حتى الآن ـ

---

(١) يريد ان يقول انه اعتاد ان ينال كل شىء ، أو ان لا ينال شيئا على الاطلاق !

تحذق ذلك. ولم تستطع يوما أن تذكر أشهر السنة الاثنى عشر بترتيبها الطبيعى ، كما انها لم تعرف رقما واحـدا ، رغم كل العناء الذى تجشمته كى أعلمها الارقام . فهى لا تستطيع ان تعد النقود ، أو أن تحسب ثمن اى شىء . . اما الكلمات التى تستخدمها فى الـكلام ، فكثيرا ما تكون نقـائض ماتريد قوله بالذات ! . . ولقد أعـددت مرة قاموسا لتلك العبـارات ، كى أسرى عن مدام «لوكسمبورج» ، فاذا اخطاؤها تذيع فى المجتمع الذى كنت أعيش فيه . **بيد ان هذه الفتاة كانت مستشـارا رائعا فى المناسبات العصيبة ، برغم ضيق عقلها الى هذا الحد ، أو برغم غبائها ان شئتم !..** وكثيرا ما كانت ترى فى المحن التى كنت اجدنى فيها ـ فى سويسرا او انجلترا او فرنسـا ـ مالم اكن اراه انا نفسى ، فكانت تمحضنى من النصح خير ما ينبغى أن أتبع ، وكانت تنتزعنى من اخطار كنت اندفع اليها كالأعمى .. وفى حضور ارقى السيدات ، وفى محضر العظماء والأمراء ، كانت مشاعرها وآراؤها الجيدة واجاباتها ومسلكها تنتزع لها التقدير العام ،وتجتلب من التهانىء ـ لطيف خصالها ـ ماكنت اشعر بصدقها !

والعاطفة ـ فى قرب المحبوب ـ تغذى العقل كما تغذى الفؤاد، فلا يعود ثمة داع للبحث عن الأفكار فى أى مكان آخر ! ..ولقد عشت مع تيريز فى خير ما كنت خليقا بأن أعيش فيه مع اجمل عبقرية فى الكون . ولقد حاولت أمها ـ التى كانت تفخر بأنها تربت فى المـاضى مع المركيزة دى مونبيبو ـ ان تدعى رجاحة العقل ، ورغبت فى ان تتكفل بتوجيه عقل ابنتها ، فأفسدت بحيلها بساطة تعاشرنا . **ودفعنى الغيظ من هذه المضايقة الى أن أتغلب ـ بعض الشىء ـ على الحيـاء الأحمق الذى لم أكن أجرؤ معه على الظهور مع تيريز امام الملأ ، فاصبحنا نقوم معا بنزهات قصيرة فى الريف ، حيث كنا نتناول وجبات بسيطة**

كانت تلذ لى . ولقد تبينت انها كانت صادقة فى حبها اياى ، فضاعف هذا من حنانى . ولقد عوضتنى هذه الألفة الناعمة عن كل شىء ، ولم يعد المستقبل يشغلنى ، أو بالاحرى انه اصبح لايشغلنى الا كامداد للحاضر ، اذ اننى لم أعد اشتهى سوى ان اطمئن الى بقاء هذا الحاضر !

وأدت هذه العلاقة الى ان أصبحت كل الملاهى الأخرى نفايات عقيمة ، فلم أعد أغادر مسكنى الا لأذهب الى تيريز ، وبات مسكنها مقرى تقريبا . ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملى ، حتى ان « الأوبرا » التى كنت عاكفا على تأليفها ، اكتملت ـ كلاما وموسيقى ـ فى اقل من ثلاثة أشهر . ولم تبق سوى بعض الحان تكميلية وبعض الحان لتصحب المناظر . وقد ضايقنى هذا كثيرا ، فعرضت على « فيليدور » ان يتولاه فى مقابل نصيب من الربح ، فجاء مرتين ، واضاف بعض الحشو الى الفصل الخاص بالشاعر « اوفيد » ، ولكنهلم يستطع أن ينصرف الى هذا العمل ـ الذى كان يتطلب مثابرة ـ فى مقابل ربح بعيد وغير مضمون . ومن ثم فانه لم يعد ، واكملت عملى بنفسى

واذ اكتملت « أوبراى » ، آن لى أن أحصل من ورائها بعض الدخل ، وكان هذا ـ فى حد ذاته ـ « اوبرا » أخرى ، أشد عناء ! . . فليس من سبيل الى بلوغ غاية فى باريس ، اذا كان المرء يعيش فى عزلة . ولقد فكرت فى أن أستعين بالسيد ديلابوبلينير ، الذى قدمنى اليه جوفكور فى داره ، عند عودتى من جنيف . وكان السيد ديلابوبلينير هو نصير(١) رامو ، اذ كانت السيدة ديلا بوبلينير تلميذة هذا المتواضعة ، المتفانية

---

(١) النصير المقصود هنا ، هو الرجل ذو الجاه والمال ، الذى يرعى اديبا او فنانا ويبذل له يد العون

فى الطاعة ، ومن ثم فقد كان « رامو » هو المطر والصحو(١) فى هذا المنزل ، كما ينبغى ان يقال ! .. ولقد ظننت انه قد يغتبط بأن يساند عملا من ابتكار أحد تلاميذه ، فرغبت فى ان اريه مؤلفى ، ولكنه أبى ان يراه ، قائلا انه لم يكن يستطيع ان يقرأ مقطوعات ، اذ ان هذا كان يتعبه كل التعب . وعقب لابوبلينير على ذلك بأن فى الوسع حمله على الاصغاء ، وعرض ان يجمع موسيقيين لأداء بعض القطع ، ولم اكن ارجو افضل من هذا .. **ووافق « رامو » وهو يزمجر ، ودون ان يكف عن ان يردد ان الالحان التى يضعها رجل لم ينشأ فى جو موسيقى ، وانما تعلم الموسيقى بنفسه دون ما عون ، لابد وان تكون شيئا بديعا ! ..** واسرعت أنسخ ادوار خمس أو ست من احسن المقطوعات ، وتهيأ لى اثنا عشر من العازفين ، بينما تولى الغناء البرت ، وبيرا ، والآنسة بوردونيه . وما ان بدأ لحن الافتتاح ، حتى رمى « رامو » ـ باطنابه فى المديح ـ الى الايحاء بأن اللحن ما كان ليمكن ان يكون من تأليفى : ولم يدع مقطوعة تمر دون ان يبدى امارات البرم ونفاد الصبر . ولكنه لم يلبث ان عجز عن تمالك نفسه عند سماع اغنية بصوت « كونترتينور » ـ كان اداؤها قويا محكما ، والموسيقى المصاحبة لها رائعة ـ فخاطبنى فى خشونة ذهل لها الجميع مستنكرين ، وأعلن ان جزءا مما سمع كان من عمل رجل أفنى فى الفن عمره ، فى حين ان الباقى من عمل جاهل لم يكن على المام بالموسيقى ذاتها !.. **ومن الصحيح ان مؤلفى كان غير متناسق وعلى غير قاعدة ، ومن ثم فقد كان رفيع القيمة فى بعض أجزائه ، وعقيما فى بعض آخر ، شأن**

---

(١) تعبير فرنسى معناه ان يكون الشخص ذا حظوة ومكانة ، بحيث يغضب اهل البيت لغضبه ويسرون لسروره . ويقابله فى التعبير الدارج عندنا ما يقال من ان شخصا هو « الكل فى الكل »

العمل الذى يقوم به كل امرىء لايرقى بنفسه الا بمعونة بعض ومضات من العبقرية ، دون ما سند من العلم . وزعم « رامو » انه لم يكن يرى فى شخصى سوى سارق صغير ، لم يؤت اية موهبة ولا اى زوق ! .. ولكن العازفين ، ورب الدار ــ بوجه خاص ــ لم يشاركوه رأيه . ولقد سمع السيد دى «رشيليو» ــ الذى كان يكثر اذ ذاك من زيارة رب الدار ، والسيدة دى بوبلينير ، كما هــو معروف ــ بحديث مؤلفى ، فرغب فى ان يسمع « الاوبرا » بأكملها ، معتزما ان يعمل على عرضهافى البلاط اذا راقت له. ومن ثم مثلت « الاوبرا » ــ بكامل ما كانت تتطلب من مغنيين وموسيقيين ــ على نفقة الملك ، فى دار السيدبونيفال، الموكل بالحفلات الملكية . وقام « فرانكير » بالاخراج .. ولقد كانت النتيجة مدهشة ، حتى ان السيد الدوق دى «ريشيليو» لم يكف عن الصياح والتصفيق . وفى نهاية أغنية جماعية ــ فى الفصل الخاص بتاس ــ نهض وجاءنى فصافحنى قائلا : « هذا هو اللحن الذى يشجى ، يا سيد روسو ! .. ما سمعت قط أجمل منه ، وانى لأود أن أقدم هذه التحفة فى فرساى ! » . ولم تنبس السيدة دى بوبلينير ــ التى كانت حاضرة ــ بكلمة واحدة . أما « رامو » ، فبالرغم من انه دعى ، الا انه لم يشأ ان يحضر .

وفى اليوم التالى ، استقبلتنى مدام بوبلينير ــ فى غرفة زينتها ــ استقبالا شديد الجفوة ، وتعمدت ان تحط امامى من شأن مؤلفى ، وقالت لى انه بالرغم من ان بعض الوميض الزائف قد بهر السيد دى « ريشيليو » ، الا انه قد ثاب الى نفسه ، ونصحتنى بأن لا اعول كثيرا على أوبراى ! .. وأقبل السيد الدوق بعد قليل ، فتحدث الى بلهجة تخالف ذلك تماما ، اذ أطرى مواهبى ، وبدا مصرا على ان يعمل على عرض مؤلفى على

مشـهد من الملك . وقال : ((ليس هنـاك ما لايمكن اجازته فى البلاط ، سوى الفصل الخاص بتاس ، فعليك ان تكتب فصلا غـيره !)) . وكانت هذه العبارة وحدها حافزا دفعنى الى ان أذهب الى دارى ، فأحتبس نفسى . وفى غضون ثلاثة أسابيع ، استطعت ان اضع فصـلا يحل محل فصل ((تاس)) ، وكان موضوعه ((هيسيود(١) يتلقى الالهام من احدى عرائس خياله)) . واهتديت الى طريقة خفية مكنتنى من أن أدس فى هذا الفصل قسطا من تاريخ مواهبى وقصة الغيرة التى راق لرامو ان يكرم بها هذه المواهب . ولقد كان فى هذا الفصل الجديد سمو اقل جبروتا وأكثر تمسكا واحـكاما مما كان فى الفصل الذى كان يدور حول ((تاس)) . وكذلك كانت الموسـيقى اروع وارقى ، ولو ان الفصلين الآخرين كانا معادلين لهـذا ، لقدر للأوبرا ان تعرض بنجاح . بيد أن مشروعا آخر عرض لى – فيما كنت أقوم بصقل الفصل وتنقيحه – فأرجأت اداء هذه المسرحية !

من سنة ١٧٤٥ الى سنة ١٧٤٧

• **أقيمت** فى (فرساى) – فى الشتاء الذى اعقب معركةدى فونتينو – حفلات كثيرة ، كان بينها عدة أوبرات عرضت فى مسرح ال ((بيتيت ايكورى)) . وكان بين هذه مسرحية فولتير ، التى كانت تحمل اسم ((اميرة نافار)) ، والتى نظم رامو موسيقاها . وقـد عدلت وبدل اسمها الى ((اعياد رامير)) . وقـد تطلب تغيير الموضوع عدة تحويرات فى الاغانى والرقصات التى كانت فى ((الدراما)) السابقة ، سواء من حيث التركيب الشعرى أو

---

(١) هيسيود : كان شاعرا اغريقيا تناول الحياة بالبحث والتحليل ، محاولا ان يضع دستورا اخلاقيا يكفل المحبة والسلام . وقد قدم « كتابى » – فى العدد ٥٥ – سيرته وملخصا لأعظم رسالاته : « الأيام والأعمال »

التركيب الموسيقى . واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدى هذه الغاية المزدوجة، اذ ان فولتير كان ـ اذ ذاك ـ فى (اللورين)، وكذلك كان راموا. وكانا منهمكين معا فى اوبرا «معبد المجد» (١)، فلم يكن فى وسعهما ان يعنيا بالتحويرات المنشودة . ومن ثم فان السيد دى ريشيليو تذكرنى ، وعرض على ان اقوم بالمهمة .. **ولكى أحسن تبين ما ينبغى عمله ، ارسل الى كلا من الشعر والموسيقى على حدة . ولم أشـأ ـ قبل كل شىء ـ أن أمس ألفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف**، فكتبت اليه فى هذا الصدد، رسالة **جد أمينة ومحترمة ـ فى الوقت ذاته ـ وفقا لما كان** يتطلبه الظرف . وها هو ذا رده ، الذى يوجد الأصل الخطى له ، فى ملف الأوراق « ١ » ، رقم (١) :

« ١٥ ديسمبر سنة ١٧٤٥

« انك لتجمع يا سيدى بين موهبتين كانتا ـ حتى اليوم ـ منفصلتين دائما . وهما سببان كافيان لحملى على ان اقدرك وان اسعى الى ان احبك. وانني لفى هم من اجلك ،اذ تستخدم هاتين الموهبتين فى عمل غير جدير بهما كل الجدارة . فمنذ بضعة اشهر ، طلب الى السيد الدوق دى ريشيليو ـ طلبا جازما ـ ان اعد ، فى لمح البصر، مسودة صغيرة غير دقيقة، لبضعة مناظر تافهة وناقصة ، تتمشى مع اغان ورقصات لا تلائمها اطلاقا . وقد صدعت برغبته بحذافيرها ، ورحت اعمل فى سرعة فائقة ، ودون ما إجادة . ثم أرسلت هذه المسودة التعسة الى السيد الدوق دى ريشيليو ، وانا موقن من انه لن يستخدمها ، ومن انني لن أضطر الى تصحيحها . ولحسن الحظ انها بين يديك، فلك ان تفعل بها كل ما تشاء ، اذ انني قد أقصيتها تماما عن ذهنى . ولست ارتاب فى انك ستنقح كل الأخطاء التى لابد من ان تكون قد افلتت منى فى تعجل تأليف التصميم البسيط ،

(١) Temple de Gloire

وانك قد ملأت كل نقص !

« وانى لأذكر ان من السهوات التى تنم عن طيش ، اننى نسيت ان اوضح فى هذه المناظر ـ التى تربط بين الأغانى والرقصات ـ كيف تنتقل الأميرة فجأة من سجن الى حديقة أو قصر . واذ لم يكن الشخص الذى اقام الحفلات لتكريمها ساحرا ، وانما كان سيدا اسبانيا ، لذلك يبدو لى انه لا ينبغى ان ندع للسحر مجالا . فأرجو ان تتكرم يا سيدى باعادة النظر فى هذا الجزء الذى لا أحتفظ له بأكثر من فكرة مهتزة . **وانظر ما اذا كان من الضرورى ان تفتح ابواب السجن، وان تنقل اميرتنا من هذا السجن الى قصر جميل مذهب ومصقول ، يعد من اجلها .. اننى لا اعرف تمام المعرفة ان الأمر كله زرى للغاية ، وانه ليس مما يليق باى كائن مفكر ان يحمل هذه التفاهات على محمل الجد** ، ولكن .. بما ان علينا أن لا نسبب من الاشياء الا اقل ما يستطاع ، فمن الواجب ان نبذل من العقل قدر المستطاع ولو كان ذلك فى اوبرا غنائية راقصة رديئة

« اننى ادع لك وللسيد بالو كل شىء ، واعتقد اننى لن البث ان اتشرف بأن أقدم لك آيات شكرى، عما قريب ، وبأن اؤكد لك يا سيدى ، الى اى مدى يشرفنى ان اكون .. الخ . »

ولا يعجبن المرء لما فى هذا الخطاب من أدب جم ـ اذا قيس بخطابات فولتير نصف المهذبة التى كتبها لى بعد ذلك الحين ـ فقد كان يظننى ذا حظوة كبيرة لدى السيد دى ريشيليو ، فحمله الرياء المرن على ان يبدى كثيرا من الاعتبار للوافد الجديد على البلاط ، ريثما يزداد معرفة بمدى مكانته !

***

• **واذ حصلت** من السيد دى فولتير هذا السلطان ، واعفيت من كل اعتبار لرامو ـ الذى لم يكن له من هدف سوى الاساءة

الى ـ فاننى عكفت على العمل ـ ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتى قد انجزت . ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة ، اذ كان همي الأوحد هو ان اتفادى أن يكون تباين الأسلوب ملحوظا، ومن حقى ان اعتقد اننى قد وفقت . اما مهمتى ـ فى الناحية الموسيقية ـ فقد تطلبت مزيدا من الوقت والجهد ، فضلا عن انني اضطررت الى ان اؤلف عدة قطع للمقدمات ، منها اللحن الافتتاحى،وكل الحان الالقاء الغنائى(١) التى تكلفت بها فوجدتها بالغة الصعوبة ، اذ كنت مضطرا الى ان اربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات ، بقليل من السطور ـ فى كثير من الأحيان ـ وبوساطة انغام سريعة جدا. ذلك لأننى عقدت عزمى على ان لا اغير او اعـدل لحنا واحـدا ، حتى لا يتهمنى رامو بافساد الحانه الأصلية . ولقد وفقت فى هذا الالقاء الغنائى . فكانت النبرات واضحة ، مليئة بالقوة، رائعة فى تناسق نغماتها، بوجه خاص . **ولقـد ادى التفـكير فى هذين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معهما ـ على هذا النحو ـ الى رفع روحى المعنوية ، وبوسعى أن اقول اننى فى هذا العمل الذى لم يكن لى من ورائه حمد ولا مجد ، والذى لم يكن مقدورا للرأى العـام ذاته ان يعلم بفضـلى فيه ـ حافظت دائما على مثلى ومسـتواى !**

ولقد اجريت التجارب على المسرحية ـ بالشكل الذى نقحتها اليه ـ فى مسرح « الأوبرا » الكبير . ووجدتنى الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة . فقد كان فولتير متغيبا ، فى حين ان رامو لم يحضر ، او لعله تعمد ان يتوارى . وكانت كلمات المناجاة(٢) الأولى مفعمة بالأسى وهذا مطلعها :

---

(١) العبارات التى تلقى بالغناء ، دون ان تكون شعرا موزونا

(٢) المونولوج : وهو الحديث الفردى الذى يلقيه المرء لنفسه

« الا ايها الموت تعال ، فاختم تعاسات حياتى ! »

وكنت مضطرا الى ان اضع موسيقى تتمشى معها ، ومع ذلك فان هذه الفاتحة هى التى خصتها السيدة ديلابوبلينيير بنقدها، اذ اتهمتنى - فى تحامل - بأننى وضعت لحنا جنائزيا . وبدأ السيد دى ريشيليو بأن يسأل - فى انصاف - عمن كتب كلمات المناجاة ، فأطلعته على المخطوط الذى كان قد ارسله الي، والذى اثبت انها من وضع فولتير . فقال : « ان المخطىء - فى هذه الحال - هو فولتير وحده » . وظل كل ما فعلت معرضا - خلال التجربة - لاستهجان السيدة ديلابوبلينيير ، ولانصاف السيد دى ريشيليو . على اننى مالبثت ان تبينت ان التحامل كان شديد الوطأة ، فقد اشير على بتنقيح عدة أشياء فى مؤلفى ، كان لابد من استشارة السيد رامو بشأنها . **واكربنى ان تكون هذه هى النتيجة ، بدلا من الاطراء الذى كنت ارتقبه ، والذى كنت جديرا به يقينا . فعدت الى بيتى بقلب مثقل .. وسقطت مريضا ، وقد هدنى الاعياء ، وراح الاسى ينهشنى .. وظللت ستة اسابيع لا اقوى على الخروج !**

وأرسل رامو - الذى وكلت اليه التعديلات التى اشارت اليها السيدة ديلابوبلينيير - يطلب الى افتتاحية «اوبراى »الكبرى، ليضعها فى مكان تلك التى وضعتها . وفطنت - لحسن الحظ - الى الحيلة، فرفضت . ولم يكن قد بقي على موعد تقديم المسرحية الاخرى اكثر من خمسة ايام او ستة ، فلم يكن لديه وقت لتاليف افتتاحية ، واضطر الى ان يترك تلك التى كنت قد وضعتها من قبل .. وكانت على النسق الايطالى ، ومن نوع كان جديدا تمام الجدة على فرنسا ، فى ذلك الوقت . ومع ذلك فانه لقى استساغة ، وسمعت من السيد دى « فالماليت » - رئيس ديوان الملك ، وزوج ابنة السيد موسار ، وكان قريبا وصديقا لى - ان هواة الفن ابدوا كل الرضى عن مؤلفى ، وان الرأى العام لم

يستطع ان يفرق بينه وبين انتاج رامو . **غير ان هذا اتخذ من الاجراءات ـ بالتواطؤ مع السيدة ديلابوبلينيير ـ ما يحول دون معرفتة انني قد ساهمت في تلك القطعة** . فعلى الكتب(١) التى توزع على النظارة ، والتى تثبت فيها دائما اسماء المؤلفين ، لم يذكر سوى اسم فولتير . وآثر رامو اغفال اسمه على ان يرى اسمى مقترنا به !

وما ان تمكنت من مغادرة دارى ، حتى رغبت فى زيارة السيد دى ريشيليو . ولكن الفرصة كانت قد فاتتنى ، اذ انه كان قد رحل الى (دنكرك) ، حيث كان عليـه ان يشرف على رحيل الحملة التى كانت موجهة الى ايقوسيا (اسكتلندا) . ولما عاد، قلت لنفسى ـ لأبرر كسلى ـ ان المناسبة قد انقضت . وبما اننى لم اعد اراه منذ ذلك الحين ، فقد اضعت على نفسى التكريم الذى كان مؤلفى يستحقه .. التكريم الذى كان جديرا بأن يدره على . ومن ثم فان وقتى ، وعملى ، وحزنى ، ومرضى والنقود التى كلفنيها .. كل هذا تكبدته دون ان يعود على بـ « سو » واحد ، بل ودون اى تعويض . ومع ذلك فقد اعتدت دائما أن أرى ان السيد دى ريشيليو كان ميالا بطبعه نحوى ، وكان يحسن الظن بمواهبى ، ولكن نحسى والسيدة ديلا بوبلينيير حالا دون كل نتيجة لحسن طويته !

وما استطعت قط ان افهم سر كراهية هذه المراة التى كنت أغصب نفسى على ارضائها ، والتى اعتدت ان اثابر على ان ابدى لها

(١) يقصد الكتاب الذى يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية . ومما يذكر ان هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار ، ولا مؤلف الموسـيقى . وانما اورد فقط اسم « لافال » مؤلف « الباليه » . وقد عرضت التمثيلية فى (فرساى) فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٤٥ ، اى بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذى كتب فيه « فولتير » رسالته . وقد ذكر « روسو » ـ فى الفقرة السابقة ـ ان « رامو » طلب افتتاحية « عرائس احلام الشعراء » قبل هذا العرض بخمسة ايام ، فكانه انجز التعديلات فى حوالى يومين !

مدام ديبيناى ـ للرسام ليوتار
(بمتحف فرساى)

مجاملتى . ولقد شرح لى ((جوفكور)) الاسباب ، **فقال :** **((هناك ـ اولا ـ صداقتها لرامو ، الذى كان يحظى علنا برعايتها، والذى لم يكن يحتمل اية منافسة .. وفوق ذلك ، كان ثمة ذنب جوهرى يصمك فى نظرها ، ولن تغتفره لك ابدا .. ذلك هو انك جنيفى !))** .. وهنا بين لى ان الراهب «هوبير» ـ الذى وفد هو الآخر من (جنيف)، والذى كان صديقا صدوقا للسيد ديلابوبلينير ـ كان قد بذل قصارى وسعه ليصده عن الزواج من هذه المراة التى كان يعرفها تمام المعرفة ، والتى حرصت

ـ بعد الزواج ـ على ان تولى كل جنيفى كراهية لا سبيل الى مغالبتها . واردف جوفكور قائلا : « ومع ان لابوبلينيير يكن لك ودا ـ انا موقن منه ـ الا انه ليس لك ان تعتمد على مؤازرته، فهو مدله فى هوى زوجته ، وهى تكرهك .. وانها لخبيثة ، ماكرة .. ولن يكون لك شأن فى هذا المنزل » . وادركت ما كان يرمى اليه !

***

• **ولقد** ادى لى جوفكور هذا خدمة اخرى ـ حوالى ذلك الوقت ـ كنت فى حاجة ماسة اليها . فلقد فقدت ابى الفاضل ، وقد ناهز الستين من عمره . ولم اشعر بقسوة هذا المصاب كما كنت خليقا بأن احس بها فى الماضى ، عندما لم تكن الضائقات تشغل بالى بمثل ما كانت تشغله فى هذه الاونة . اذ اننى لم احاول قط ـ خلال حياته ـ ان اطالب ببقية تركة امى التى كان يحصل دخلها البسيط . اما بعد موته ،فلم يداخلنى تردد بهذا الشأن ، ولكن عدم توفر دليل قضائى على وفاة اخى كان عقبة أخذ جوفكور على عاتقه عبء ازاحتها ، وقد ازاحها فعلا بفضل مساعى المحامى « دى لولم » . ولما كنت فى حاجة ملحة الى هذا المورد الضئيل ، وكانت المسألة محوطة بالريب ، فقد رحت انتظر نبأ حاسما فى صبر نافد وتلهف . **وفى ذات مساء ، وجدت ـ اذ ابت الى مسكنى ـ الرسالة التى كان منتظرا ان تشتمل على هذا النبأ ، فتناولتها لأفضها ، وانا ارتجف فى لهفة خجلت منها فى سريرتى ، وقلت لنفسى فى ازدراء: « وبعد ؟ ! .. اينساق جان جاك لسلطان المصلحة الخاصة والفضول الى هذه الدرجة ؟ »** .. ووضعت لفورى الرسالة على رف المدفأة ، ثم خلعت ثيابى ، واويت الى فراشى فى هدوء، فحظيت بنوم يفوق ما اعتدت .. ثم صحوت فى اليوم التالى متأخرا ، دون أن أعود الى التفكير فى الرسالة . وفيما كنت

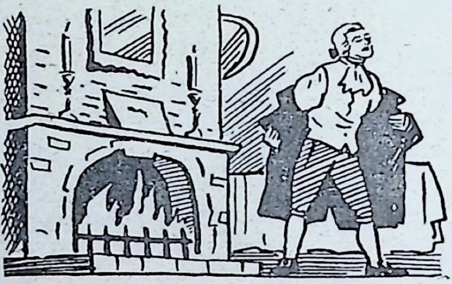

ارتدى ثيابى ، لمحتها ففضضتها فى غير تعجل ، ووجدت فيها حوالة مالية . وساورتنى كثير من الأفكار السارة ــ فى آن واحد ــ ولكن بوسعى أن أقسم ان أقواها جميعا كانت تلك التى نبهتنى الى انتصارى على نفسى . وأستطيع أن اذكر عشرين من امثال هذه المناسبة فى حياتى ، ولكني لا اجد وقتا لكى اروى كل شىء . ولقد ارسلت قسطا بسيطا من هذه النقود الى «ماما» وانا ابكى حسرة على الاوقات السعيدة ، التى كنت فيها على استعداد لأن القى بكل شىء عند قدميها ! .. كانت كل رسائلها توحى بضيقها . ولقد ارسلت لى اكواما من الوصفات والاسرار التى كانت تزعم ان بوسعى ان اجمع بها ثروة لى ولها . ولقد كان مجرد التفكير فى فاقتها يعصر قلبى ويضيق أفق عقلى . وكان القليل ــ الذى اعتدت ان ارسله اليها ــ يقع فى ايدى الانذال الذين كانوا يحيطون بها ، دون ان تنتفع بشىء منه . فجعلنى هذا اكره ان اشرك هؤلاء التعساء فيما كانت تمس اليه حاجتى ، لا سيما بعد المحاولات غير المجدية التى بذلتها لانتزاع «ماما» من قبضاتهم ، مما سيرد ذكره فيما بعد .

وانساب الوقت ، وانسابت النقود معه . وكنا اثنين ، بل اربعة .. بل اننا كنا سبعة او ثمانية ، كما يحسن ان يقال . ذلك لأنه بالرغم من ان « تيريز » كانت زاهدة فى اية مصلحة

شخصية ، الى درجة لا يكاد يكون لها مثيل ، الا أن أمها لم تكن على شاكلتها . **فما أن رأت احوالها تتحسن قليلا - بفضل رعايتي - حتى استدعت كل اسرتها لتشاطرها الغنيمة . فاذا بالاخوات ، والابناء ، والبنات ، والأحفاد يفدون جميعا ، ما عدا ابنتها الكبرى ، التى كانت متزوجة من مدير عربات النقل فى (انجير) ..واصبح كل ما افعله من اجل تيريز ، يتحول بفضل امها الى هؤلاء النهمين .** ولما لم اكن جشعا ، ولا كنت مستذلا لشهوة مستعرة ، فانني لم ارتكب أية حماقات . بل انني فى اغتباطي بأن اعول تيريز - فى حياة لا بأس بها ، خالية من الترف، ولكنها فى وقاء من الحاجة - أقررتها على أن تسلم أمها كل ما كان بوسعها أن تكسبه من عملها . ولم أكن اقتصر على ذلك .. ولكنني استسلمت للقدر الذى كان يتعقبني .. **ففى الوقت الذى كانت فيه ((ماما)) ضحية لانذالهـا ، كانت تيريز ضحية لأسرتها ، ولم يكن بوسعي ان أقدم أي عون يعود بالنفع على تلك التى كنت اقصد نفعها فى الحالين .** ولقد كان من العجيب أن صغرى بنات السيدة لوفاسير - وهى الوحيدة التى لم تحظ بصداق من أهلها - هى الوحيدة التى راحت تعول أباها وأمها .. وان هذه المسكينة - بعد أن ظلت طويلا تتلقى الصفعات من اخوتها واخواتها ، بل ومن أبناء هؤلاء - أصبحت فريسة لنهبهم ، دون ان تملك لسرقاتهم دفعا يفوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل . ولم يكن بين ابناء اخوتها سوى واحدة فقط ، تدعى ((جوتون ليدوك)) ، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع ، رغم ماكان يفسدها من قدوة الآخرين ودروسهم . ولما كنت كثيرا ما اراهم مجتمعين ، فقد اصبحت اطلق عليهم ما يطلقه بعضهم على بعض من ألقاب ، فأنا انادى ابنة الأخ بيا ابنة اخى ، والعمة بيا عمتى . وأصبح الفريقان ينادياننى بياعمى .. ومن هنا نشأ اسم ((العمة)) الذى أنادى به تيريز

باستمرار ، والذى يردده أصدقائى فى بعض الأحيان ، على سبيل المداعبة !

***

• **ومن المعقول** اننى لم أضيع لحظة واحدة ــ فى مثل هذا الموقف ــ دون ان احاول ان انتزع نفسى منه . واذ حدست ان السيد دى ريشيليو قد نسينى ، ولم أعد آمل فى شىء من ناحية البلاط ، بذلت بضع محاولات لقبول تقديم اوبراى فى باريس . ولكننى صادفت عقبات كان تذليلها يتطلب وقتا ،فى حين أن حاجتى كانت تزداد شدة يوما بعد يوم . ولقد اشير على بأن أقدم تمثيليتى الهزلية الصغيرة « نارسيس » على مسرح الايطاليين « اوزيتاليان » . فقبلت التمثيلية ، وظفرت بالتردد على المسرح دون مقابل ، مما سرنى كثيرا . **ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر اذ أننى لم أوفق قط الى أن أحملهم على اخراج المسرحية .حتى اذا ضقت بمداهنة الممثلين الفكاهيين، انصرفت عنهم . ولجأت فى النهاية الى الحيلة الأخيرة التى بقيت لى ،والتى كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تتبع.** ففيما كنت أتردد على دار السيد ديلابوبلينيير ، ظللت بعيدا عن دار السيد دوبان . ومع أن ربتى الدارين كانتا على بعض صلات القربى ، الا انهما لم تكونا على وئام ، ولم تتزاورا قط. بل لم تكن بين الدارين اية صلة ، وانما كان « ثييريو » هو الوحيد الذى اعتاد ان يتردد على هذه وتلك . وقد وكل اليه أمر السعى الى حملى على العودة الى دار السيد دوبان .

وكان السيد فرانكويى ماضيا ــ فى تلك الاثناء ــ فى دراسة التاريخ الطبيعى والكيمياء ، وقد أعد لنفسه غرفة للدراسة . واظنه كان يطمع فى عضوية محفل العلوم ، وكان يرغب ــ فى سبيل ذلك ــ فى ان يضع كتابا ، وقد خطر له اننى أستطيع ان اكون ذا نفع فى هذا الصدد . وكان للسيدة دوبان ــ من

ناحيتها ـ راى مشابه فى شخصى ، كما انها كانت تفكر فى ان تؤلف كتابا . ومن ثم فقد ودا ان يستأجرانى لأكون أشبه بسكرتير يتقاسمانه . وكان هذا هو الهدف من مساعى ثيريو. وطلبت ـ كعربون ـ ان يستخدم السيد دى فرانكويى نفوذه ونفوذ « جيليو » من أجل تجربة اخراج تمثيليتى فى الاوبرا ، فوافق . واجريت عدة تجارب لاخراج «عرائس الشعر اللطاف» فى «المخزن» (١) فى بادىء الامر ، ثم انتقلت التجارب الى المسرح الكبير . وحضر التجربة الكبرى كثير من الناس ، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد . على اننى شعرت اثناء الأداء الموسيقى ـ الذى أساء « ريبيل » الاشراف عليه ـ بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولا ، بل انها لن تكون معدة للعرض دون تعديلات كبيرة . وعلى هذا فاننى سحبتها دون ما ايضاح ، ودون ان أعرض نفسى لسماع رفضها . ولكننى رايت بجلاء ، ومن عدة بوادر ، ان التمثيلية ما كانت ستجاز ، ولو كانت فى أكمل حال . ذلك لأن السيد دى فرانكويى كان قد وعد حقا بأن يهيىء السبيل لتجربتها ، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها . وقد بر بوعده تماما . ولقد كان يخيل الى دائما ـ فى هذه المناسبة وفى كثير غيرها ـ بأنه ومدام دوبان لم يكونا حريصين على ان يدعانى اكتسب شهرة محققة فى المجتمع . ولعل ذلك كان راجعا الى خوفهما من ان يظن ـ عندما تظهر مؤلفاتهما ـ انهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهبى . ومع ذلك ، فان السيدة دوبان كانت دائما مقتصدة فى رأيها عن كفاءتى ، ومن ثم فانها لم تستخدمنى قط الا لأكتب ما كانت تمليه على ، او لأقوم لها بأبحاث علمية بحتة ، ومن ثم فان هذا الظن ـ فيما يتعلق بها ـ قد يكون جائرا !

---

(١) القسم الذى كانت تحفظ فيه المناظر المسرحية وثياب التمثيل

من سنة ١٧٤٧ الى سنة ١٧٤٩

• **ادى** هذا الفشل الاخير الى تثبيط عزيمتى تماما ، فهجرت كل امل فى الرقى والمجد ، ولم اعد افكر فى مواهبى الحقيقية او الموهومة ، التى لم تعد على بطائل ، بل كرست وقتى وجهدى لكسب قوتى وقوت تيريزى ، بالشكل الذى راق لذانك اللذين تكفلا بتمكينى من ذلك . ومن ثم فاننى تفرغت تماما للسيدة دوبان والسيد دى فرانكويى . ولم يدفعنى هذا الى سعة من العيش موفورة .. فان المرتب الذى تقاضيته فى العامين الأولين ـ وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويا ـ كان لا يكاد يوفر لىَ حاجاتى الأولية . اذ اننى كنت مضطرا الى الاقامة على مقربة منهما ، فى حجرة مؤثثة ، بحى من الأحياء التى تتطلب نفقات كثيرة ، كما كنت أدفع ايجار مسكن آخر ، فى الطرف الأقصى لباريس ، عند نهاية شارع (سان جاك) ، حيث كنت أذهب لتناول العشاء فى كل مساء تقريبا ، مهما تكن حال الطقس . وسرعان ما ألفت عملى الجديد ، بل اننى بدأت اميل اليه **فاهتممت بالكيمياء ، وتلقيت دروسا عدة مع السيد دى فرانكويى ، لدى السيد رويل . ورحنا نسود اكداسا من الورق بما كنا نكتبه فى هذا العلم ، سواء عن صواب او عن خطأ ، رغم اننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية !** . ولقد ذهبنا ـ فى سنة ١٧٤٧ ـ لقضاء الخريف فى (تورين) . فى « شاتو دى شينونسو » ، القصر الملكى القائم على نهر الشير ، والذى شيده هنرى الثانى من أجل ديانا دى بواتيير .. التى لا تزال الحروف الأولى من اسمها ترى منقوشة هناك . وكان هذا القصر قد آل الى السيد دوبان ، بوصفه المشرف العام على الاراضى الزراعية للملك . **ولقد استمتعنا كثيرا بالاقامة فى هذا المكان البديع ، وازددنا سمنة ، حتى اننى أصبحت بدينا كالرهبان !** .. ونعمنا بقدر

كبير من الموسيقى ، كما اننى الفت عدة ثلاثيات غنائية (١) ، زاخرة بالقوة وبالتناسق النغمى ، وسوف اتحدث عنها فى « الملحق » اذا قدر لى ان اكتبه . كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض المسرحيات الفكهة ، واستطعت – فى خمسة عشر يوما – ان اؤلف واحدة ،من ثلاثة فصول، اسميتها «الخطبة المتهورة» (٢)، وهى موجودة بين أوراقى ، ولا تمتاز بغير مرحها المفرط . ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة اخرى ، منها قصيدة بعنوان « درب سيلفيا » (٣) ، عن درب فى المتنزه الذى كان يمتد على ضفاف نهر (الشير) . على أن هذا لم يصرفنى عن دراساتى الكيمياوية ، ولا عن العمل الذى كنت أؤديه للسيدة دوبان .

وبينما كنت أزداد سمنة فى شينونسو ، كانت تيريزى المسكينة تتضخم فى باريس بشكل آخر ، **حتى اذا عدت ، وجدت « المؤلف » الذى كنت بدأته ، قد تقدم بدرجة لم أكن أتصورها (٤) . وقد دفع بى هذا – نظرا لموقفى – الى حيرة بالغة ، لولا ان زملاء المائدة أمدونى بالحيلة الوحيدة التى كان بوسعها أن تخرجنى من المأزق .** وهى من البيانات الدقيقة التى لا املك ان أبوح بها فى بساطة ، لأننى قد اضطر – اذا أقدمت على اى ايضاح – الى أن التمس لنفسى المعاذير ، او الى ان ادين نفسى ، وما أرانى راغبا فى أن أفعل هذا أو ذاك !

ففى أثناء اقامة « التونا » فى باريس ، اعتدنا أن نتناول وجباتنا على مقربة من مسكننا ، بدلا من أن نأكل فى أحد

---

(١) قطع غنائية يشترك فى ادائها ثلاثة اشخاص
(٢) l'Engagement Téméraire
(٣) لم يلبث القصر ان آل الى مالك هدم هذا الدرب الذى اذاع روسو شهرته ، والذى كان يجتذب زوار فرنسا من الاجانب
(٤) من المفهوم انه يعنى ان علاقته بتيريز اثمرت جنينا

المطاعم . فكنا نتردد على السيدة لاسيل ، بالقرب من ممر « الاوبرا » .. وكانت زوجة حائك ، تقدم اطعمة غير شهية ، ولكن مائدتها كانت قبلة الطاعمين ، نظرا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طيبين موثوق بهم . فما كان لأى مجهول ان يلج المكان ، بل كان لا بد من أن يقدمه واحد ممن اعتادوا تناول الطعام هناك . وكان « الكوماندور دى جرافيل » ممن استقروا هناك . وهو شيخ ماجن ، موفور الظرف والذكاء ، ولكنه بذىء اللسان .. وقد اجتذب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكى ، تألفت من ضباط من فرق الحرس والفرسان .. وكان « الكوماندور دى تونان » حامى كل فتيات الاوبرا ، وقد اعتاد ان يحمل الى المكان — فى كل يوم — كافة أنباء هذا الوسط العابث .. اما السيدان « دوبليسى » — وكان «بكباشى» محالا على الاستيداع ، وشيخا طيبا حكيما — و « انسيليه » (١) — وكان من ضباط الفرسان — فقد فرضا قدرا من النظام على هؤلاء الشبان . كذلك كان يتردد على المكان تجار ، وماليون ، ومتعهدون بتوريد الاغذية .. ولكنهم كانوا مؤدبين ، أمناء ، من المبرزين فى حرفهم ومهنهم . وكان السيد دى بيس والسيد دى فوركاد بين هؤلاء الذين نسيت أسماءهم . **وقصارى القول**

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « الى هذا الانسيليه اهديت تمثيلية فكهة صغيرة من تاليفى ، بعنوان « اسرى الحرب » ، وضعتها بعد النكبات التى نزلت بالفرنسيين فى بافاريا وبوهيميا ، ولم اجرؤ اطلاقا على ان اعترف بها ، او ان اعرضها . وكان ذلك لسبب واحد ، هو ان الملك ، وفرنسا ، والفرنسيين ، لم يحظوا — فيما احسب — بافضل ولا اصدق من الاطراء الذى اشتملت عليه هذه التمثيلية . ولما كنت جمهوريا وناقدا صريحا للحكومة ، فاننى لم اجسر على ان اعترف باننى مادح امة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئى ، واذ كنت اشد اسى لمصائب فرنسا من الفرنسيين انفسهم ، فقد خشيت ان تؤخذ على محمل الملق والجبن ، امارات الحب الصادق ، الذى ذكرت — فى الجزء الاول من اعترافاتى — عهده وسببه ، والذى كنت استحيى من ابدائه ! » (وقد ورد ذكر ذلك فى الكراسة الخامسة)

ان المرء كان يرى هناك أناسا محترمين من جميع الانواع فيما عدا الرهبان وذوى الأوشحة (١) الذين لم يقع عليهم بصرى هناك اطلاقا ، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم احد منهم. وكانت هذه المائدة ، على ازدحامها ، جد مرحة فى غير صخب، كثيرة الثرثرة فى غير بذاءات . فما كان القائد (الكوماندور) الشيخ لينسى البتة ـ بكل قصصه الماجنة ـ الأدب الذى الفه فى البلاط ، فلم تكن تخرج من فمه اطلاقا أية كلمة بذيئة لا تغتفرها له النساء . وكانت لهجته دستورا للمائدة كلها ، فكان كل اولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية فى كثير من التحرر والكياسة . ولم تكن قصص الغانيات لتغيب عن المائدة، اذ كان ثمة مورد لها جد قريب ، فقد كان الممر الذى يفضى الى دار السيدة لاسيل ، يؤدى كذلك الى حانوت السيدة دوشات، وهى تاجرة ازياء ذائعة الصيت ، كانت تستخدم ـ اذ ذاك ـ فتيات موفورات الجمال ، اعتاد السادة أصحابنا ان يسعوا الى مجاذبتهن الحديث ، بعد الغداء . وكان بوسعى أن أتسلى كما كان يفعل الآخرون ، لو اننى كنت أكثر جرأة مما أنا . اذ اننى لم اكن بحاجة الى اكثر من أن ألج الحانوت ، كما كانوا يفعلون ، ولكننى لم أجسر . أما السيدة لاسيل ، فقد ظللت أذهب لتناول الطعام لديها فى كثير من الأحيان ، عقب رحيل « ألتونا » . وهناك ، سمعت فيضا من الحكايات المسلية ـ كما اقتبست تدريجيا المبادىء التى ألفيتها مستتبة هناك ـ دون المقاييس الخلقية ، والحمد للسماء ! .. فمن أشراف أوذوا ، الى أزواج خدعوا ، الى نساء استخفتهن الغواية ، الى اطفال ولدوا فى الخفاء .. كل هذه كانت موضوعات عادية مألوفة هناك . وكان ذلك الذى يساهم اكثر من سواه ، فى زيادة عدد سكان ملجأ اللقطاء ، هو أكثر الناس نصيبا من الاعجاب .

---

(١) يقصد المحامين

ولقد اصابتنى عدوى هــذا كله ، فصغت طريقة تفــكيرى على نسق تلك التى رأيتها سائدة بين قوم ظرفاء ، ومفرطى الأدب بوجه عام ! .. وقلت لنفسى : « ما دام هذا هو العرف السائد فى البلاد ، فللمرء ان يتبعه اذا ما اقام فيها » ! .. وهذه هى الحيــلة التى كنت أنشدها . فاعتزمت ــ فى اغتبــاط ــ ان انتهجها ، دون اية هواجس من ناحيتى او تردد .. **وكل ماكان على ان اتغلب عليه ، هى مخاوف تيريز ، التى كابدت فى حملها على انتهاج الوسيلة الوحيدة لانقاذ شرفها ، كل ما فى الدنيا من عناء ! .. ولقد انضمت لى امها التى كانت تخشى التورط فى طفل جديد . وانصاعت تيريز فى النهــاية ، فاختــيرت مولدة (داية) حكيمة ، مأمونة ، تدعى الآنســة « جوان » ــ كانت تقيم عند (رأس سان أوستاش) ــ لنعهد اليها بهذه الوديعة .** فلما آن الأوان ، نقلت تيريز ــ بمعرفة أمها ــ الى دار الآنسة جوان ، لتضع حملها ، وذهبت الى هناك عدة مرات لأزورها ، وحملت اليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع احداهما فى ثياب الطفــل ، على ان تودعه القــابلة (الداية) ادارة ملجأ اللقطاء ، بالطريقة المعهودة .. وفى العام التالى ، تكررت المضايقة ،

وتكرر العلاج ، فيما عدا الرمز الذى اغفل ! .. ولم يعد ثمة تفكير فى الأمر ـ من ناحيتى ـ لا ولم يكن ثمة انصياع يفوق انصياع الأم ، التى أطاعت وهى تتنهد . ولسوف تبدو تباعا كل التغييرات التى أدت هذه الطريقة الى فرضها على أسلوبى فى التفكير ، وعلى مصيرى كذلك . أما الآن ، فلنلزم هذه المرحلة الاولى ، اذ ان معقباتها ـ التى كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة ـ لن تلبث ان تضطرنى الى العودة اليها كثيرا .

* * *

• ولسوف اذكر هنا واقعة اول تعارف بينى وبين السيدة « ديبيناى » ، التى كثيرا ما سيتردد اسمها فى هذه المذكرات. كان اسمها الآنسة ديسكلافيل ، ثم تزوجت من السيد « ديبيناى »، نجل السيد « دى لاليف دى بيلجراد » ، الذى كان مديرا عاما للاراضى الزراعية .. ولقد كان الزوج موسيقيا ، على شاكلة السيد دى فرانكويى : كذلك كانت هى الاخرى موسيقية، وقد خلق الولع بهذا الفن ودا عظيما بين هؤلاء الاشخاص الثلاثة . وقدمنى السيد دى فرانكويى الى السيدة ديبيناى ، فكنت اتناول العشاء معها فى بعض الاحيان . وكانت لطيفة ، ذكية ، موهوبة ، خليقة بأن ينشد المرء ودها حقا . على انها أوتيت صديقة ـ تدعى الآنسة « ديت » ـ كانت تعتبر خبيثة، وكانت تعاشر الشيفالييه دى فالورى ، الذى لم يكن حسن السمعة ، واعتقد ان صحبة هذين الشخصين قد أساءت الى السيدة ديبيناى ، التى حبتها الطبيعة بسجية غلابة ، وصفات رائعة تخفف من ، أو تتوازن مع نزواتها . ولقد اوحى اليها السيد دى فرانكويى قسطا من الود الذى كان يكنه نحوى ، وصارحنى بصلاته بها ، ولهذا السبب فاننى ما كنت لاتحدث عن هذه الصلات هنا ، لولا انها اصبحت معروفة الى درجة انها

لم تعد خافية على السيد ديبينـاى ! .. كذلك آثرنى السيد دى فرانكويى باعترافات عجيبة من هذه السيدة ، لم تذكرها لى بنفسها اطلاقا ، ولم يخطر ببالها البتـة اننى كنت على علم بها . فاننى لم افتح فمى ــ ولن افتحه ــ بالحديث فى هـذا الموضوع ، اليها أو الى اى امرىء آخر (١) . **ولقـد ادت كل هذه الاعترافات ــ من كل من الطرفين ــ الى الزج بى فى موقف جد حرج ، لا سيما ازاء السيدة دى فرانـكويى ، التى كانت تعرفنى خير معرفة ، فلم تفقد ثقتها بى بالرغم من توثق صلاتى بغريمتها . ولقد عمدت ــ بقدر ما كان بوسعى ــ الى مواساة هذه السيدة البائسة ، التى لم يبادلها زوجها ــ دون ما شك ــ ما كانت توليه من حب** . وكنت اصغى الى هؤلاء الثلاثة ، كل على حدة ، واصون اسرارهم باقصى وفاء ، دون ان يقدر قط لاى من ثلاثتهم أن ينتزع منى شيئا من اسرار الاثنين الاخرين ، ودون ان اخفى عن كل من المراتين ودى لغريمتها ! .. ولقـد حاولت السيدة دى فرانكويى ان تفيد منى فى امور كثـيرة ، فقوبلت برفض بات .. كما ان السيـدة ديبينـاى ارادت ان تحملنى ــ ذات مرة ــ رسالة الى فرانكويى ، فلم تقابل برفض مشابه فحسب ، بل اننى صارحتها كذلك بجلاء تام ، بأنها لم تكن بحاجة الى اكثر من ان تعرض على مثل هذا الأمر ــ مرة ثانية ــ اذا شـاءت ان تقصينى عن دارها الى الأبد ! .. ومن الواجب أن أنصف السيدة ديبيناى ، فانها كانت أبعـد من أن تبدى استياء من مسلكى ، بل انهـا تحدثت عنه الى فرانكويى بأبلغ تقـدير ، ولم يقل ترحيبهـا بى بعده ، عمـا اعتادت ان تستقبلنى به قبله . وهكذا استطعت ان أمضى موقفـا وسط

---

(١) لم تعد اعترافات السيد دى فرانكويى لروسو سرا خافيا على احد . فان المذكرات التى نشرت باسم ديبيناى تبين لنا انها اصيبت بعدوى مرض خبيث ، من زوجها .. وانها نقلت هذا المرض الى عشيقها ، الذى قدر له ان يموت به !

العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت أعتمد عليهم فى معاشى ــ الى حد ما ــ والذين كنت أكن لهم صادق الميل .. واستطعت ان أحتفظ ــ الى النهاية ــ بودهم ، وتقديرهم ، وثقتهم ، اذ رحت اتصرف فى رفق ومجاملة ، يرافقهما ــ دائما ــ استقامة وحزم . وبالرغم من غبائى وحماقتى، فان السيدة ديبيناى كانت تميل الى ان تصطحبنى الى الحفلات اللاهية التى كانت تقام فى (لاشيفريت) ،فى قصر على نهر (سان دنيس)، من أملاك السيد دى بيلجراد . وكان ثمة مسرح هناك ، كثيرا ما أخرجت عليه مسرحيات. وقد عهد الى بأحد الأدوار ، فظللت استذكره ستة اشهر ــ دون انقطاع ــ ومع ذلك فاننى لم استغن عمن راح يهمس الى بعباراته من البداية الى النهاية ، اثناء التمثيل !.. وبعد هذه التجربة ، لم يعرض على اى دور !

وفى تعرفى بالسيدة ديبيناى ، حظيت كذلك بمعرفة الآنسة دى بيلجراد، التى لم تلبث ان أصبحت كونتة هوديتو. وكانت اول مرة رأيتها فيها ، فى اليوم السابق على زواجها . وقد حدثتنى طويلا (١) ، بتلك الألفة الساحرة التى فطرت عليها . وألفيتها مفرطة فى اللطف ، ولكننى كنت ابعد من ان ارى انه كان مقدرا لهذه الشابة ان تشكل هدف حياتى يوما ، وان تجرنى ــ عن براءة ودون ادراك او قصد ــ الى الحضيض الذى أعيش فيه اليوم !

ومع اننى لم اتحدث عن «ديدرو» منذ عودتى من البندقية، ولا عن صديقى السيد «روجان» ، الا اننى لم أهمل أيا منهما ، بل ان روابط الود أخذت تزداد توثقا بينى وبين الأول ــ بوجه

---

(١) استعمل « روسو » هنا تعبيرا غير شائع فى الفرنسية ، لذلك استعملنا في الترجمة « حدثتني » بدلا من « تحدثت الى او معي » !

خاص ــ يوما بعد يوم . وكما اننى أوتيت «تيريز»، فقد أوتى هو «نانيت» ، وكانت هــذه ناحية أخرى من نواحى التقارب بيننا . ولكن الفــارق كان فى ان تيريزى ، وان ماثلت نانيته فى حسن الشكل، الا انها كانت أرق مزاجا وألطف شخصية منها، وقد خلقت لترتبط برجل محترم.. اما فتاته فكانت سليطة، «زفرة» اللسان ، لاتبدىأمام انظار الغير مايخفىسوء التربية. **ولقد تزوجها ــ مع ذلك ــ وكان هذا عملا طيبا منه ، اذا كان قد وعــدها بالزواج . أما أنا ، فلم أكن بحــاجة الى ان احذو حذوه ، اذ اننى لم أبذل مثل هذا الوعد اطلاقا !**

ولقد اتصلت كذلك بالراهب دى «كونديللاك» ، الذىلم يكن أفضل منى حالا فى الأدب ، ولــكنه كان مهيئا لأن يصير الى ما اصبح اليوم عليه . ولعلنى كنت أول من أبصر كفاءته، وقدره حق قدره . ولاح انه كذلك ارتاح الى ، وعندما احتبستنفسى فى غرفتى بشــارع (جان ســان دنيس) ــ على مقربة من «الأوبرا»ــ لأضع الفصلالذى ضمنته أوبراى عن «هيسيود»، اعتاد أن يفد فى بعض الاحيان ، فيتناول الغداء معى، وحيدين، وكنا نتقاسم النفقات . ولقد كان يعمل ــ اذ ذاك ــ فىكتابه : « رسالة فى أصل المعرفة البشرية» ، الذى كان اول مؤلفاته . فلما فرغمنه ، تمثلتالحيرة فى العثور علىكتبى يتكفل بنشره. اذ ان اصحاب المكتبات الباريسية يعاملونكل مبتدىء فىصلف وجفاء . وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع ــ اذ ذاك ــ ومن ثم فانه لم يكن موردا لموضــوع جــذاب . ولقــد تحدثت الى «ديدرو» عن « كونديللاك » ومؤلفه ، وحملته على ان يتعرف اليه . ولقد خلقا لــكى يتوافقا ، فسرعان ما تآلفــا . وأغرى «ديدرو» الــكتبى «دوران» على ان يقبل مخطــوط الراهب ، فتسلم هذا العالم الــكبير بما وراء الطبيعة ، فى مقــابل كتابه **الأول ، مائة «ايكو» ، وكان فى هذا ايثار له وتكريم ما كان من**

كوندياك

المحتمل ان يلقاهما لولاى !.. ولما كنا نحن الثلاثة (١) نقيم فى أحياء متباعدة جدا ، فاننا كنا نجتمع مرة فى الاسبوع ، فى (الباليه رويال)، فنذهب لتناول الغداء معا فى فندق (البانييه فلورى) . ولا بد ان هذه المأدبة الصغيرة الأسبوعية كانت محببة الى ديدرو كثيرا ، اذ انه لم يتخلف عنها قط، وهوالذى كان يخفق دائما فى انيذكر مواعيده الأخرى . ولقد رسمت ـ

(١) الراهب وديدرو وروسو

فى تلك اللقاءات ـ خطة نشرة دورية تسمى «الساخر» (١) ، على ان نكتبها بالتعاقب ، ديدرو وأنا . ولقد وضعت الخطوط الأولى للعدد الاول ، فأدى هذا الى ان أتعرف الى «داليمبير» ، الذى حدثه ديدرو عن النشرة . غير ان احداثا ـ لم تكن منظورة ـ اعترضت طريقنا ، فظل المشروع عند هذا الحد

وكان هذان المؤلفان(٢) قد اضطلعا بوضع « قاموس محيط » ، قصد به ـ فى البداية ـ ان يكون نظيرا مترجما لموسوعة «تشامبرز» ، وقريب الشبه من « قاموس جيمس الطبى » الذى كان ديدرو قد فرغ من ترجمته . ولقد رغب ديدرو فى ان يشركنى فى بعض اجزاء مشروعه الثانى ، فاقترح على ان اضطلع بالقسم الموسيقى. وقد قبلت، وأديت مهمتى فى عجلة، وفى غير اجادة ، خلال الأشهر الثلاثة التى حددها لى ، كما حددها لكافة المؤلفين الذين قدر لهم ان يشتركوا فى هذا المشروع . على اننى كنت الوحيد الذى كان قد اكمل عمله فى الموعد المعين ، فأسلمته مخطوطى، الذى كنت قد عهدت بنسخه الى أحد وصفاء السيد دى فرانكويى ، ويدعى ديبون ، فكتبه بخط حسن ، ودفعت له فى مقابل ذلك ـ من جيبى الخاص ـ عشر قطع من فئة ((الايكو)) ، لم يقدر لى قط ان استردها . اذ ان ديدرو كان قد وعدنى ـ باسم الناشرين ـ بقسط من الأرباح ، لم يعد الى محادثتى بشانه مرة اخرى ، ولا فاتحته انا بصدده !

ولقد تعطل مشروع « الموسوعة » هذا بسبب سجنه . واجتلب عليه كتابه « أفكار فلسفية » بعض مضايقات لم تؤد الى نتيجة ما . ولكن الأمر اختلف بالنسبة الى كتابه « رسالة عن العميان » ، الذى لم يشتمل على ما يستحق النقد فيماعدا

---

(١) Le Persi Fleur

(٢) ديدرو وداليمبير

بعض مسائل شخصية رأت السيدة «دوبريه دى سان مارو» والسيد « ريومير » ان فيهـا ما يمسهما ، ومن ثم فقد سجن ديدرو ــ من اجلها ــ فى سجن (فانسين) . ولن يصف شيء مدى التباريح التى احدثتهـا فى نفسى محنـة صديقى . **فاذا بخيالى المكتئب ــ الذى اعتاد دائما ان يضخم المحن ــ يجمح فى انزعاجه ، اذ خيل الى ان ديدرو قد يمكث هناك طيلة عمره ، فكدت أجن لذلك ، وكتبت الى السيدة دى بومبادور ، أناشدها اطلاق سراحه ، أو العمـل على ان أحبس معه** . ولم أتلق ردا ما عن خطابى ، اذ انه كان جد بعيد عن المعقول ، فلم يحدث اثرا . ولست ادعى لنفسى فخـر أن يكون خطابى قـد ساهم فيما حدث بعد ذلك ، من تخفيف متاعب السجن على ديدرو المسكين . على انه لو كان قد قدر لهذا الحبس ان يستمر فترة أخرى بنفس القسوة ، فلست أشك فى اننى كنت أموت كمدا وقنوطا ، تحت أسوار ذلك السجن اللعـين .. وحتى اذا كان خطابى قد احدث مفعولا يسيرا ، فاننى لم أوله أهمية تذكر ، حتى اننى لم اتحدث عنه الا لنفر قليل من الناس .. ولم اتحدث عنه الى ديدرو نفسه البتة !

الكراسة الثامنة

سنة ١٧٤٩

• **خليق** بى ان اقف قليلا اذ انتهت الكراسة السابقة . فمع الكراسة الحالية ، تبدأ أصول السلسلة الطويلة من المحن ، التى ألمت بى

لم يفتنى – اثناء ترددى على دارين من ألمع دور باريس – أن أعقد بعض صلات التعارف ، رغم قـلة لباقتى . فتعرفت – فيمن تعرفت اليهم لدى السيدة دوبان – الى الأمير الشاب وريث امارة (ساكس جوتا) ، والى مربيه البارون دى تون ، كما تعرفت لدى السيد ديلا بوبلينيير الى السيد دى سيجاى ، صديق البارون دى تون ، وكان معروفا فى عالم الأدب بالنسخة البديعة التى كانت لديه من ديوان « روسو » (١) . ولقد دعانا البارون – اقصد دعا السيد سيجاى واياى – الى قضاء يوم أو اثنين فى (فونتناى – سو – بوا) ، حيث كان الأمير يمتلك دارا ، فذهبنـا .. **وفيما كنا نمر بفانسـين ، شعرت بقلبى يتمزق ، اذ رأيت السجن . ولمح البارون آثار ذلك على وجهى . وعند العشاء ، تحـدث الأمير عن سجن ((ديدرو)) ، فعمـد البارون – ليحملنى على الكلام – الى اتهام السجين بالنزق .. وهو عـين ما بدر منى فى غلطتى اذ انبريت للدفـاع عنه ! .** ولقد اغتفر لى هذا الاندفاع ، باعتبارى رجلا انساق لعاطفته نحو صديق تعس ، واتخذ الحديث وجهة اخرى . وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير ، احدهما يدعى « كلبفيل » ، وهو رجل جم الذكاء ، كان فى ذلك الحين قسـا راعيا للأمير ، وغدا فيما بعد مربيا له ، خلفا للبارون .. اما الآخر ، فـكان شابا يدعى السيد « جريم » ، كان يتكفل بالقراءة للأمير ، ريثما

(١) الشاعر جان بابتيست روسو

يتسنى له الحصول على منصب آخر . وكان تواضع ملبسه ينم عن شدة حاجته الى ذلك

ومنذ تلك الليلة ، بدأت بينى وبين كلبفيل رابطة لم تلبث ان تطورت الى صداقة . اما صلتى بالسيد جريم ، فلم تصل الى هذا الحد بمثل هذه السرعة ، اذ انه لم يكن يحاول ان يظهر ، بل كان بعيدا كل البعد عن حب الظهور الذى خلعه عليه الثراء فيما بعد .. ولقد دار الحديث عند الغداء - فى اليوم التالى - عن الموسيقى ، فأجاد الخوض فيه . وقد ابتهجت حين علمت انه يحسن المصاحبة على المعزف ، فقضينا اليوم فى موسيقى ، على معزف الأمير ، ومنذ ذلك الحين بدأت تلك الصداقة التى كانت جد لطيفة فى اولها ، وجد نكدة فى آخرها ، والتى ساكثر من الحديث عنها فيما بعد

واذ عدنا الى باريس ، علمت بالنبأ المفرح .. بأن ديدرو قد غادر « الزنزانة » ، وانه منح قلعة ومتنزه (فانسين) كسجن له - اعتمادا على وعد شرف منه - وسمح له بأن يستقبل اصدقاءه . ولكم شق على ان لا استطيع ان أهرع اليه فى التو ! .. فلقد تأخرت يومين أو ثلاثة ، لدى السيدة دوبان ، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها .. وبعد ثلاثة او اربعة قرون من التلهف ، طرت لأرتمى بين ذراعى صديقى ! .. ويا لها من لحظة جلت عن الوصف ! .. ولم أجده وحيدا ، بل كان معه « داليمبير » وأمين صندوق كنيسة «سانت شابيل» .. واذ دخلت ، لم أر فى المكان سواه ، ولم أفعل سوى ان قفزت ، وان صرخت .. وألصقت وجهى بوجهه ، وضممته بشدة دون ما كلام سوى كلام دموعى وعبراتى .. كنت اختنق شوقا وطربا ! .. وكانت أولى حركاته أن تخلص من عناقى ، واستدار نحو رجل الكنيسة قائلا : « أترى يا سيدى كيف يحبنى اصدقائى ؟ » .. واذ كنت غارقا فى انفعالاتى ، فاننى لم أر من هذا المسلك سوى جانبه الطيب ، ولكننى اذ افكر

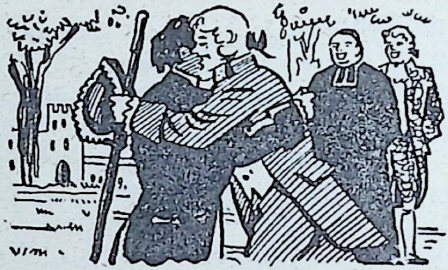

فيه أحيانا ـ بعد ذلك ـ ارى ان هذا لم يكن خليقا بأن يكون أول ما يخطر ببالى لو اننى كنت فى موقف ديدرو !

ووجدته متأثرا بسجنه أشد التأثر ، فلقدتركت «الزنزانة» طابعا فظيعا على نفسه ، ومع انه ارتاح الى المقام فى القلعة ، وغدا حرا فى التجول فى متنزه لم تكن تحيط به أسوار ، الا انه كان محتاجا الى صحبة اصدقائه ، كى لا يستسلم للأفكار السوداء . ولما كنت الشخص الذى يعطف أشد العطف على آلامه ـ يقينا ـ فقد رأيت اننى ولا بد ـ كذلك ـ الشخص الذى تسرى عنه رؤيته ، اكثر من أى شيء آخر . وبالرغم من وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة ، فقد رحت اتردد عليه بعد ذلك ـ مرة كل يومين ـ وحيدا ، أو مع زوجته ، لأقضى معه فترة الأصيل

* * *

• وجاء الصيف فى ذلك العام ـ ١٧٤٩ ـ شديد الحر . وكان ثمة فرسخان بين باريس وفانسين . ولما لم أكن فى سعة تمكننى من استئجار عربة ، فقد اعتدت ان انطلق فى الساعة الثانية ـ من بعد الظهر ـ على قدمى ، اذا ما كنت وحيدا .. **وكنت اغذ السير لأصل فى أقرب وقت .. وكانت الاشجار القائمة على طول الطريق ، غير وارفة الافنان ، على ماهو مألوف**

في تلك المنطقة ، فلم تكن تضفي على شيئا من الظل تقريبا ، وكثيرا ما كنت ارتمى على الارض ، وقد ارهقنى الحر والتعب، وعجزت عن المضى .. ولكى أخفف من سرعة انطلاقى ، عمدت الى اصطحاب أحد الكتب خلال الرحلة . وفى ذات يوم ، اصطحبت كتاب « تقويم فرنسا » . وفيما كنت اقرأ ابان سيرى ، صادفت السؤال الذى طرحه المحفل العلمى لديجون ، ليكون موضوع مباراة (١) العام التالى : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على افساد الاخلاق او على تطهيرها ؟ »

وما ان قرأت هذه الكلمات، حتى تمثلت كونا آخر ، وغدوت انسانا آخر . ومع اننى احتفظ بذكرى حية للأثر الذى احدثه السؤال فى نفسى ، الا ان تفصيلات الواقعة غابت عن بالى مذ اودعتها احدى رسائلى الأربع الى السيد دى « ماليزيرب ». وهذه احدى الظواهر العجيبة التى تتصف بها ذاكرتى ، والتى تستحق الذكر . فهى حين تسعفنى لا تمضى فى ذلك الا طالما كنت معتمدا عليها . وما ان اسكب ما استودعتها اياه على الورق ، حتى تتخلى عنى .. واذا ما كتبت شيئا مرة ، فانى لا اعود اذكره اطلاقا ! .. وترافقنى هذه الظاهرة ، حتى فى الموسيقى . فقد كنت اعرف كثيرا من الاغانى عن ظهر قلب ، قبل أن أدرسها . ولكنى لم اكد احذق الغناء من « النوتة » ، حتى عجزت عن استبقاء أية اغنية فى ذاكرتى ، وما ارانى استطيع اليوم ان اردد اغنية واحدة بأكملها ، من كل الاغانى التى كنت أحبها !

والذى اذكره بجلاء ــ فى هذه المناسبة ــ هو اننى عندما بلغت (فانسين) كنت فى حال من الانفعال تشبه بحران الحمى . ولاحظ « ديدرو » ذلك ، فأفضيت اليه بالسبب ، وقرأت

---

(١) كانت مباراة سنوية يعقدها المحفل العلمى بديجون ، لأحسن رسالة تكتب فى الموضوع الذى يطرحه للمسابقة

عليه ((مناجاة فابريشيوس))(١) ، التى كتبتها بالقلم الرصاص، تحت احدى اشجار البلوط . فشجعنى على ان انشر آرائى، وان اشترك فى المباراة . وقد كان هذا ! .. ومنذ تلك اللحظة غدوت من الضائعين . فلقد كان مابقي من عمري ومن تعاساتي نتيجة لا مناص منها لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال ! (٢)

وتسامت مشاعرى الى مستوى أفكارى ، بسرعة تفوق التصور . فاذا بكل أهوائى التافهة تختنق فى فورة الحقيقة والحرية والفضيلة .. وادعى من هذا الى الدهشة ، ان هذه الفورة ظلت محتدمة فى فؤادى طيلة اربع او خمس سنوات اخرى ، بدرجة لعلها لم تساور قلب اى بشر آخر !

واقبلت على العمل فى اعداد هذا المقال ، بطريقة جد عجيبة ، اعتدت دائما ان انتهجها فى كل مؤلفاتى الاخرى تقريبا . فقد خصصتها بالساعات التى لم يكن النوم يواتينى فيها بالليل . **وكنت استغرق فى التفكير وانا فى فراشى مغمض العينين ،واروح اقلب عباراتى فى رأسى ، واعاود تقليبها فى عناء لايمكن تصوره، حتى اذا انتهيت الى الرضاء عنها ، اودعتها ذاكرتى الى ان استطيع تسطيرها على الورق . ولكن الوقت الذى كان**

---

(١) Prosopopée de Fabricius .. وكان فابريشيوس قنصلا من حكام الرومان ، وقد عرف بانتهاج البساطة فى مبادئه الخلقية ، وبالوفاء والنزاهة ، والتجرد من المصلحة الذاتية . واتخذ اسمه رمزا للرجل الذى يظل فقيرا سليم الذمة مهما يرتفع فى مناصب الحكم

(٢) اضاف «روسو» - فى رسالة الى «ماليزيرب » تفصيلات بديعة لهذه المناسبة ، اذ قال : « وشعرت بدوار طاغ يستولى على راسى ، يشبه نشوة السكران .. وبخفقان عنيف .. فلم اعد اتمالك انفاسى وانا اسير ، ومن ثم ارتميت على احدى اشجار الطريق ، وقضيت نصف ساعة فى هذا الانفعال ، فلما افقت تبينت ان صدر صدارتى كان مخضلا بالدموع ، دون ان اكون قد شعرت باننى ذرفتها »

يستغرقه نهوضي وارتداء ثيابي ، كان يضيعها على .. فاذا ما عكفت على ورقي ، لم يوافني شيء مما نظمته في بالي تقريبا. ورأيت ان استخدم السيدة لوفاسير كسكرتيرة ، فاسكنتها مع ابنتها وزوجها على مقربة مني ، وكانت هي التي تأتي في كل صباح لتوقد ناري وتؤدي الخدمات البسيطة التي احتاج اليها ، اقتصادا لأجر الخادم . وعند وصولها ، كنت املي عليها من

سريري ما أعددته في الليل . وقد ادى هذا النظام ـ الذي اتبعته زمنا طويلا ـ الى انقاذ كثير مما كان معرضا للنسيان !.. حتى اذا فرغت من المقال ، عرضته على ديدرو ، الذي ابدى ارتياحا اليه ، وأشار الى بعض تعديلات . على ان هذا العمل الأدبي المليء بالحرارة والقوة ، كان يفتقد المنطق والترتيب افتقادا تاما . فهو ـ دون كل ما انساب من قلمي ـ اضعفها في الحجة ، وافقرها الى التناسب والتناسق . على ان فن الكتابة لا يستوعب دفعة واحدة ، مهما تكن المواهب التي فطر المرء عليها !

وارسلت هذا المقال ، دون أن أتحدث عنه الى احد ، اللهم الا « جريم » ـ فيما اظن ـ اذ كنت قد بدأت ارتبط واياه بأعظم ود ، منذ التحق بخدمة الكونت دي فريز . وكان لديه معزف اتخذناه ملتقى يجمعنا ، فكنت اقضي مع « جريم » حوله كل

لحظات فراغي ، نغنى الالحان الايطالية وأغانى ملاحى الجندول، دون انقطاع او ملل من الصباح حتى المساء ، او ـ بالاحرى ـ من المساء الى الصباح . وعندما كنت لا أوجد فى دار السيدة دوبان ، فقد كان من المحقق ان اوجد لدى السيد « جريم » ، او معه ـ على الاقل ـ سواء فى نزهة أو فى مسرح . وكنت قد كففت عن الذهاب الى مسرح « الكوميدى ايتاليين » ـ الذى كنت استمتع بحق دخوله بالمجان ، والذى لم يكن « جريم » يحبه ـ واصبحت اتردد معه على « الكوميدى فرانسيز » ، الذى كان مولعا به . **وقصارى القول ان جاذبية قوية ربطتنى بهذا الشاب ، حتى اننى اصبحت لا اطيق بعدا عنه ، وحتى ان العمة المسكينة(١) غدت موضع اهمال منى ! .. اقصد اننى أقللت من زيارتى اياها ، اذ ان عاطفتى لم تهن لحظة واحدة خلال حياتى !**

ولقد ادت استحالة تقسيم وقت فراغى الضئيل بين ميولى ، الى ان تجددت لدى ، بقوة لا قبل لى بها ، الرغبة ـ التى ساورتنى منذ وقت طويل ـ فى أن يكون لى ولتيريز مسكن واحد . ولكن العقبة التى تمثلت فى عدد افراد أسرتها ، وفى الحاجة الى المال لشراء الأثاث ـ بوجه خاص ـ جعلتنى اعدل حتى ذلك الحين . ثم سنحت لى فرصة المحاولة ، فانتهزتها .. ذلك ان السيد دى فرانكويى والسيدة دوبان شعرا تماما بان مبلغا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك فى العام ، مبلغ غير كاف ، فرفعا من تلقاء نفسيهما مرتبى السنوى الى خمسين « لوى » . وفضلا عن هذا ، فان السيدة دوبان لم تكد تسمع باننى كنت أسعى الى تأثيث مسكن خاص لى ، حتى ساعدتنى ببعض نفحات من أجل هـذا الغرض . وبالاضافة الى الاثاث الذى كان لدى « تيريز » من قبل ، لممنا شملنا ، واستاجرنا مسكنا صغيرا فى

(١) ذكر « روسو » ان هذا اللقب اطلقه اصدقاؤه على « تيريز »

مبنى « اللانجدوك » ، بشارع (جرينيل سانت اونوريه) ، لدى قوم طيبى السمعة جدا ، ودبرنا معيشتنا قدر المستطاع ، واقمنا هناك فى امان وارتياح سبع سنوات .. الى ان نزحت الى « الارميتاج » .

* * *

• **وكان** والد تيريز كهلا طيبا ، مفرط الدعة ، يخاف زوجته كل الخوف ، ومن ثم فقد أطلق عليها لقب « الملازم كريمينيل »(١) الذى خلعه « جريم » بعـــد ذلك ــ على سبيل الدعابة ــ على ابنتها . ولم تكن السيدة لوفاسير تفتقر الى حضور البديهة ، والقصد فى أدب الخطاب ، بل انها كانت تفخر بأدبها وبسلوكها اللائق بالمجتمع الراقى . بيد انها كانت ذات رياء غريب لم اكن أطيقه . وكانت تقدم لابنتها من النصح أسوأه ، وقد حاولت ان اتحملها على ان تخدعنى وتمكر بى! .. **وكانت تداهن اصدقائى ــ كلا على حدة ــ وتحاول ان تتقرب الى الواحــد منهم على حساب الآخر ، او على حسابى انا ! .. وفيما عدا ذلك فانها كانت أما طيبة ، لأنها وجدت أن مصلحتها فى ان تكون كذلك .** وكانت تتستر على اخطاء ابنتها ، لأنها كانت تفيد من وراء ذلك .. هــذه المرأة التى اغرقتها بعنــايتى ورعايتى ، وبالهــدايا الصغيرة ، والتى كنت اتوق من قلبى الى ان أحمل نفسى على حبها ، كانت ــ بسبب استحالة نجاحى فى هذا الصدد ــ السبب الأول للتعب الذى كنت اعانيه فى مسكنى الصغير . وفيما عدا هذا ، فان بوسعى أن أقول اننى تذوقت ــ خلال هذه السنوات الست أو السبــع ــ اكمل هنــاء عائلى يســمح به الضعف البشرى !

---

(١) Lieutenant Criminel كان قاضيا فى « الشاتيل » ، وهو الاسم الذى يطلق على دار للقضاء فى باريس ، تضم اثنتين من اقدم المحاكم ، احداهما مدنية والاخرى جنائية

كان قلب تيريزى قلب ملاك ، وقد عززت حياتنا المشتركة حبنا ، فأخذنا نزداد احساسا ـ يوما بعد يوم ـ بأن كلا منا خلق للآخر . ولو قدر لمتعنا ان توصف ، لكانت بساطتها داعية للضحك ، سواء فى ذلك نزهاتنا خارج المدينة وحيدين ، حيث كنت انفق ـ بعظمة ـ ثمانية او عشرة «سو» فى احدى الحانات .. أو عشاؤنا البسيط فى النافذة ، وقد جلسنا متقابلين على مقعدين صغيرين ، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ النافذة .. فكانت هذه تستخدم ـ بهذا الوضع ـ كمائدة ، وكنا نستنشق الهواء الطلق ، ونشاهد ما حولنا ، والمارة .. ومع اننا كنا فى الطابق الرابع ، الا انه كان فى وسعنا أن نطل على الطريق ، ونحن نتناول الطعام . **ترى منذا الذى يستطيع ان يصف ، بل منذا الذى يستطيع ان يشعر بمفاتن هذه الوجبات التى كانت تتألف ـ فى مجموعها ـ من ربع رغيف من الخبز الخشن ، وبعض الكريز ، وقطعة صغيرة من الجبن ، ونصف « سيتيبيه »(١) من النبيذ كنا نشربه معا ؟** .. أيتها الصداقة ، والثقة ، والألفة ، وراحة البال .. ما الذ مذاقك ! . لقد كنا نمكث أحيانا فى جلستنا هذه الى منتصف الليل ، دون ان نفكر فى شىء ودون ان نفطن الى الوقت مالم تنبهنا الأم العجوز اليه ! .. ولكن لندع هذه التفصيلات التى قد تبدو عقيمة أو مضحكة ، فلقد اعتدت ان أشعر ـ وأن أصرح ـ دائما ، بأن الهناءة الحقة لا توصف !

ولقد حظيت ـ فى نفس تلك الفترة تقريبا ـ بمتعة أخرى ، كانت أكثر خشونة من هذه .. وكانت آخر متعة من نوعها أندم عليها . فلقد ذكرت ان « كلبفيل » ـ القس ـ كان لطيفا ، ولم تكن علاقتى به تقل توثقا عن علاقتى بجريم ، حتى أصبحنا متآلفين . وكانا يتناولان الطعام أحيانا على مائدتى . وكانت

---

(١) نصف « السيتيبيه » يعادل جزءا على ١٦ من الجالون

هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشيء ، كما كانت تزيدها مرحا فكاهات كلبفيل ونكاته المهذبة، والمداعبات الجرمانية من «جريم» الذى لم يكن بعد قد طلق العبث .. ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة ، بل كان المرح يملأ مكانها . وقد شعرنا بارتياح الى اجتماعاتنا ، فلم نعد نطيق افتراقا . وكان كلبفيل قد أثث مسكنا لفتاة صغيرة ، لم تكف عن ان تهب نفسها لكل الناس ، لأنه لم يكن قادرا على أن يكفلها وحده ! .. وفى ذات مساء ، كنا نلج احد المقاهى ، واذا بنا نجد كلبفيل خارجا منه ، فى طريقه اليها ليتناول العشاء معها . فداعبناه ببعض الفكاهات ، التى انتقم لنفسه منها بلباقة ، اذ اضطرنا الى ان نشاركه نفس العشاء ، ثم راح يسخر منا بدوره . **وبدت لى الفتاة المسكينة حلوة السجايا ، مفرطة الدعة ، غير مدربة على مهنتها التى كانت تبصرها بها - بقدر الامكان - عجوز ماكرة كانت برفقتها . واستخفنا الحديث والنبيذ الى درجة نسينا معها انفسنا .** ولم يشأ كلبفيل الطيب ان ينتقص

من كرمه ، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة ، التى لم تدر أكان لها ان تضحك ام ان تبكى ! .. ولقد اعتاد «جريم»

دائما أن يؤكد انه لم يمسسها ، وانه ما أطال المكث معها الا ليستعذب اطالة انتظارنا ونفاد صبرنا . واذا كان قد تعفف عنها ، فمن غير المحتمل ان ذلك كان عن توجس من الفتاة ، اذ انه ـ قبل التحاقه بخدمة الكونت دى فيريز ، واقامته فى داره ـ أقام لدى فتيات من غانيات حى (سان روش) بالذات .

وخرجت من شارع (ديه موانو) ـ حيث كانت الفتاة تقيم ـ وأنا أشد استحياء من القديس ((بريو)) ، حين بارح المنزل الذى أسكر فيه. ولقد كنت أتمثل قصتى بجلاء ، وانا اكتب قصته ! .. ولاحظت تيريز ان فى الأمر شيئا ، لاسيما وانني كنت مرتبكا ،وكنت ابدو ساخطا على نفسى. وقد تخففت من العبء، بأن اعترفت لها بصراحة وايجاز . وكم احسنت صنعا ، اذ ان ((جريم)) جاءها ـ فى الصباح التالى ـ متشفيا ، وروى لها ذنبى فى مبالغة . ومنذ ذلك الحين ، لم يكف قط عن ان يذكرها به فى خبث واغاظة . وكان هذا اشنع ذنوبه ، فقد كان من حقى ـ اذ ائتمنته على سرى طواعية ، وفى غير تحفظ ـ ان اتوقع منه ان لايحملنى على ان اندم يوما على هذه الثقة .

أبدا لم أشعر بطيبة قلب تيريزى ، كما شعرت بها فى هذه المناسبة ، فقد أبدت من الذهول والاستنكار لتصرف ((جريم)) اكثر مما أبدت من الاستياء لعدم وفائى ، فلم أتجشم اكثر من ان تقبلت منها عتابا رقيقا مؤثرا ، لم المح خلاله اى أثر لسخط او ضغينة ! .. لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتاة الرائعة ، تعادل طيبة قلبها ، وهذا جل ما يقال !. . على ان ثمة مثالا لذلك ، جديرا بالذكر ، يحضرنى الآن .. فلقد ذكرت لها ان كلبفيل كان قسا ، وراعيا دينيا لأمير (ساكس ـ جوثا) . **وكان القس ـ فى رأيها ـ رجلا ممتازا ، حتى انها فى تخبطها بين الأفكار المتباينة ، أخذت كلبفيل على أنه ((البابا)). ومن ثم فقد ظننتها اختبلت ، حين انبأتنى ـ ذات مرة ـ عند عودتى الى المنزل ، بأن ((البابا)) قد حضر لزيارتى.** واستدرجتها حتى اوضحت،

ثم انطلقت بأسرع ما وسعنى لأروى هذه القصة لجريم وكلبفيل، الذى لصق به اسم « البابا » فيما بيننا .. كما اطلقنا على غانية شارع (ديه موانو) ، اسم « الماما جان » ! (١) .. وكان هذا مثار ضحك عز علينا ان نخمده ، حتى كدنا نختنق !.. ان أولئك الذين جعلونى أقول ـ فى خطاب حلا لهم ان ينسبوه الى ـ اننى لم أضحك فى حياتى سوى مرتين ، لم يعرفوا شيئا عنى فى هذه الفترة ، أو فى ايام صباى ، والا ما خطرت لهم هذه الفكرة اطلاقا !

من سنة ١٧٥٠ الى سنة ١٧٥٢

• **علمت** فى العام التالى ـ سنة ١٧٥٠ ـ أن مقالى فاز بالجائزة فى (ديجون) ، وكنت قد كففت عن التفكير فيه. فأيقظ هذا النبأ ـ من جديد ـ كل الأفكار التى كانت قد اوحت الى به، وبث فيها قوة جديدة ، وادى الى ان تحركت ـ للمرة الأولى ـ رواسب البطولة والفضيلة التى كان ابى ووطنى وبلوتارخ قد أودعوها قلبى فى طفولتى . فلم اعد اجد ما هو اعظم واجمل من ان اكون حرا وفاضلا ، وأن أرتفع بنفسى فوق اعتبارات الحظ والرأى العام ، وان اكون مستقلا بذاتى . ومع أن الحياء الزائف والخوف من الرأى العام منعانى ـ بادىء الأمر ـ من ان امضى وفقا لهذه المبادىء ، ومن ان اخرج فجأة ، وعلانية ، على عادات وعرف القرن الذى أعيش فيه .. الا اننى منذ ذاك الحين عقدت عزمى ، ولم ارجىء تنفيذ ما انتويت لأمد اطول مما كان يتطلبه هذا الانقلاب كى يغدو موفقا

وفيما كنت ارسم فلسفتى عن واجبات الانسان، وقع حادث جعلنى أفضل التفكير فى واجباتى الشخصية . فقد كانت تيريز

---

(١) Papesse .. لم نجد ترجمة لهذه الكلمة خيرا من « الماما » !

حبلى للمرة الثالثة .. وفى أمانة تامة بينى وبين نفسى ، وفى اعتزاز مفرط صدف بى عن الرغبة فى أن تكون أعمالى مكذبة لمبادئى ، شرعت أدرس مصير أولادى وعلاقتى بأمهم ، على ضوء قوانين الطبيعة ، والعدالة ، والعقل ، والدين .. الدين القدسى ، الأزلى ، كما أراده خالقه ، لا كما شوهه البشر فى تظاهرهم بالرغبة فى تطهيره ، ولا كما حوله الناس - بقوانينهم الموضوعة - الى مجرد عقيدة قوامها الكلمات .. فان فرض المستحيل لا يبهظ الناس ماداموا يتغافلون عن تنفيذه !

ولو اننى كنت مخطئا فى استنتاجاتى ، لما كان ثمة ما هو أدعى للدهشة من الطمأنينة، التى أقبلت بها عليها .. ولو اننى كنت من أولئك الناس ذوى المنبت الوضيع ، وذوى الآذان المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق ،وذوى النفوس التى لاينبت فيها أى احساس صادق بالعدالة والانسانية ، لكان جمود قلبى ميسور الادراك . ولكن ما أوتيت من حرارة القلب ، وارهاف الحس ، وسهولة التعلق بالناس .. وهذا السلطان الذى كانت تفرضه على علاقاتى بهم ، وهذه اللوعات القاسية التى كنت اعانيها اذا ما اضطررت الى قطع العلاقات. .وهذه النية الطيبة التى فطرت عليها نحو أقرانى، وحبى المتأجج لكل ماهو عظيم، وما هو صادق، وما هو جميل ، وما هو عدل ... وهذا الجزع

من السوء بكل أنواعه ، وهذا العجز عن الكراهية والحقد ، بل وعن تمنيهما .. وهذا الحنان ، وهـذا الشعور الناعم الوثاب الذى أحس به حين ارى كل ما هو فاضل وكريم ولطيف .. أفليس من الممكن لكل هذه الصفات ان تتآلف فى قلب واحد ، مع الحرمان الذى يدوس - فى غير ما تورع - أعذب الالتزامات وأحلاها ؟ .. **لا ! .. اننى لأشعر وأجاهر بان هذا مستحيل، فان جان جاك لم يكن قط عديم الشعور ، ناكرا لصلات الرحم، ولا كان أبا جاحدا ، لحظة واحدة فى حياته ! .. ومن المحتمل ان أكون قـد اخطأت ، ولكنى لم اكن قط قاسى القلب ..** ولو اننى شئت أن أفضى بحججى ، لتكلمت أكثر مما ينبغى . وبما انهـا كانت من القـوة بحيث اغوتنى ، فاننى أخشى ان تغوى كثـيرين غيرى ، ولست أبغى ان أعرض الشبـان - الذين قد يقرأون حديثى - لأن ينساقوا الى الاساءة لأنفسهم بفضل هذا الخطأ . ومن ثم فسأكتفى بأن أقول ان غلطتى كانت على هذا النسق : اننى اذ أسلمت أولادى الى الدولة لتربيهم ، لعجزى عن تنشئتهم بنفسى ، واذ قضيت عليهم بأن يصبحوا عمالا او مزارعين ، بدلا من ان يصبحوا مغـامرين وطلاب ثروة ، كنت اظننى أؤدى تصرفا يليـق بأب مواطن صـالح ، وكنت اتمثل نفسى عضوا فى جمهورية افلاطون . ولقـد أشعرتنى حسرات قلبى - فى اكثر من مرة ، فيما بعد - اننى كنت مخطئا ، ولكن عقلى كان ابعـد من أن يوحى الى بنفس الرأى ، ومن ثم فاننى كثيرا ما باركت السماء لأنها صانتهم مما لقيه أبوهم فى حياته ، ومن الحظ الذى كان يتهددهم اذا ما اضطررت الى التخـلى عنهم . ولو اننى اسلمتهم الى السيدة ديبينـاى ، أو السيدة دى لوكسمبورج ، اللتين رغبتا - فيما بعد - فى ان تكفلاهم ، سواء بدافع من الصـداقة ، أو من الـكرم ، أو من اى حافز آخر . لو اننى فعلت ذلك ، فهل تراهم كانوا يغـدون اكثر سـعادة ، او ينشأون رجالا امناء محترمين ، على الاقل ؟ ..

ديدرو مع صديقه جريم
من رسم كارموتيل ، في متحف كونديه بشانتيللي

لست ادرى ، ولكننى واثق من انهم كانوا خليقين بأن ينشأوا على كراهية أبويهم ، وربما على الغدر بهما !.. ومن ثم فقد كان من الأفضل مائة مرة ، انهم لم يعرفوا ابويهم !

وهكذا أسلم ابنى الثالث الى ملجأ اللقطاء ، كما كان شأن الطفلين السابقين .. وكذلك كان شأن الطفلين التاليين،اذ اننى أوتيت خمسة . ولقد بدا لى هذا الاجراء ملائما ، حكيما ، مشروعا الى درجة اننى اذا كنت لم أفخر به علانية، فانماكنت أصدر فى ذلك عن شئ من مراعاة خاطر أمهم .. على اننى أنبأت به كل اولئك الذين كنت قد اطلعتهم على علاقتى بها .. قلته لديدرو ، ولجريم ، كما ذكرته ــ فيما بعد ــ للسيدة دبيناى ، ثم للسيدة دى لوكسمبورج بعد ذلك .. ولقد فعلت ذلك فى صراحة ، وبمطلق الحرية ، دون أى اضطرار ، وكان بوسعي ان أخفى الأمر بسهولة عن الناس أجمعين .. اذ ان الآنسة «جوان» (١) كانت أمينة، كتومة جدا ، وكان بوسعى ان اطمئن اليها كل الاطمئنان . وكان الوحيد من اصدقائى ، الذى كنت أجدمصلحة فى ان اكشف له سرى، هو الطبيب «ثييرى»، الذى عنى بعمتى المسكينة فى احدى مرات الوضع ، عندما ساءت حالها . ومجمل القول اننى لم أحط تصرفى بشئ من الغموض ، لا لأننى لم أتعلم قط ان أكتم شيئا عن أصدقائى فحسب ، وانما لأننى لم اكن أرى ــ فى الواقع ــ أى ضير فى ذلك . اذ اننى ــ اذا قدرنا كافة الاعتبارات ــ قد اخترت لأولادى الخير ، أو ما آمنت بأنه الخير . بل اننى كنت أتمنى ــ ولا ازال ــ لو اننى نشأت وتربيت على شاكلتهم !

***

• وفى **الوقت** الذى كنت أسجل فيه اعترافاتى هذه، كانت

(١) الآنسة « جوان » هى القابلة او المولدة التى كانت تعنى بتيريز عند الوضع ، وتتكفل باسلام الاطفال الى ملجا اللقطاء .

٥

السيدة لو فاسير تحذو حذوى ـ من ناحيتها ـ بيد إنها كانت تعرض آراء اقل تشويقا . وكنت قد قدمتهما ـ هى و ابنتها ـ الى السيدة دوبان التى أولتهما ألف آية من آيات الطيبة، بدافع من صداقتها لى . ولقد اطلعتها الأم على سر ابنتها . **فما كان من السيدة دوبان الطيبة، السخية، التى لم تطلع قط على مدى حرصى على أن اوفر لهما كل أسباب العيش ـ رغم تواضع مواردى ـ الا أن كفلت للابنة معاشا سخيا كتمت عنى هـذه سره ، بأمر من أمهـا ، طيلة مقامى فى باريس ، فلم تعتـرف لى به الا فى ((الأرميتاج))** ، وبعد ان كشفت لى عن عدة أمور أخـرى كانت تخفيها فى صدرها . ولقد كنت أجهل ان للسـيدة دوبان علما بشىء ، اذ أنها لم تبد اطلاقا اية اشارة .. كمـا اننى أجهل ما اذا كانت السيدة دى شينونسو ـ زوجة ابنها ـ على علم بالأمر هى الأخـرى . على ان السيدة دى فرانكويى ـ زوجـة ابن زوجها ـ أحاطت به ، ولم تستطع ان تمسك لسانها، فتحدثت الى عنه فى العام التالى ، بعد ان كنت قـد تركت دار الأسرة . وقد حملنى هذا على ان اكتب لها ـ عن هذا الموضوع ـ رسالة توجد فى أضـابيرى ، وقد عرضت فيهـا من حججى ما كان بوسعى أن أذكره دون أن أقحم السيدة لو فاسير واسرتها ، اذ ان معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم، وقد تكتمتها (١)

اننى لأطمئن الى كتمـان السيدة دوبان للأمر ، والى مودة السيدة دى شينونسو، وكذلك كنت مطمئنا من ناحية السيدة دى فرانكويى ، لا سيما وانهـا توفيت قبل ان يشـيع سرى مـدويا ، بوقت طويل . **ومن ثم فانه مـا كان ليتفشى الا على ألسنة اولئـك الذين أفضيت اليهم به بالذات !.. والواقع ان هذا لم يحدث الا بعد ان تقطعت بينى وبينهم الصلات** . وبهذا

---

(١) سترد هذه « الأسباب الحاسمة » فى الكراسة التاسعة

وحده يمكن الحكم عليهم فى الواقع ، دون رغبة منى فى ان اعفى نفسى من اللوم الذى استحقه ، بل اننى لأوثر ان آخذ الذنب علي عاتقى، على ان اقضي عليهم بما يستحقه خبثهم . ان ذنبى لعظيم ، ولكنه لايعدو ان يكون خطأ .. فلقد أهملت واجباتى، بيد ان الرغبة فى الايذاء لم تداخل فؤادى ابدا، ولن يقدر لمشاعر الأب ان تتحدث باقناع عن أطفال لم يرهم اطلاقا. ولكن خيانة ثقة الصداقة ، وانتهاك حرمة اقدس المعاهدات، ونشر الأسرار التي سكبت فى صدورنا ، والحط عمدا من قدر الصديق المخدوع الذى لايزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه عنا .. هذه كلها ليست اخطاء ، ولكنها خسة نفس وسخيمة !

لقد وعدت بأن أقدم اعترافاتى، لا تبريرات تصرفاتى. ومن ثم فاننى أقف ـ فى هذا الموضوع ـ عند هذا الحد . ومن واجبى ان أكون صادقا ، وللقارىء ان يكون عادلا . ولن أطالبه قط بأكثر من هذا

***

• أدى زواج السيد دى شينونسو الى ان اصبحت اكثر ارتياحا الى دار أمه ، بفضل مزايا الزوجة الجديدة وعقلها . فقد كانت شابة مفرطة اللطف ، بدا انها آثرتنى من بين الكتبة الذين كانوا فى خدمة السيد دوبان .. وكانت الابنة الوحيدة للسيدة فيكونتة دى بروشيشوار ، الصديقة الحميمة للكونت دى فريز ، وبالتالى لجريم الذى كان ملحقا بخدمته . على اننى كنت الشخص الذى قدمه الى ابنته وأدخله دارها ! (١) ولكن طباعهما لم تتفق، ومن ثم فان هذه الصلة لم تدم طويلا. اما «جريم» ـ الذى لم يكن يضع عينيه ، منذ ذلك الحين ، الا

(١) يقصد « روسو » ان العروس كانت ابنة الكونت دى فريز من علاقته بالفيكونتة دى روشيشوار ، ولكنها تنسب للفيكونت ، ومن ثم فانها كانت تجهل اباها الحقيقى ، الذى قدم اليها كصديق !

على كل ما فيه نفع مؤزر ـ فقد آثر الأم ، التى كانت من نجوم المجتمع الراقى ، على الابنة التى كانت تنشد أصدقاء تثق فيهم وترتاح اليهم ، ولا يكون لهم شأن بأية مؤامرة أو دسيسة ، ولا يسعون الى غاية بين العظماء !.. واذ لم تجد السيدة دوبان فى السيدة دى شينونسو كل ما كانت ترجوه من لين ، أحالت دارها الى مكان كئيب بالنسبة للشابة . فآثرت السيدة دى شينونسو ـ التى كانت معتزة بميزاتها ، وربما بمنبتها أيضا ـ ان تنبذ ملاهى المجتمع ، وان تبقى وحيدة ـ تقريبا ـ فى مخدعها ، على ان تحتمل نيرا لم تكن تحس بأنه يلائمها !

ولقد أدى هذا الاعتزال الى مضاعفة تعلقى بها ، مدفوعا بذلك الميل الطبيعى الذى كان يجتذبنى الى التعساء . ولقد وجدت فيها عقلا مفكرا يميل الى ما وراء الطبيعة ، وان كان فى بعض الاحيان ينحو الى السفسطة . وكان حديثها جد جذاب لى . اذ انه كان بعيدا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدير من عهد قريب ، ومع عمقه هذا ، فانها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها !.. وكانت بشرتها بيضاء ناصعة تبهر الأبصار، كما ان قوامها كان خليقا بأن يبدو مهيبا وجميلا، لو انها أقامت عودها مستويا . أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسمرة باهتة ، فى جمال نادر ، مما كان يذكرنى بماما البائسة فى أوج شبابها ، فكان يهيج فؤادى . بيد ان المبادىء القويمة التى كنت قد رسمتها لنفسى ـ من عهد قريب ـ وآليت أن اتبعها مهما تكبدت ، جعلتنى فى أمان منها ومن مفاتنها !..

ولقد اعتدت ـ طيلة فصل الصيف بأكمله ـ ان أقضى معها ثلاث أو أربع ساعات فى عزلة ، ألقنها الحساب فى درس جدى ، وأضايقها بأرقامى التى لاتنتهى ، دون ان أقول لها كلمة غزل واحدة ، ودون ان أرمقها بنظرة !.. ولو ان هذا حدث بعد خمس أو ست سنوات من تلك الفترة ، لما كنت قمينا بأن أكون عاقلا أو غبيا الى هذا الحد .. ولكن القدر كان قد كتب على أن

لا احب حبا حقيقيا سوى مرة واحدة فى حياتى ، وان تكون اول وآخر زفرات قلبى وقفا على امرأة غير هذه !

ولقد كنت دائما ـ مذ أقمت فى دار السيدة دوبان ـ راضيا بنصيبى ، لا أبدى أية رغبة فى أن يتحسن. ولقد جاءت الزيادة التى أضافتها السيدة الى مرتبى ـ بالاشتراك مع السيد دى فرانكويى ـ صادرة عن محض ارادتهما وحدهما فحسب.. وفى هذا العام، فكر السيد دى فرانكويى ـ الذى كانت صداقته لى تزداد يوما بعد يوم ـ فى أن يضعنى فى مركز أعلى قدرا وأكثر ثباتا . ولقد كان محصلا عاما لمالية فرنسا ، واذ كان السيد دودوييه ـ أمين خزانته ـ مكتهلا وغنيا ، وراغبا فى ان يعتزل العمل، فقد عرض على السيد دى فرانكويى هذا المنصب .. ولكى أعد نفسى لتوليه ، ترددت لبضعة أسابيع على دار السيد دودوييه لأتلقى عنه الارشادات الضرورية . وسواء كنت لم أوت موهبة لهذا العمل ، أو أن دودوييه ـ الذى بدا لى راغبا فى ان يعهد بهذا المنصب الى خليفة آخر ـ لم يكن يلقننى أصول المهنة عن طيب خاطر ، فاننى رحت ألم بالمعلومات التى كنت محتاجا اليها ، فى بطء وسوء استيعاب .. ولم ينفذ الى رأسى قط نظام الحسابات التى كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة . على اننى وان لم أستوعب دقائق المهنة ، لم أتوان قط عن أن أمضى مهرعا نحو المقدرة على ممارسة مهام الادارة . بل اننى شرعت فيها ، فتوليت السجلات والخزانة، وصرفت وتسلمت نقودا ، وأصدرت ايصالات . ومع أن ما لدى من ميل أقل من ان يؤهلنى لهذه المهنة، الا ان تقدم سنى جعلنى حكيما، فعقدت العزم على أن أتغلب على نفورى من أن أنصرف بكل نفسى الى وظيفتى . ولكن سوء الحظ شاء ـ فى الوقت الذى بدأت آلف عملى فيه ـ أن يقوم السيد دى فرانكويى برحلة قصيرة ، ظللت خلالها الموكل الوحيد بخزانته ، التى لم يكن يودعها ـ فى ذلك الوقت ـ سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين الفا

وثلاثين الفا من الفرنكات . فاذا القلق وانشغال البـال ، اللذان سببتهما هذه الامانة ، يقنعانني بأنني لم أخلق لأكون صرافا . ولست ارتاب فى ان اللهفة التى رحت ارتقب بهـا عودة السيد دى فرانكويي قد ساهمت فى المرض الذى وقعت فريسته عقب هذه العودة !

ولقد قلت فى الجـزء الأول من اعترافاتى اننى كنت موشكا على الموت عندما ولدت . وكان ثمة عيب فى تكوين المثانة ، ادى الى احتباس البول بصفة شبه مستمرة ، خـلال سنى عمرى الأولى ، فكانت عمتى «سوزان» ـ التى تولت العناية بى ـ تلقى عناء لايمكن تصوره ، كى تصون حياتى . على أنهـا افلحت فى ذلك، واستطاعت بنيتى القوية ان تتغلب فى النهاية، فتحسنت صحتى كثيرا خلال صباى .. وفيما عدا نوبة الضعف والهزال التى ذكرتها من قبل ، وفيما عدا كثرة احتياجى الى التبول ، الأمر الذى كان أقل ارتفاع فى الحرارة يجعله عملية متعبة .. فيما عدا ذلك فاننى بلغت الثلاثين من عمرى ، دون ان أحس بما كان فى جسمى من عيب سابق

وأصابتنى أولى العلل عند وصولى الى البندقية . فان عناء الرحلة والحر الشديد الذى عانيته ، جلبا على رغبـة مستمرة فى التبول ، وأوجاعا فى الكليتين ، لازمتنى حتى مقدم الشتاء . **ولقد ايقنت بعد زيارتى للمومس (١) اننى ميت ، ولكننى ـ مع ذلك ـ لم أعان أقل تعب .. وبعد أن ارهقت نفسى بالوهم ـ اكثر منى بآلام جسدية ـ بسبب «جولييتا»، اذا بصحتى خير مما كانت فى أى يوم .** وظللت هكذا الى ما بعد سجن ديدرو ، اذ ان اشتداد سخونة دمى ـ خلال رحلاتى الى فانسين فى الحر القائظ الذى كان سائدا اذ ذاك ـ أدى الى ألم عنيف فى الكليتين، لم أستعد ـ مذ واتانى ـ صحتى الأولى !

---

(١) وردت هذه الواقعة فى صفحة ٦٢ من هذا الجزء

• وفى الفترة التى أتحدث عنها ، أدى اسرافى فى ارهاق نفسى بالعمل البغيض فى تلك الخزانة اللعينة ، الى ان اضمحلت صحتى أكثر من ذى قبل ، ومكثت فى فراشى خمسة أسابيع أو ستة ، فى أشد اغتمام يمكن تصوره . وأوفدت السيدة دوبان لعيادتى «موران» الذى كان ذائع الصيت ، والذى سبب لى ـ برغم مهارته ورقة لمساته ـ أوجاعا لاتخطر ببال ، ولم يستطع قط أن يصل الى موطن علتى ، فنصحنى بأن ألجأ الى «داران» ، الذى استطاع بمجساته ـ وكانت اكثر مرونة ـ أن يخفف عنى بعض الأوجاع . **على ان موران ـ حين أنبأ السيدة دوبان بحالى ـ صارحها بأننى لن أكون على قيد الحياة بعد**

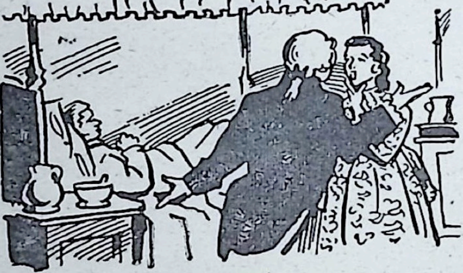

ستة اشهر . وحملنى هذا الحديث ـ الذى نمى الى ـ على أن أفكر جديا فى حالى ، وفى حماقة التضحية براحة جسمى وبالى فى الأيام القلائل التى تبقت لى فى الحياة ، لأغدو مستعبدا لوظيفة لم أكن اشعر نحوها بأى ميل !.. ومن ناحية اخرى ، كيف كان لى ان أوفق بين المبادىء القاسية التى اتخذتها لنفسى وبين منصب لم يكن يتسق معها الا قليلا ؟.. الم يكن من المجافاة للذوق أن أدعو ـ وأنا المحصل العام للمالية ـ الى التجرد من المصلحة الذاتية ، والى الفقر ؟

واشتد تخمر هذه الآراء فى رأسى باشتداد الحمى ، وراحت

تتماسك بقوة ، حتى ان شيئا لم يقو ـ منذ ذاك الحين ـ على تبديدها ، فوطدت عزمي ـ خلال فترة نقاهتي ـ على تنفيذ ما استقر عليه رأيي خلال بحران الحمى !.. **ونبذت الى الابد كل مشروع للاثراء والرفعة ، معتزما ان أقضى فى الاستقلال والفقر ، الفترة القصيرة التى تبقت لى فى الحياة ، فاستخدمت كل قوى روحى فى تحطيم أغلال الرأى العام ، وفى أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرا ، دون ان أحفل البتة برأى الناس .** وكانت العقبات التى اضطررت لمغالبتها ، والجهود التى بذلتها للانتصار عليها ، فوق كل تصور. وقد وفقت بقدر المستطاع، بل واكثر مما كنت أرجو . ولو اننى نجحت فى أن ادفع عنى ربقة الصداقة ، بقدر توفيقى فى التحرر من ربقة الراى العام ، لبلغت غاية مأربى ، بل لعلها كانت أعظم الغايات التى خطرت لمخلوق فان ، وادعاها ـ على الأقل ـ للفضيلة .. على اننى ـ اذا رحت اتخبط تحت اقدام الأحكام الخرقاء التى تصدر عن قطيع الأدعياء الذين يسمون العظماء، والذين يسمون الحكماء ـ أسلم نفسى وانقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون انفسهم أصدقاء ، والذين كانوا يغارون من أن يرونى اشق وحدى طريقا جديدة . وأنا أبدو جد منهمك فى اسعاد نفسى ، فلم يعودوا يفكرون ـ فى الواقع ـ الا فى أن يجعلونى مثارا للضحك، وشرعوا فى العمل على تحقيرى ، لكى يصلوا من وراء ذلك الى تشويه سمعتى !.. **كان تغير شخصيتى ، الذى بدأ فى هذه الفترة ـ وليست شهرتى الأدبية ـ هو الذى أثار غيرتهم منى .. ولعلهم كانوا على استعداد لأن يغفروا لى ان لمعت فى فن الكتابة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لى ان ضربت بمسلكى مثالا بدا أنه ضايقهم !..** لقد فطرت على الود ، فكانت طباعى السلسة الوديعة تغذى هذا الود دون عناء . ولقد كنت محبوبا من كل أولئك الذين عرفونى ، طالما كنت اعيش مجهولا لدى الراى العام ، فلم يكن لى عدو واحد .. على ان اسمى لم يكد

يلمع ، حتى أصبحت بلا اصدقاء !.. وكانت هذه نكبة كبرى، ولكن الأكبر منها أننى كنت محاطا بقوم كانوا يسمون انفسهم أصدقاء ، فى حين انهم لم يكونوا يستغلون الامتيازات التى يتيحها لهم هذا الاسم،الا لكى يجروننى الى الهلاك !.. ولسوف تتكشف فى سياق هذه المذكرات ، تلك المؤامرة البشعة . على أننى سأكتفى ـ فى الوقت الحاضر ـ بأن اشير الى أصلها ، وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت اولى حلقاتها !

***

• كان لابد لى ، فى الاستقلال الذى اردت ان أحيا فيه ، من ان احصل على القوت . وصور لى خيالى وسيلة جد سهلة ، هى نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة . ولو ان عملا اكثر ثباتا من هذا كان يؤدى الى الغاية ذاتها ، لأقدمت عليه . ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولى ، كما انها كانت الوحيدة الكفيلة بأن تهيىء لى قوتى من يوم الى آخر، دون أن تقتضينى خضوعا او تبعية لأحد . **ومن ثم فقد قنعت بها .. واعتقادا منى بأننى لم أعد بحاجة الى ان أعول هم المستقبل ، خنقت صوت غروري ، وانقلبت من صراف لأحد رجال المال ، الى ناسخ موسيقى !..** وظننت اننى قد كسبت كثيرا بهذا الاختيار، فلم يداخلنى ندم يذكر ، حتى أننى لم اتخل عن هذه المهنة الا بحكم الظروف القاهرة، لأعود فاحترفها بمجرد ان وسعنى ذلك

ولقد ادى نجاح مقالى الاول الى زيادة تيسير تحقيق هذا القرار . وقد تكفل ديدرو بطبع المقال بعد فوزه بالجائزة . وقد كتب لى ـ وانا طريح الفراش ـ رسالة اعلننى فيها بنشر المقال وبنتيجة ذلك . فقال: « لقد حظى بكل اطراء .. وما كان لمثل هذا النجاح مثيل من قبل » . **ولقد منحنى هذا التحبيذ ـ الذى أولاه الرأى العام عن رضى لكاتب مغمور ـ اول اطمئنان حقيقى الى كفاءتى التى كنت فى ريب منها قبل ذلك ، رغم**

مشاعرى الداخلية . وتبينت النفع العظيم الذى كان بوسعى ان أظفر به من هذه الكفاءة ، بالنسبة الى القرار الذى كنت أهم بتنفيذه ، وقدرت ان ناسخا على قسط من الشهرة الأدبية، لن يعانى الحاجة الى العمل اطلاقا !

وما ان استقر رايى وتوطد عزمى ، حتى كتبت الى السيد دى فرانكويى أنبئه بذلك، وأشكر له ـ وللسيدة دوبان كذلك ـ كل أنعمهما ، سائلا اياهما ان يعهدا الى بما يرغبان فى نسخه . ولم يفقه فرانكويى من هذه الرسالة شيئا ، بل ظن أننى مازلت فى بحران الحمى ، فهرع الى دارى، ولكنه وجد أن رأيى كان قد استقر تماما ، الى درجة انه لم يستطع أن يزعزعنى عنه .. وذهب فأنبأ السيدة دوبان والناس كلهم بأننى قد اختبلت ، فتركته يقول ماشاء ، ومضيت فى طريقى . وبدأت اصلاح نفسى بملبسى ، فتخليت عن الزوائد المطرزة بالقصب ، وعن الجوارب البيضاء ، وارتديت قلنسوة مستديرة من الشعر المستعار ، وطرحت عنى سيفى ، وبعت ساعتى ، وهتفت لنفسي فى غبطة تفوق التصور : « الحمد للسماء ، فلن تعود بى حاجة الى تعرف كم الساعة ! » . وتكرم السيد دى فرانكويى بالتريث فترة طويلة ، قبل ان يتصرف بشأن خزانته ، حتى اذا رأى ـ فى النهاية ـ اننى مصر على قرارى ، عين السيد داليبار، الذى كان قبل ذلك مربيا ومعلما لشينونسو فى صغره، والذى كان معروفا فى ميدان فلاحة البساتين بكتابه عن « الزهور الباريسية » (١)

ومما خفف من عنت انقلابى التقشفى ، اننى لم اطبق الزهد

---

(١) اضاف « روسو » الى هذا قوله : « لست اشك اطلاقا فى ان فرانكويى وخلصاءه يرددون رواية مناقضة لهذه ، ولكنى استشهد بما قاله فرانكويى ـ اذ ذاك ـ وما ظل يردده للملأ وقتا طويلا بعد ذلك ، الى ان تكونت المؤامرة . ولابد ان ذوى الادراك السليم والامم الطيبة ، لايزالون يذكرون قوله »

ـ فى البداية ـ على ملابسى الداخلية المتبقية ممـا كان لدى فى (البندقية) فقد كانت جميلة ووفيرة ، وكنت مولعا بها بوجه خاص . وبفضل اضطرارى الى ان اتخذها مظهرا للنظافة ، اذا بى أجعلها موضع بذخ وترف، الأمر الذى لم يلبث ان أبهظنى. ولقد تـكرم على شخص ما فخلصنى من هـذه الربقة . ففى أمسية عيد الميلاد ، وبينما كانت الخادمات فى قداس الغروب ، بينما كنت فى « حفلة موسيقية روحية» (١) اغتصب باب غرفة فى أعلى الدار ، كان غسيلنا منشورا فيها بعد غسله .. وسرقت الثياب جميعها ، وكان بينها اثنان واربعون قميصا لى من أبدع الأقمشة ، كانت تؤلف الشطر الاكبر من ثيابى الداخلية. ومما ذكره الجيران شوهد رجل يغادر الدار ـ فى تلك الفترة ـ حاملا بعض اللفائف . ولقد ارتابت تيريز واياى فى أخيها ، الذى عرف بانه امرؤ سوء .. وراحت الأم تدفع هذا الاشتبـاه بحمية ، ولكنه تأكد بأدلة كثـيرة عززته لدينـا ، بالرغم من استنكارها اياه . ولم اجسر على القيام بتحقيق دقيق، خشية ان أكتشف اكثر مما كنت احب . على أن الأخ لم يظهر بعد ذلك فى دارى، وما لبث ان اختفى تماما. ولقد رثيت لسوء طالع تيريز وطالعى، لارتباطنا بأسرة على هذه الشاكلة ، ورحت اناشـدها اكثر من ذى قبل ، أن تطرح عنها عبءا خطيرا كهذا . ولقد أبرأنى هذا الحادث من ولعى بالثياب الداخلية الجميلة ، ولم أعـد أقتنى بعد ذلك سوى ثياب من أقمشة عادية، تتمشى مع بقية ملابسى.

واذ استكملت انقلابى الاصلاحى بهذا الشكل ، لم يعـد لى من هم سوى أن أدعمه وأعززه، بالعمل على ان أجتث من قلبى كل ما كان عرضة للتأثر بآراء الناس.. وكل ما كان بوسعه أن يحولنى ـ بدافع من الخوف أو من اللوم ـ عن كل ما كان فى حد

---

(١) وهى حفلات لا تعزف فيها سوى الموسيقى الدينية ، كنوع من الرياضة الروحية .

ذاته طيبا ومعقولا . والى جانب الضجة التى احدثها مقالى ، اثار قرارى ضجة هو الآخر ، وجلب على عملا مكننى من ان ابدأ مهنتى الجديدة بتوفيق لا بأس به . على أن عدة أسباب عاقتنى عن ان انجح فى هذه المهنة بالقدر الذى كنت قمينا بأن احصل عليه فى ظروف اخرى . وكان اول هذه الأسباب صحتى السيئة . فان مرضى الأخير خلف معقبات منعتنى من ان استعيد حالى الصحية السابقة ، وانى لأعتقد بأن الأطباء الذين اسلمت نفسى الى رعايتهم، الحقوا بى من الضرر فوق ما الحقه المرض. فلقد سعيت بالتوالى الى موران، فدوران، فهيلفيتيوس، فمالوان ، فثييرى . . وكانوا جميعا من الأساتذة ، وكلهم من اصدقائى ، وقد عالجنى كل منهم على طريقته دون ان يخفف عنى شيئا ، بل انهم أضعفونى كثيرا . وكنت كلما حملت نفسى على اتباع ارشاداتهم ، ازددت شحوبا ، وهزالا ، وضعفا . واخذ خيالى – الذى ازعجوه – يقيس حالى بمدى مفعول عقاقيرهم ، فلم يعد يصور لى سوى سلسلة متتابعة من الآلام، التى تسبق الموت ، ومن احتباس البول ، والحصباء ، واحجار القبر ! . . كانت كل ألوان العلاج التى تخفف عن الغير – من مياه طبية، وحمامات، وحجامة– لاتزيد أوجاعى الا استفحالا . واذ وجدت ان مجسات داران – وهى الوحيدة التى ادت الى بعض النتائج ، وجعلتنى اعتقد ان لا سبيل لى الى الحياة بدونها – لم تكن تهيىء لى ، رغم ذلك ، سوى تسكين مؤقت للأوجاع ، فقد بادرت الى انفاق مبلغ جسيم فى اقتناء كمية هائلة من المجسات تكفينى طيلة العمر ، ولو فارق داران الحياة! . . ولا بد اننى انفقت خمسين «لوى» على الاقل ، خلال السنوات الثمانى أو العشر التى استخدمت فيها هذه المجسات دون انقطاع ! . . ومن اليسير تبين ان علاجا باهظ النفقات ، مؤلما مزعجا كهذا ، كان يشغلنى عن العمل ، وان المرء اذا ما كان

مشرفا على الموت ، لايشعر برغبة ملهوفة فى كسب خبزه اليومى !

***

• وكانت الشواغل الأدبية ملهاة أخرى ، لاتقل عن سابقتها عدوانا على عملى اليومى . فما هو ان نشر مقالى ، حتى انقض على حماة الأدب ، وكأنهم عصبة جمعت صفوفها . **وغاظنى أن أجد مثل هذا العدد من ((السادة جس)) الصغار (١)، يحاولون أن يفرضوا سلطانهم وان لم يكونوا على دراية بالأمر ، فقد امتشقت قلمى ، وعالجت فريقا منهم بطريقة لم تدع ضحكات فى صفوفهم !** •• وكان اول المتهاوين تحت طعنات قلمى ، سيد من (نانسى) يدعى السيد جوتييه ، فقد أهين بغلظة فى رسالة الى «جريم» . أما الثانى، فكان الملك «ستانيسلاس» (٢)نفسه، الذى لم يتورع عن ان يخوض المعركة ضدى . وقد اضطرنى الشرف الذى أضفاه على ، الى ان ابدل لهجتى فى الرد عليه ، فاتخذت لهجة أكثر وقارا ، وان لم تكن اقل شدة . ففندت رسالته تماما ، دون ان اغض من احترام المؤلف . ولقد عرفت انجيزويتيا يدعى الأب«مينو» كان ذا يد فىالموضوع، فاعتمدت على فطنتى فىالتفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب، وانقضضت دون اشفاق على كل العبارات الجيزويتية ، فكشفت - فى طريقى - عن خطأ تاريخى كنت اعتقد أنه لايصدر الا عن قلم قداسته. وهذا المقال- الذى كان اقل من سواه أثارة للضجيج

---

(١) السيد «جس» احدى شخصيات مسرحية موليير « طبيب الغرام وقد استعار « روسو » هذا الاسم ليرمز الى المتحامل الذى تعميه المصلحة الشخصية عن الحق

(٢) الملك ستانيسلاس الاول ، ملك بولندا وقد عاش من سنة ١٦٧٧ الى سنة ١٧٦٦ ، وخلفه « ستانيسلاس » الثانى ، آخر ملوك بولندا ، وقد عاش بين سنتى ١٧٣٢ و١٧٩٨ ، والغالب ان « روسو » قصد اولهما

لسبب ما ــ يعتبر فى حد ذاته فريدا فى نوعه . **فقد انتهزت** فيه الفرصة لأبين للراى العام كيف ان فى وسع فرد معين ان يذود عن قضيــة الحق ، ضد عاهل ذى سلطــان . وكان من العسير أن اتخذ لهجة أبيه ومحترمة ــ فى الواقت ذاته ــ تفوق تلك التى اتخذتها فى ردى عليه . وكنت مجدودا اذ قدر لى ان انازل غريما كان قلبى مفعما نحوه بتقدير كنت أملك ان ابديه له دون ما تملق . **ولقــد ظن اصــدقائى ــ الذين انزعجوا من أجلى ــ انهم لن يلبثوا أن يرونى فى «الباستيل»، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلنى لحظة واحدة .. وكنت محقا . فقد قال هذا الامير الطيب، بعد أن اطلع على ردى : « لقدتلقيت جزائى، ولن أزج بنفسى فى الأمر بعد ذلك »** . ومن ذلك الحين ، تلقيت منه الكثير من امارات التقدير والكرم ــ التى سأضطر الى ذكر بعضها ــ وانتشر مقالى فى فرنسا وأوربا فى هــدوء ، ودون ان يجد امرؤ فيه منفذا الى لوم !

وصادفت ــ بعد ذلك بقليل ــ غريما آخر لم اكن اتوقعــه هو السيد «بورد» الذى كنت اعرفه فى (ليون) ، والذى أولانى ــ قبل عشر سنوات ــ كثيرا من الود، وادى لى عدة خدمات . ولم أكن قد نسيته ، ولكنى كنت قد تغافلت عنه تكاسلا ، كما اننى لم أكن قد ارسلت اليه مؤلفاتى، اذ عازتنى الفرصة المواتية لأبعث بها اليه ، وكنت فى ذلك مخطئا . ولقد هاجمنى ــ ولكن فى أدب وأمانة ــ فرددت عليه بنفس اللهجة . وعاد الى الهجوم باصرار ، فأفسح بذلك المجال الى رد مفحم ، لم ينبس بعــده بكلمة (١) ، ولــكنه صار اشد اعــدائى ضراوة ، وانتهز وقت محنتى ليوجه الى شتائم مقذعة ، كما رحل الى لندن خصيصا لكى يسعى الى ايذائى !

---

(١) يبدو ان الذاكرة خانت « روسو » هنا ، اذ انه لم يوجه الى « بورد » سوى رد واحد ، بشأن مقاله : « فى فوائد العلوم » ولم يرد اطلاقا على مقال ثان لنفس الكاتب فى الموضوع ذاته .

ولقد شغلتنى هذه المجادلات القلمية كل الشغل ، اذ بددت كثيرا من الوقت الذى كان يتطلبه عملى فى النسخ ، وعاقت تقدمى فى طلب الحقيقة ، وحدت من الكسب الذى كان يدخل جيبى . وكان « بيسو » ـ ناشر مؤلفاتى فى ذلك الحين ـ لايمنحنى دائما سوى مبالغ زهيدة جدا فى مقابل كتيباتى ، وكثيرا ماكان لايدفع شيئا البتة . ومن أمثلة ذلك اننى لم اتلق درهما واحدا عن رسالتى الأولى ، اذ اعطاه ديدرو اياها دون مقابل . وكان لابد من ان انتظر طويلا ، وان انتزع منه القليل ـ الذى كان يجود به ـ «سو» اثر «سو» . وفى الوقت ذاته ، لم تكن سوقى فى النسخ رائجة ، فقد كنت مشغولا بمهنتين ، وهذه هى الوسيلة لكى اسىء اداء كل منهما !.. **ولقد تعارضت هاتان المهنتان فى ناحية اخرى ، وقد تمثل هذا التعارض فى تباين أسلوب الحياة الذى كانت كل منهما تضطرنى الى انتهاجه .. ذلك ان نجاح مؤلفاتى الأولى ، جعلنى قبلة الأنظار . اذ اثارت المكانة التى احتللتها فضول الناس ، وولد الرغبة فى معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار ، الذى لم يكن يخطب ود أحد ، ولا يحفل الا بأن يعيش على سجيته طليقا ، سعيدا ..** وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التى كنت انشدها مستحيلة ، اذ لم تعد حجرتى تخلو من اناس كانوا يفدون ليسلبونى وقتى بمختلف الحجج . وعمدت النساء الى الف حيلة لاستدراجى الى موائدهن .. وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا اصرارا على ملاحقتى .. ولم أعد أقوى على صدهم جميعا ، ففى الوقت الذى جلبت فيه على نفسى الف عدو ـ بسبب الرفض ـ كانت رغبتى فى مجاملة الغير تستعبدنى ، ولم اعد احظى من يومى بساعة واحدة لنفسى ، مهما أحاول !

***

بهو اصحاب المكتبات فى الباليه رويال

• وادركت اذ ذاك ان العيش فى فقر وحرية ، ليس دائما بالسهولةالتى يتصورها المرء. فلقدشئت ان أعيش على مهنتى، ولكن الجمهور لم يشأ ! .. وكانوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة لتعويضى عن الوقت الذى كان يضيع على ، فاذا الهدايا — من

بشخصه (١) . ولم اعرف عبودية اكثر قسوة واذلالا من هذا، ولا رأيت له علاجا سوى ان ارفض جميع الهدايا ، كبيرها وصغيرها ، دون ما استثناء لارضاء أحد !.. ولم يؤد كل هذا الا الى اجتذاب واهبى الهدايا ، الذين كانوا يطمعون فى أن يحظوا بفخر التغلب على صدودى ، وان يدينونى بفضلهم بالرغم منى . وكم من امرىء كان يضن على بـ «ايكو» واحد ـ لو اننى طلبته ـ ولكنه راح يضايقنى بعطاياه دون انقطاع، وهو يتهمنى بالغطرسة والكبر ، ليثأر لنفسه من رفضى !

ولا بد أن القارىء قد حدس ان القرار الذى كنت قد اتخذته، والنهج الذى رغبت فى انتهاجه ، لم يصادفا هوى لدى السيدة لوفاسير . ولم يفلح كل ما كان لدى ابنتها من تجرد من النفع الذاتى ، فى ان يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجيهات أمها ، ومن ثم فان «الدادتين» (٢) ـ كما اعتاد جوفكور ان يسميهما ـ لم تكونا حازمتين دائما مثلى فى رفض الهدايا ، من ناحيتهما .

ومع أن كثيرا من الأشياء كانت توارى عنى، الا اننى رأيت ماكان كافيا لان يقنعنى بأننى لم أر كل شىء !.. وقد عذبنى هذا ، لا خشية ان أتهم بالتواطؤ معهما ـ وهو ما تنبأت بأننى ملاقيه عما قريب ـ وانما بسبب الفكرة القاسية التى أوحى بها عجزى من أن أكون صاحب السلطان فى بيتى ، وعلى نفسى ! .. ولقد رجوت، وتوسلت ، وغضبت .. دون جدوى !. ولقد صورتنى الأم فى صورة المتذمر الأبدى التأنيب والتوبيخ ، ورمتنى بأننى مشاكس شرس .. وكانت لا تفتأ تتهامس مع أصدقائى .. كان كل شىء فى بيتى محوطا بالغموض والاسرار ، ولكنى ـ اتقاء

---

(١) بوليشينيل : شخصية وردت فى خرافات (نابولى) القديمة ، يرتدى صاحبها قبعة ذات قرنين ، وقد تضخم جسمه من امام ومن خلف ، وله انف كمنقار الدجاجة ، وصوت اجش حاد ينطلق فى خفة (اخنف) .. وهو رجل شرس ، صاخب ، عربيد ، مشاكس

(٢) الواقع ان التعبير الدارج « دادة » ادق من « مربية » فى اداء المعنى هنا

للتعرض للعواصف دون انقطاع ـ لم أعد أجرؤ على الاستفسار عما كان يجرى . ولقد كان التخلص من هذا الازعاج يتطلب حزما لم أكن أملكه ، اذ انني كنت اعرف كيف أصيح ، ولكنني كنت لا ادرى كيف اقرن الصياح بالعمل . . فتركت أصيح ، وظل كل شيء ماضيا فى مجراه !

هذه المزعجات المستمرة ، وهذه المضايقات اليومية التى كنت فريسة لها ، جعلت ـ فى النهاية ـ مسكنى ومقامى فى باريس من ابغض الامور . وكنت اذا ما سمحت لى صحتى بالخروج ، واذا لم انساق الى هنا أو الى هناك تحت اغراء معارفى ، اتمشى وحيدا ، وانا أحلم بخطتى العظيمة فى الحياة . وكنت اسطر بعض الخواطر ، مستعينا بمفكرة بيضاء وقلم من الرضاص اعتدت ان احتفظ بهما فى جيبى . وهكذا دفعت بى المضايقات الخفية لحال أخترتها لنفسى ، الى مهنة الأدب نهائيا ، فقد رحت الوذ بها فرارا من تلك المضايقات . وهذا هو السر فى اننى بثثت كل مؤلفاتى الأولى ، المرارة والضيق اللذين دفعانى الى أن اشغل نفسى بكتابتها

وهناك عامل آخر ساهم فى ذلك . . فاننى حين اقحمت ـ بالرغم منى ـ فى المجتمع ، دون ان أوتى طباعه ، او ان أكون على استعداد لأن أكتسبها ، قررت ان اتخذ لنفسى طباعا خاصة تغنينى . واذ كانت حماقتى وحيائى الممض ـ اللذين عجزت عن مغالبتهما ـ صادرين أصلا عن الخوف من أن تعوزنى آداب اللياقة ، فقد رأيت ـ لكى اشجع نفسى ـ ان ادوس تلك الآداب تحت قدمى . **وأحالنى الحياء الى هجاء مقذع لاذع ، وحرصت على ان ازدرى آداب اللياقة التى لم أتعلم كيف أمارسها . ومن الصحيح ان هذه الغلطة تمشت مع مبادئى الجديدة ، فاذا بها تكتسب سموا فى عقلى ، وتتخذ مظهر الجراة المنبثقة عن الفضيلة ..** واستطيع أن اذهب الى القول بأنها بهذا الشكل الجليل ، استطاعت أن تصمد خيرا ـ ولأمد اطول ـ مما كان

مرتقبا ،بطبيعة الحال ، لجهد مناقض لسجيتى الى هذا الحد. ومع ذلك فاننى كنت اسىء دائما الاحتفاظ بشخصيتى ، فيما بينى وبين نفسى ـ بوجه خاص ـ بالرغم مما ذاع عنى فى المجتمع من نفور من البشر ، أوحى به مظهرى الخارجى وبعض الكلمات التى تنم عن ذلك ! .. واذ راح اصدقائى ومعارفى يقدرون هذا الدب الوحشى وكأنه حمل ، واذ راحوا يحدون من سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية ، العامة ، فاننى لم أكن أملك قط أن أقول كلمة مجاملة واحدة ، لأى امرىء كان !

★ ★ ★

• **وادت** قصة «خراف القرية » الى تألقى فى المجتمع ،فلم يعد فى باريس رجل مرموق فوق ما كنت انا . ويرتبط تاريخ هذه القصة ـ التى تمثل فترة من حياتى ـ بعلاقات كنت قد انشأتها فى ذاك الحين . وهذه تفصيلات ارى واجبا على ان اتناولها ، لكى تفهم القصة حق الفهم

كان لى عدد كبير جدا من المعارف ، بيد اننى لم اصطف منهم سوى صديقين ، هما « ديدرو » و«جريم» . ونظرا لما اوتيت من رغبة فى أن أجمع بين كل اولئك الاعزاء لدى ، فان صداقتى الوثيقة لكل منهما ، لم تدع مناصا من ان يصبح كل منهما صديقا حميما للآخر، اذ اننى جمعتهما معا ، فاذا بهما ينسجمان، وسرعان ما غدا كل منهما اوثق صلة بالآخر منه بى أنا . وكان لديدرو معارف لاحصر لهم ، أما ((جريم)) ، فقد كان يشتهى المعارف ، اذ كان أجنبيا وحديث عهد بالبلاد . ولم أكن أطمع فى أكثر من أن أوفر له هؤلاء المعارف . فأتحت له صداقة ديدرو ، وصداقة جوفكور .. واصطحبته الى دار السيدة دى شينونسو ، ودار السيدة ديبيناى، ودار البارون دولباخ ، الذى وجدتنى مرتبطا به على الرغم منى تقريبا !.. وغدا كل اصدقائى اصدقاء له . وكان هذا الأمر غاية فى السهولة ، ولكن.

احدا من اصدقائه لم يصبح يوما صديقا لى ! .. واليكم ماكان يحول دون ذلك :

لما كان جريم يقيم فى بيت الكونت دى فرييز ، فانه كان يدعونا الى الغداء هناك احيانا . ولكننى لم اتلق قط اى دليل على الود أو اللطف من الكونت دى فرييز ، او الكونت دى شومبيرج ـ قريبه الذى كان وثيق الألفة بجريم ـ او من أى شخص آخر ، ذكرا كان أو انثى ، ممن كانت لجريم بهم علاقة ، عن طريق هذين السيدين . وكان الوحيد المستثنى منهم ، هو الراهب « راينال » الذى اثبت انه صديق لى ، وان كان صديقا له ، والذى اعتاد ان يقدم كيس نقوده لى ـ اذا دعت الحاجة ـ فى كرم غير مألوف . على اننى كنت اعرف الراهب راينال قبل ان يعرفه جريم نفسه بوقت طويل ، وكنت أميل اليه دائما ، عقب تصرف مفعم بالرقة واللياقة اسداه الى فى مناسبة طفيفة القيمة ، ولكنى لم انسها البتة .

كان هذا الأب راينال صديقا حميما بالتأكيد . ولقد تسنى لى الدليل على ذلك ، حوالى الوقت الذى انا بصدده تقريبا ، وفى أمر يتعلق بجريم ذاته ، اذ كان على علاقة وثيقة به . فلقد ظل « جريم » بعض الوقت على صداقة خالصة بالآنسة « فيل » ، ثم اذا به فجأة يغدو عاشقا مدلها فى هواها ، وان ينتزعها من « كاهوساك » . ولكن الحسناء طردت هذا المتيم الجديد ، وهى تفخر بوفائها ، فحمل الشاب الأمر محملا اليما ، حتى انه فكر فى الموت . وما لبث ان وقع بغتة فريسة لأغرب مرض سمع به امرؤ . فقد راح يقضى نهاره وليله فى غيبوبة ، تظل خلالها عيناه مفتوحتين ، ونبضه منتظما ، ولكن .. بلا كلام ، ولا طعام ، ولا حركة .. وكان يبدى احيانا ما ينم عن انه كان يسمع ، بيد انه لم يكن يجيب اطلاقا ، ولو بالاشارة ! ..وكان ـ الى جانب ذلك ـ غير منفعل ، ولا متالم ، ولا محموم .. وكان يبقى على هذه الحال ، وكانه ميت ! . وتشاطرت

والراهب راينال رعايته ، فكان الراهب ـ نظرا لتفوقه على فى متانة البنيان وقوة البدن ـ يسهر الليالى ، بينما كنت اعنى به فى النهار . وكنا لانفارقه اطلاقا ، فلا يبرحه اى منا حتى يصل الآخر . وجزع الكونت دى فرييز ، فأحضر له « سيناك »الذى قال ـ بعد أن فحصه فحصا دقيقا ـ ان لا علة هنـاك ، ولم يصف له دواء . وكان اشفاقى على صديقى قد حملنى على ان أراقب بانعام محيا الطبيب ، فلمحته يبتسم وهو يغادر المكان. ومع ذلك فان المريض ظل أياما عديدة دون حراك ، ودون ان يتناول حساء أو أى شىء، اللهم الا بعض الكريز المحفوظ، الذى كنت أضعه على لسانه بين آن وآخر ، والذى كان يزدرده فى لهفة . وفى ذات صباح بديع ، استيقظ جريم ، وارتدى ثيابه، واستأنف حياته العادية ، دون ان يحدثنى قط ، او يحـدث الراهب ـ فيما علمت ـ أو يحدث اى مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة ، ولا عن العناية التى اوليناه اياها طيلة استمرارها !

ولم يمر هذا الحادث دون ضجة ، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقا ، ان تؤدى قسوة احدى غانيات الاوبرا ، الى ان يموت رجل لفرط اليأس ! .. واذاعت هذه العاطفة الرائعـة صيت « جريم » فى المجتمع ، حتى لقـد اشتهر بانه معجزة الحب ، والصداقة ، والوفاء ، فى كافة الاعتبارات . وجعلته

هذه الفكرة مرموقا ، ومكـرما لدى المجتمع الراقى . وبهـذا تباعد عنى ، انا الذى لم أكن بالنسبة له اكثر من تكأة أو أداة !..
ورأيت انه على وشك ان يغدو غريبا عنى ، فأحزننى ذلك ، اذ ان كل المشاعر المضطرمة التى كان يتظـاهر بها ، كانت عين المشاعر التى خالجتنى نحوه ، دون ان اتظاهر بها . ولقد كنت مغتبطا لنجاحه فى المجتمع ، ولكننى لم اكن أحب له ان ينسى اصدقاءه فى غمرة هذا النجاح . ولقـد قلت له يوما : « انك لتهملنى يا جريم ، وانى لأغفر لك ذلك . فاذا ما انتهى مفعول النشوة الأولى لهذا النجاح المدوى ، وشرعت تتبين انه فارغ ، فانى آمل ان تعود الى ، ولسوف تجدنى دواما كما عهدتنى . اما فى الآونة الحاضرة ، فلا تضايق نفسك ، فسوف ادعك تفعل ما يحلو لك ، وسوف انتظرك » . وقال لى اننى كنت على حق ودبر خطته على هـذا النسق ، وانطلق فى طريقه الى نهـاية الشوط ، حتى اننى لم أعـد اراه الا مع الاصدقاء المشتركين لـكلينا !

وكانت دار البارون دولباخ هى ملتقانا الرئيسى ، قبـل ان يرتبط بمدام ديبيناى ارتباطا وثيقا . وكان البارون المذكور ابنا لرجل عصامى وقد اوتى ثروة عظيمة جدا ، فاسـتغلها استغلالا نبيلا ، وفتح داره لأهل الأدب والفضل ، واستطاع بتنوره ومعرفتـه ان يملأ مكانه بينهم . واذ كان على علاقـة بديدرو منذ أمد طويل ، فقد سعى عن طريقه الى التعرف بى ، قبل ان يغدو اسمى معروفا . وصـدنى نفور طبيعى عن ان استجيب لتقربه فترة طويلة . وقـد سألنى عن السبب ذات يوم ، فقلت له : « انك واسع الثراء » . ولكنه الح فى طلب ودى ، واستطاع ان يتغلب على توجسى فى النهاية . لقد كانت نكبتى الـكبرى دائما ، هى عجزى عن مقاومة الاطراء واللطف ، وما وجدتنى يوما اتخلى عن هذه الشيمة !

***

• ومن حالات التعارف التى تحولت الى صداقة بمجرد ان وجدت من حقى ان انشدهـا ، معرفتى بالسيد ديكلو . ولقد انقضت عدة سنوات مذ رأيته ـ للمرة الأولى ـ فى (لاشيفريت)، لدى السيدة ديبيناى ، التى كان على صلات طيبة بها . ولم نحظ بأكثر من ان تناولنا الغداء معا ، ثم رحل فى اليوم ذاته .. ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء . وكانت السيدة ديبيناى قد حدثته عنى وعن أوبراى « عرائس الشعر اللطاف » . وكان « ديكلو » ذا مواهب عظيمة ، اسمى من ان تجعله يصدف عن حب الموهوبين ، ومن ثم فقـــد مال الى ، ودعانى الى زيارته . وبالرغم من ميلى القديم(١) ، الذى عززته المعرفة ، فان حيائى وكسلى ظلا يعوقاننى طويلا، حتى لم يبق ثمة ما يقربنى اليه سوى لطفه وحفاوته . على اننى تشجعت بنجاحى الاول(٢) وبما بلغنى من اطرائه هذا النجاح ، فقمت بزيارته ، وجاء لزيارتى ، وهكذا بدأت بيننا روابط ستظل تجعلنى اعتز به دائما ، واليها ـ والى شهادة قلبى الصادق ـ ادين بمعرفة ان الاستقامة والوفاء ، قد تقترن احيانا بالثقافة الأدبية !

ولقد كانت كثير من علاقاتى ـ التى تقل متانة عما ذكرت ، والتى اتجاوز عن ذكراها هنا ـ نتيجة مرات نجاحى الأولى ، وقد دامت الى ان قـــدر لفضول اصحابها ان يرتوى . فلقد كانت نفسى تتكشف على حقيقتها سريعا ، فلا يعود ثمة جديد يرى فيها بعد اليوم الاول للتعارف ! .. **على أن من النساء اللائى سعين الى التعرف بى فى تلك الآونة ، امرأة صارت اقوى صلة بى من ســواها . تلك هى السيدة المركيزة دى كريكى ، ابنة اخ الســيد « لوباييلى دى فرولاى » ، الذى كان سفيرا لفرنسا فى (مالطة) وكان اخوها سلفا للسيد دى مونتيجى فى**

(١) ميله الى كل من يبدى له اللطف والاطراء
(٢) نجاح رسالة فى فوائد العلوم الحديثة

السفارة الفرنسية فى (البندقيـــة) ، وزرته عقب عودتى من تلك المدينة .. ولقد كتبت السيدة دى كريكى الى ، فذهبت لزيارتها .. واستقبلتنى فى مودة ، وتناولت الغداء لديها بضع مرات ، وقابلت لديها كثيرا من الأدباء .. منهم السيد سوران ـ مؤلف « سبـارتاكوس » و « بارنيفلت » وغيرهما ـ الذى اصبح من ذلك الحين الد أعدائى ، لغير ما سبب أستطيع ان اتصوره ، سوى اننى احمل اسم رجل كان ابوه قد اضطهده بخسة وظلم .

ويرى من هذا ، اننى ـ كناسخ كان ينبغى ان يشغل بمهنته من من الصباح الى المساء ـ كنت أصادف كثيرا من الشواغل التى كانت تعوق عملى اليومى عن ان يكون جد مربح، وكانت تمنعنى من أن أعنى العناية الواجبة بما كان مصدرا لرزقى . وكنت أضيـع اكثر من نصف الوقت المتبقى لى ، فى محـو او كشط الأخطاء التى كنت ارتكبها فيما انسخ ، او فى اعادة كتابته من جديد . وقد ادى هذا الازعاج الى ان أصبحت لا اطيق باريس يوما بعد يوم ، والى حملى على ان انشد الريف برغبة قوية . فذهبت عـدة مرات لأقضى اياما فى (ماركوسى) ، التى كانت مدام لوفاسير على معرفة باسقفها . . وقد استطعنا ان ندبر الأمر بحيث انه لم يجد أى ضير فى مقامنا فى داره . ولقد ذهب معنا « جريم » مرة الى هنـاك(١) . وكان الأسقف ذا صوت رخيم ، كما كان يجيد الغناء ، ومع انه لم يكن ملما بالموسيقى ، الا انه كان يستطيع ان يحفظ دوره بدقة . ومن ثم فقد قضينا

---

(١) اضاف « روسو » الى هـذا ، الاستدراك التالى :- « لما كنت قد اغفلت هنا ذكر حادث تافه ، ولكنه جدير بالذكر ، وقع لى مع « جريم » المذكور ذات صباح ، وقد اعتزمنا تناول الغداء عند عين (سان فاندريل) ، فاننى لن اعود الى هذا الحادث . ولكننى حين فكرت فيه ـ فيما بعد ـ استنتجت ان جريم كان يبيت النية فى قرارة قلبه ـ منذ ذلك الحين ـ على المؤامرة التى نفذها فيما بعد بنجاح رائع » !

الوقت فى ترديد الأغانى الثـــلاثية التى كنت قد وضعتها فى (شينونسو) ، كما لحنت أغنيتين أو ثلاثا جـــديدة ، وضع « جريم » والأسقف كلماتها بقدر ما وسعهما . ولست املك أن أمنع نفسى عن التحسر على تلك الاغانى الثلاثية التى وضعت فى لحظات مفعمة بالغبطة الخالصة ، والتى تركتها فى (فوتون) ومعها جميع قطعى الموسيقية . ولعل الآنسة دافنبورت قد اتخذت منها أشرطة ورقية للف شعرها .. على انهـــا كانت جديرة بأن تصان ، فقد كانت ــ فى الغالب ــ دقيقة الوزن . وحدث بعد احدى هذه الرحلات القصيرة ــ وقد اغتبطت لرؤية « العمة » منشرحة مسروزة ، كما كنت انا الآخر مبتهجا ــ ان كتبت الى الاسقف خطابا شعريا ، نظمته فى عجلة وفى غير عناية .. وسيوجد بين اوراقى

***

• **وكان** لى ــ فى مكان اكثر قربا من باريس ــ ملاذ آخر يلائم مزاجى .. تلك هى دار الســـيد « موسار » ، مواطنى وقريبى وصديقى ، الذى اعد لنفسه مأوى فاتنا فى (باسى) ، قضيت فيه كثيرا من اللحظات الوادعة . وكان السيد موسار تاجر مجوهرات ، وكان رجلا سليم الذوق ، جمع من حرفته ثروة طيبة ، وزوج ابنته الوحيدة من السيد دى فالميت ــ ابن صراف ومدير فندق الملك ــ ثم استقر رأيه الحكيم على ان يهجر فى ايام شيخوختـــه التجارة والعمل ، لينعم بالراحـــة والاستجمام فترة من الزمن ، بين هموم الحياة ونهاية الأجل . وكان « موسار » الطيب فيلسوفا عمليا حقا ، فكان يعيش بلا هموم ، فى دار بديعة ابتناها لنفسه ، وفى حديقة غناء زرعها بيديه . **وفيما كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة ، عثر على قواقع متحجرة ، ووجدها بكميات كبيرة الى درجـة ان خياله المتوثب لم يعد يرى فى الطبيعة سوى قواقع ، حتى انتهى أخيرا الى الايمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع !.. وأصبح**

لايفكر دائما الا فى هذا الأمر ، وفى اكتشافه الفذ ، حتى اهاجته هذه الافكار ، واوشكت - فى النهاية - ان تتخذ فى رأسه شكل نظرية - اعنى خبلا - لولا ان الموت تدخل فى الامر - لحسن حظ عقله ، ولسوء حظ اصدقائه الذين كانوا يعتزون به ، ويجدون فى داره ابدع مأوى - فانتزعه من بينهم ، متوسلا بأغرب وأقسى مرض .. ذاك هو تورم فى معدته ، كان دائم التضخم ، وكان يحرمه من الأكل ، دون ان يتبدى سببه رغم طول العهد به ، ثم انتهى بموته جوعا ، بعد سنوات عديدة من العذاب !.. ولست أملك ان استرجع نهاية عمر هذا الرجل ، دون أن ينقبض فؤادى . فقد ظل يستقبلنا - « لينييب » وأنا - بسرور عارم .. وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم يحملهما منظر الآلام التى كان يعانيها ، على أن ينأيا عنه الى آخر ساعة فى حياته .. وانى لأذكر انه لم يكن اذ ذاك ليقوى على التهام الطعام - الذى اعتاد أن يأمر بتقديمه الينا - الا بعينيه ، ولا كان يطيق ابتلاع بضع قطرات من الشاى الخفيف ، الا ليلفظها فى اللحظة التالية ! .. ولكن كم من أوقات - قبل تلك الآلام - قضيتها فى داره مسرورا ، مع النخبة التى اصطفاها من الأصدقاء ! .. وانى لأضع على رأس هؤلاء الراهب « بريفو »(١) ، وكان شخصا لطيفا ، سلسا ، يستلهم قلبه ما كان يكتب من أشياء جديرة بالخلود ، ولا يبدى - سواء فى مظهره أو فى معشره - شيئا من ذلك الجو القاتم الذى فرضه على مؤلفاته .. والطبيب « بروكوب » ، وكان « يعسوب » صغيرا (٢) ، ذا حظوة لدى النساء ، و« بولانجيه » المؤلف المزعوم

(١) اشتهر باسم « الأب بريفو » ، واسمه الأصلى « بريفو ديكسيل » . وهو مؤلف قصة « مانون ليسكو » الخالدة . وقد ولد فى سنة ١٦٩٧ ومات فى سنة ١٧٦٣

(٢) يعسوب : شخصية اسطورية اغريقية ، وان كان هيرودوت يقول انه شخصية حقيقية ، وقد عاش فى مصر واشتهر بالرحلات والأدب .

للتمثيلية الموسيقية الهزلية « الاستبداد الشرقى » ، وقد عمد فيما اعتقد ــ الى التوسع فى نظريات « موسار » عن مدى عمر الدنيا . . أما بين النساء ، فأذكر السيدة « دنيس » ابنة اخت « فولتير » ، التى كانت ــ اذ ذاك ــ طيبة ساذجة ، ولم تكن قد زعمت لنفسها شيئا من توقد الفكر . . والسيدة « فانلو » التى لم تكن جميلة حقا ، ولكنها كانت فاتنة ، وكانت فى غنائها كالملاك . . والسيدة « فالماليت » التى كانت تحذق الغناء هى الأخرى ، والتى كانت ــ رغم هزالها ــ بالغة اللطف لو أنهــا خففت من تظاهرها باللطف !! . . هؤلاء كانوا صفوة رواد ندوة السيد موسار ــ تقريبا ــ وقد كانت صحبتهم خليقة بأن تلذ لى ، لولا ان نظرياته عن القواقــع كانت ألذ ، حتى لأذهب الى القول بأننى عكفت لستة أشهر على العمل فى مكتبه ، فى دراسة هذه النظرية ، باغتباط لم يكن يقل عن اغتباطه !

وكان يلح ــ من زمن طويل قبل ذلك ــ بأن مياه (باسى) كانت كفيلة بأن تصلح حالى الصحية ، وكان يلحف فى ان اتردد على داره لكى أتناولها . وقد انصعت أخيرا له ، لــكى انتزع نفسى ــ بعض الوقت ــ من ضجيج المدينة ، فقضيت فى (باسى) ثمانية ايام أو عشرة ، افدت منها كل الفائدة ، بفضل اقامتى فى الريف ، اكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه . وكان «موسار» يهوى العزف على الكمان الكبيرة ، ويشغف بالموسيقى الايطالية . وفى ذات مساء ، أطلنا الحديث ــ قبل ان نأوى الى مخادعنا ــ فى هذا المجال ، وتكلمنا بوجه خاص عن « اوبرا بوفا » ، التى رآها كل منا على حدة ــ فى ايطاليا ــ والتى أعجب بها كل منا اعجابا بالغا . . ولم انم فى تلك الليلة ، فشرعت أفكر فى وسيلة تمكننى من ان أتيح فكرة مثل هذا النوع من « الدراما » لفرنسا ، اذ لم يكن ثمة شبه بين « غراميات راجوند » وهذا النوع(١)

(١) كوميدية موسيقية عرضت فى « الاوبرا » الباريسية فى سنة ١٧٤٢

وفى الصباح التالى ، نظمت على عجل بعض نماذج من الشعر، تتمشى مع هذه الفكرة ـ اثناء ما كنت أتريض وأتناول المياه ـ ونسقتها مع الالحان التى توافدت على رأسى خلال ذلك . وسطرت جميع هذه الاغانى ، فى ((صالون)) ذى قبة ، فوق الحديقة . ثم لم اتورع عن ان اعرضها ـ اثناء تناول الشاى ـ على موسار والآنسة دوفيرنوا مديرة داره ، التى كانت بالغة الطيبة و اللطف حقا . وكانت القطع الثلاث التى نظمتها فى عجلة ، تؤلف الاغنية الفردية الاولى ، وهى : ((فقدت خادمى)) ، و ((عراف القرية)) ، و ((الحب يخشى على نفسه)) .. ثم الثنائى الاخير : ((ابدا لن اخطبك ، يا كولان)) ، الخ : ولم اكن اعول كثيرا على ان هذه المحاولة تستحق عناء المضى فيها . ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لقيتهما من كل منهما ، لكنت خليقا بأن القى قصاصاتى الى النار ، ولا اعود الى التفكير فيها ، كما فعلت من قبل بقطع اخرى كانت تماثل هذه ، على الاقل ! .. ومن ثم فقد وجدتنى متحمسا ، حتى أن ((الدراما)) اكتملت خلال ستة ايام ، فيما عدا بضعة سطور .. كما اننى وضعت افكار الموسيقى كلها ، فلم يعد امامى ما افعله فى (باريس) ، سوى أن أضيف بعض مقطوعات القائية ، وأن املأ بعض الحواشى . وقد فرغت بسرعة من كل هذه ، فلم تنقض ثلاثة اسابيع ، حتى كانت المناظر قد نسخت ، واصبحت مهياة للعرض . ولم يكن ثمة ماينقصها سوى موسيقى الانتقال من منظر الى آخر ، وقد قدر لها ان لا توضع الا بعد ذلك بوقت طويل .

سنة ١٧٥٢

• اثارنى وضع هذا العمل الأدبى الفنى ، حتى لقد تملكنى شوق عارم الى سماعه ، وحتى أننى كنت على استعداد لأن أنزل عن كل شىء ، فى سبيل أن أراه معروضا أمامى ـ بالشكل

الذى كنت أتمثله فى خيـالى ـ فى غرفة موصـدة ، كما فعلت « لولى » ـ فيما يقال ـ اذ شهدت يوما مسرحية « ارميد » تمثل امامها وحدها . ولما لم يكن من الميسور لى أن انعم بهذه المتعة الا برفقة الجمهور ، فقد كان من الضرورى ، لكى تمثل هذه الأوبرا ، من أن تلقى قبولا فى دار « الأوبرا » . **ولكنها ـ لسوء الحظ ـ كانت من نمط جديد كل الجدة ، لم تألفه آذان الجمهور ، كما أن فشل « عرائس الشعر اللطـاف » جعلنى اتوقع المصير ذاته للعراف(١) ، اذا انا قدمتها باسمى . وقـد ساعدنى « ديلكو » على الخروج من هذا المأزق ، اذ تكفل بان يسعى الى اجراء تجارب على المسرحية ، دون ان يكشف عن اسم المؤلف** . ولكى لا انم عن نفسى ، فاننى لم احضر التجربة ، وظـل كل امرىء ـ حتى « الـكمانان الصغيران » (٢) ، اللذان توليا الاخراج ـ يجهلان اسم المؤلف ، الى ان شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية . ولقد فتن كل من سـمعها ، حتى ان جميع الاوساط لم تتحدث الا عنها فى اليوم التالى . **ولقد شهد السيد كورى ـ مدير حفلات البلاط ـ التجربة ، فطلب المسرحية لتعرض فى البلاط** ، ولكن ديكلو ـ الذى كان يعرف نواياه فخشى أن يكون سلطانى على المسرحية فى البلاط أقل منه فى باريس ـ رفض ان يسلمه اياها ، فعاد كورى يطلبها بحكم منصبـه . واحتدم الجدال بينهما ، حتى لقد تطور ذات يوم ـ وهما فى « الأوبرا » ـ فأوشكا أن يخرجا ليتبـارزا ، لولا أن حيـل بينهمـا .

وروُى الاتصال بى بشأنها ، ولكنى تركت البت فى ذلك الى السيد ديكلو ، فكان لابد من الرجوع اليه . وتوسط السيد

(١) اطلق روسو على هذه « الاوبرا » اسم « عراف القرية »

(٢) لقب اشتهر به « ديبيل » و « فرانكور » اللذان كانا يتوليان الاخراج الموسيقى ، وقيادة الفرقة الموسيقية فى « الاوبرا » . وقد سميا بذلك ، لانهما اعتادا فى صباهما ان يطوفا بالبيوت ، وهما يعزفان على « الكمان »

الدوق دومون فى الأمر ، فرأى ديكلو ـ فى النهاية ـ أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة ، وقدمت المسرحية لتمثل فى (فونتينبلو) . وكان الجزء الذى أوليته أعظم اهتمام، والذى نأيت فيه كثيرا عن النهج المألوف ، هو الالقاء الغنائى . فقد نسق الالقاء ـ فى اوبراى ـ بطريقة جديدة تماما ، بحيث يتمشى النغم مع القاء الكلمات . ولكنهم لم يجسروا على ان يستبقوا هذا التجديد ، اذ خيف من ان يصدم الآذان التى ألفت الرتابة . ومن ثم فانني وافقت على ان يضع « فرانكويى » و « جيليوت » ألحانا جديدة للالقاء ، ولكننى رفضت أن تكون لى يد فى ذلك

واذ تم اعداد كل شىء ، وحدد يوم العرض ، اقترح على ان ارحل الى (فونتينبلو) لأحضر التجربة الأخيرة ، على الاقل . فذهبت مع الآنسة « فيل » ، وجريم ، والراهب « راينال » ـ على ما اظن ـ فى احدى العربات الملكية . ولم يكن ثمة باس بالتجربة ، بل اننى كنت اكثر رضى عنها مما توقعت . وكانت الفرقة الموسيقية قوية ، كثيرة النفر ، مؤلفة من موسيقيى «الاوبرا» والفرقة الملكية . وقام « جيليوت » بدور « كولان » ، والآنسة « فيل » بدور « كوليت » ، و « كوفيتييه » بدور العراف . وكان المنشدون من « الاوبرا » . **ولم ادل بغير ملاحظات قليلة، فقد تولى « جيليوت » الاخراج ، فلم أشأ أن أفرض سلطانا على ما فعل . وبالرغم من مظهرى الرومانى ، فاننى كنت فى حياء التلميذ اذا ألفى نفسه وسط كل هؤلاء القوم !**

وفى اليوم التالى ـ وهو يوم العرض ـ ذهبت لاتناول الفطور فى مقهى « الجران كومون » ، فاذا به زاخر بالناس ، واذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة ، وتعذر الدخول الى المسرح . وقال ضابط من الحضور ، انه دخل بلا عناء ،واسهب فى وصف ما حدث داخل المسرح ، كما وصف المؤلف ، وروى ما قاله وما فعله . والذى أذهلنى فى حديثه الطويل ـ الذى القاه

بارون دولباخ

فى بساطة واعتداد ــ انه لم يضم كلمة واحدة من الحقيقة ! ..
بل لقد تجلى لى تماما ، ان هذا الذى تكلم عن التجربة بلهجة العالم ، لم يكن حاضرا البتة ، فقد كان هذا المؤلف ــ الذى قال انه رآه كما صوره ــ حاضرا امام عينيه ، فلم يتعرف عليه !..
وكان اغرب مافى هذه الواقعة ، هو الأثر الذى أحدثته فى نفسى. فلقد كان ذلك الرجل كبير السن ، ولم يكن يلوح عليه غرور الخيلاء ، ولا الزهو ، سواء فى مظهره أو لهجته . بل ان سيماه كانت تنم عن انه رجل فاضل ، كما كان وسام « صليب سان لوى » ــ على صدره ــ يوحى بأنه ضابط قديم . ولقد استاثر باهتمامى بالرغم منى ، ورغم قحته فى الكذب . **وفيما**

كان يمضي فى اكاذيبه ، راح وجهي يتضرج خجلا ، واخذت اغض بصري واتململ فى مجلسي . وكنت أسأل نفسي أحيانا : أليس من الجائز ان يكون قد آمن بكذبه حتى غدا يظنه حقيقة ؟ ! ..
واخيرا ، أسرعت بافراغ قدح « الشيكولاتة » دون ان ابنس ببنت شفة ، وانا ارتجف خشية ان يتعرف علىّ احد فيخجله،

ومررت بمجلسه وأنا منكس رأسي ، وغادرت المقهى بأسرع ما استطعت ، بينما كان القوم ماضين فى الحديث عما كان يصفه . ونفذت الى الطريق وأنا اسبح فى العرق . ولو ان احدا عرفنى وذكر اسمي قبل خروجي ، فاني أوقن بأنني كنت خليقا بأن أبدى من الخجل والارتباك ما يبديه أى مذنب ، لمجرد الشعور بالصغار الذى كان الرجل جديرا بأن يشعر به اذا ما افتضحت أكاذيبه !

* * *

• **وها أنذا** أصل الى تلك اللحظات الحرجة فى حياتى ، فان من العسير ان أقتصر على مجرد الرواية ، لأنه من المستحيل تقريبا أن لا تتأثر الرواية بشيء من النقد أو التبرير . على أنني سأحاول أن أروى كيف تصرفت ، وعن أية بواعث صدرت فى تصرفاتي ، دون أن أضيف ما ينم عن اطراء أو عن لوم

ففي ذلك اليوم المقصود ، بدوت في نفس الزى المهمل الذي الفته ، وقد نمت لحيتي ، وبدا شعرى المستعار غير منسق ، وبهذا المظهر الذي نبا عن اللياقة ، والذى كنت أعتبره دليلا على الشجاعة ، دخلت القاعة التي كان من المنتظر ان يفد عليها الملك والملكة والاسرة الملكية والحاشية بأسرها ، بعد قليل . وتقدمت لأحتل مكاني في المقصورة التي قادني اليها السيد دى «كورى» .. وكانت هي مقصورته ، مقصورة واسعة .. في مواجهة مقصورة اخرى ، اصغر منها حجما ، واكثر ارتفاعا ، جلس فيها الملك والسيدة دى بومبادور . ولم يداخلني شك في انني اجلست كذلك ، لكى ابدو واضحا ، اذ كنت الرجل الوحيد امام مقصورة الملك ، وقد احاطت بى السيدات . وعندما أوقدت أضواء المسرح ، وجدتني — في ملابسى تلك — وسط قوم في اوج الاناقة ، فبدأت اشعر بضيق وحرج . وسألت نفسى عما اذا كنت في المكان اللائق ، وعما اذا كنت في الثياب اللائقة . وبعد لحظات من الحرج ، اجبت نفسى عن هذا التساؤل في جرأة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع ، اكثر مما انبعثت عن قوة حججي : «أجل» !.. وقلت لنفسى : « انني في المكان اللائق بى ، ما دمت قد جئت لأشهد تمثيل مسرحيتي .. واذا كنت في ثيابي المعتادة ، ولست في أفضل أو أقل مما ألفت ، فما ذلك الا لأنني دعيت ، ولأنني الفت هذه الاوبرا لهذا الغرض فحسب ، ولانه — فوق كل شيء — ليس هناك من يفوقني جدارة باستمراء ثمار جهدى ومواهبي ولو أنني عدت الى الخضوع للرأى العام في امر واحد ، فسرعان ما سأصبح عبدا للرأى العام — في كل شيء — من جديد . أما اذا شئت ان اثبت على نهجي ، فمن الواجب ان لا اخجل — اينما اكون — من ان ارتدى ما يتلاءم مع ظروف الحياة التي اخترتها لنفسى . ان مظهرى الخارجي بسيط وغير متأنق ، ولكنه ليس قذرا ، ولا مستهجنا . وكذلك اللحية — في حد ذاتها — مادامت الطبيعة هي التي تخلعها علينا .. بل انها مظهر من مظاهر الزينة

احيانا ، كما تتم تطورات مستحدثات الاناقة . **وقد يرانى الناس مضحكا ، أو سفيها .. حسنا ، وفيم يهمنى هذا ؟ .. يجب ان اتعلم كيف أعرض عن ضحك الناس أو عن نقدهم ، ما دمت لا استحقهما »** !

* * *

• « **وشعرت** بعد هذه المفاجأة القصيرة بالثقة تعاودنى ، الى درجة كانت كافية لأن تجعلنى جريئا .. وهو ما كنت بحاجة اليه . على اننى لم ار فى الفضول الذى تعرضت له ، سوى مظهر للأدب والحفاوة ، سواء كان مرد ذلك الرأى الى تأثير وجود العاهل ، او الى التصرف الطبيعى الذى ابداه اولئك الذين احاطت بى قلوبهم .. وشعرت بالتأثر ، حتى اننى بدأت أحس بالقلق ــ من جديد ــ على نفسى وعلى مصير مسرحيتى ، خشية ان اقضى على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة ــ فى صالحى ــ كان يبدو لى انه لم يكن ينقصها سوى التصفيق . وكنت قد تذرعت ضد سخريتهم ، ولكن عطفهم ــ الذى لم أكن أتوقعه ــ طغى على كل الطغيان ، حتى اننى رحت ارتجف كالطفل ، عندما ابتدأ التمثيل !

وسرعان ما تبينت أن ليس ثمة مبرر للقلق .. كان اداء المسرحية جد سىء من ناحية الممثلين ، ولكن الغناء كان جيدا ، والموسيقى حسنة الاداء . ومنذ المشهد الأول ــ الذى كان مؤثرا فى بساطته حقا ــ سمعت فى المقصورات تمتمة اندهاش ، واستحسانا لم يسمع من قبل فى مثل هذا النوع من التمثيليات . وما لبث التحمس المطرد أن بلغ ذروته ، حتى انه تفشى فى جميع النظارة ، وان ضوعف اثره بفضل هذا الاثر ذاته ، كما ينبغى أن يقال بأسلوب « مونتسكيو » . وقد بلغ هذا الاثر أوجه فى المشهد الذى دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين . ومن المعتاد ان لا يصفق احد قط ، فى حضور الملك ، وقد سامحت

هذا على سماع كل شيء بوضوح ، مما أفاد التمثيلية والمؤلف. **وسمعت حولى همسات نساء كن يلحن لى فى جمال الملائكة ، وهن يقلن بعضهن لبعض : « هذا فاتن ! .. هذا خلاب ! .. ما من نغم هنا الا وينبثق من القلب ! »** . وهزتنى لذة التأثير على كل هؤلاء القوم الراقين ، حتى أنطلقت دموعى ، فلم أستطع أن اكبحها فى الاغنية الثنائيـة الأولى ، اذ لاحظت أننى لم أكن الوحيد الذى بكى ! .. ومرت بى لحظة ، رجعت فيها الى نفسى اذ تذكرت الحفلة الموسيقيـة التى أقيمت بدار السيـد دى « تريتوران » . وأحدثت هذه الذكرى فى نفسى شعورا كشعور العبد الرقيق الذى كان يرفع التاج فوق رؤوس المظفرين (١) ، ولكن هذا الشعور كان قصير الاجل ، اذ اننى سرعان ما استسلمت تماما ـ ودون اى تحفظ ـ لنشوة مذاق مجدى . ومع ذلك فانى أوقن بأن الشهوة الجنسيـة كانت ـ فى تلك اللحظة ـ اكثر اثرا من غرور المؤلف فى هذه النشوة ! .. فمن المؤكد انه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضور ، لما تأججت فى نفسى الرغبة الملحـة فى أن أتلقى بشـفتى الدموع العـذبة التى تسببت فى انسيابها ! .. ولقد شهدت تمثيليات أثارت من نوبات الاعجاب ما كان اشد مما رأيت فى هذه الليلة ، ولكنى لم اشهد قط نشوة فى مثل تدفق ، وفى مثل بهاء ، وفى مثل تأثير هذه التى استولت تماما على النظارة ، لا سيما وقد كانت هذه أولى المرات التى تعرض فيها المسرحية ، ولا سيما وانها كانت تعرض فى البلاط الملكى . ولا بد ان الذين شهدوها اذ ذاك ، لا يزالون يذكرونها ، فقد كان تأثيرها فذا !

وفى الليلة ذاتها ، اوفد الى السيد الدوق دومون ، من انبانى بأن اكون موجـودا فى القصر ، فى السـاعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، وبأنه سيقدمنى الى الملك . **واضاف السيد دى كورى ـ الذى حمـل الى الرسالة ـ انه من المعتقـد ان ثمة**

(١) عادة كانت متبعة فى مواكب النصر لدى الرومان

اقتراحا بمنحي معاشا ، وان الملك أراد ان يعلنني بذلك بنفسه ! .. فهل مما يصـــدق ان الليـلة ، التى أعقبت يوما بهـــذا الاشراق ، كانت ليلة هم وحيرة ؟ .. كانت اولى افكارى ، بعد هذه الخواطر السالفة ، تتمثل فى حاجة ملحة الى الخروج(١) ، كبدتنى فى المساء ذاته عناء كبيرا أثناء التمثيل ، وكان من الممكن ان تعذبنى فى اليوم التالى ، عندما أكون فى بهو الملك أو فى جناحه ، انتظر بين كل اولئك العظماء مرور الملك ! كان هـــذا الداء هو السبب الرئيسى الذى حملنى على تجنب الاجتماعات ، والذى منعنى من الاطمئنان الى البقاء فى غرفة مغلقة لدى السيدات . وكان مجرد التفـكير فى الموقف الذى قد تقحمنى فيه هـــذه الضرورة ، كافيا لان يحرجنى الى درجة تسلمنى الى الاغماء ، ان لم يكن الى فضيحة كنت خليقا بأن أوثر عليها الموت . ولا يدرك الجزع من المتعرض لخطر كهذا ، سوى أولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال !

ورحت ـ بعد ذلك ـ أتصـــور نفسى ماثلا امام الملك ، وأنا أقدم اليه ، فيتنزل ويقف ليحدثنى . . وهنا لابد من سرعة الخاطر وحضور البديهة للاجابة . أفكان حيائى اللعين ـ الذى اعتاد ان يضايقنى أمام أقـل المغمورين ـ ليهجرنى أمام ملك فرنسا؟ . . وهل يدعنى احسن اختيار ماينبغى ان يقال، فى التو؟ . . وددت لو أستطيع ـ دون ان اتخلى عن المظهر واللهجة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما ـ ان ابدى ادراكى للشرف المتاح لى من مثل هذا العاهل العظيم ؟ .. كان لابد لى من ان الف بعض الحقائق الجليلة والنافعة ، فى غلالة من الثناء الجميل البارع ! .. ولكى أتمكن من ان أعد ـ مقدما ـ جوابا موفقا ، كان لابد لى من أن أعرف بالدقة مايمكن أن يقوله لى الملك .. وكنت واثقا ـ بعد ذلك ـ من اننى لن استطيع أن استحضر فى وجـوده

---

(١) يقصد الخروج لقضاء حاجة . ولعلنا نذكر انه كان يتعرض لنوبات يكثر فيها من التبول

ما أكون قد اعددته !.. فماذا يكون شأنى ، فى هذه اللحظة ، امام اعين الحاشية كلها ، اذا افلتت منى ، فى غمرة اضطرابى ، بعض سخافاتى العادية ؟.. لقد روعنى هذا الخطر وازعجنى وجعلنى ارتجف وانا أعقد العزم على ان لا أعرض نفسى له، مهما تكن العواقب ؟

ومن الصحيح أننى فقدت المعاش الذى عرض على بصفة غير رسمية ، ولكننى ــ فى الوقت ذاته ــ نجوت من الجور الذى كان مقدرا أن يفرضه على .. الا وداعا للحقيقة ، وللحرية ، وللشجاعة ! .. كيف كنت أجرؤ ــ بعد ذلك ــ على ان اتكلم بحرية ونزاهة ؟..لم يكن لدى سوى أن اتملق ، او ان اصمت لو اننى قبلت هذا المعاش ، ثم ، منذا الذى كان يضمن دفعه الى ؟ .. وأية خطوات كان على ان اتخذها ، وأى اناس كنت مضطرا الى ان اداهن ؟.. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقا بان يكبدنى اكثر مما يكبدنى الاستغناء عنه من حرص ، وأكثر من الكثير من المضايقات !.. ومن ثم فقد اقتنعت باننى اذ ارفضه انما اتخذ قرارا ينطبق اشد الانطباق على مبادئى ، واضحى المظهر فى مقابل الواقع . ولقد افضيت الى جريم بعزمى ، فلم يعارضنى . أما بالنسبة للآخرين ، فقد تعللت بصحتى ، ورحلت فى نفس الصباح !

* * *

• واثار رحيلى ضجة ، وعيب على بوجه عام . فما كانت حجتى لتلقى تقديرا لدى الناس جميعا ، وسرعان ما اتهمت بالصلف ، مما أرضى ــ للتو ــ غيرة أولئك الذين شعروا بأنهم ما كانوا ليتصرفوا كما تصرفت !.. وفى اليوم التالى ، كتب الى « جيلوت » خطابا فصل فيه نجاح تمثيليتى ، والشغف الذى ابداه الملك نفسه بها . وقال ان جلالته لم يكف طيلة النهار عن الغناء ، بانكر صوت فى مملكته ، مرددا : «لقد فقدت خادمى ، لقد

اسمعت كل هنائى !» . . وأردف ان «العراف» ستعرض مرة ثانية بعد اسبوعين ، مما سيعزز امام عيون الجمهور كله النجاح الباهر الذى كلل العرض الأول !

وفيما كنت الج دار السيدة ديبيناى – فى الساعة التاسعة مساء ، بعد يومين – حيث كنت مزمعا ان اتناول العشاء ، رايت مركبة تعترض طريقى الى الباب . واشار الى شخص فى

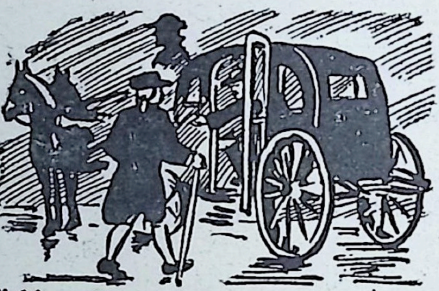

المركبة بان اصعد اليها ، فصعدت ، واذا بهذا الشخص هو « ديدرو » . وحدثنى عن المعاش فى حرارة ما كنت اتوقعها من فيلسوف فى مثل هذا الموضوع . ولم ير جريمة فى ان لا اكون راغبا فى ان اقدم الى الملك ، ولكنه رأى ان عدم اكترائى للمعاش جريمة منكرة . وقال لى اننى اذا كنت لا اهتم بالمعاش من اجل نفسى ، فليس من حقى ان اكون كذلك من اجل السيدة لوفاسير وابنتها ، فان من واجبى ان لا احرمهما من اية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسير أسباب العيش لهما . . وبما انه لم يكن من الممكن أن يقال – رغم كل شيء – اننى رفضت هذا المعاش ، فقد اصر على أن من الجدير بى أن أطلبه ، وأن أحصل عليه باى ثمن ، ما دامت ثمة نية لمنحى اياه . ومع اننى تأثرت لتحمسه ، الا اننى لم استطع أن أقر مبادئه ، فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع ، كان اول جدال دار بيننا . ولقد كانت كل خلافاتنا

التى اعقبت ذلك ـ من نفس النوع ، اذ كان يملى على ما كان يزعم ان من الجدير بى أن أفعله ، فى حين أننى كنت أرفض فى حزم ، لأننى لم اكن أومن بأنه واجب على !

وكان الوقت متأخرا عندما افترقنا ، فرغبت فى أن أصطحبه للعشاء لدى السيدة ديبينا ى ، ولكنه لم يكن راغبا البتة .. فبالرغم من ان الجهود التى كانت الرغبة فى الجمع بين اولئك الذين أحبهم تدفعنى الى بذلها من وقت الى آخر ، فاننى لم أفلح فى اغرائه على زيارتها . بل اننى ذهبت الى ابعد من هذا ، اذ صحبت السيدة الى بابه ، فرفض أن يفتحه لنا ! .. كان يمزق دائما عن لقائها ، ولم يكن يتكلم عنها قط ، الا فى ازدراء بالغ .. وما تآلف الاثنان الا بعد خلافى مع كل منهما ،واذ ذاك ، بدأ يتكلم عنها باحترام !

ومنذ ذلك الحين ، لاح أن ديدرو وجريم كانا يحاولان أن يؤلبا «الدادتين» على ، وأن يفهماهما أنهما اذا لم تكونا فى رخاء، فانما كان مرد ذلك الى سوء نيتى ، وانهما لن تصيبا منى أى خير قط ! ..ولقد حاولا ان يحملاهما على هجرى ، ووعداهما بأن يحصلا لهما بفضل السيدة ديبيناى على رخصة لبيع الملح، وحانوت لبيع التبغ ، وما لست ادريه كذلك ! .. بل انهما رغبا فى ان يستدرجا ديكلو ، كما استدرجا دولباخ ، الى محالفتهما ، ولكن الأول راح يرفض باستمرار . وكانت لدى اذ ذاك بعض ظنون عن هذا التدبير ، ولكننى لم أحط به بجلاء الا بعد ذلك بزمن طويل . وكثيرا ما أكون على حق اذ أرثى لذلك التحمس الاعمى المتهور من جانب أصدقائى الذين كانوا يسعون الى الحط من شأنى ـ وأنا معلول ، وفى اشد حالات العزلة الكئيبة ـ ظنا منهم أنهم انما كانوا يبذلون قصاراهم لاسعادى ، بالوسائل التى كانت خير ما يؤدى الى اتعاسى ، فى الواقع !

سنة ١٧٥٣

• **مثلت** مسرحية « العراف » فى باريس ، فى عيد المرافع

(الكرنفال) التالى ، اى فى سنة ١٧٥٣ . وكنت قد وجدت وقتا كافيا ــ فى تلك الاثناء ــ لوضع لحن الافتتاح ، والألحان التى تتخلل المشاهد . وكان لابد لهذه الالحان ــ كما وضعت وكتبت ــ من ان تشيع حركة فى التمثيلية ، من أولها لآخرها ، وان تجعل منها فى مجموعها ــ فى رأيى ــ لوحات جد مستحبة. ولكننى حين عرضت الفكرة على « الاوبرا » لم الق مستمعا واحــدا ، فاضطررت الى ان انسج سلسـلة من الاغانى والرقصات، بالطريقة المعتادة. وكانت النتيجة ان هذه الالحان وان لم تضر بتاثير المشاهد، الا انها لم تلق سوى نجاح متوسط رغم انها كانت زاخرة بالافكار البديعة . ولقد حذفت الالحان الالقائية التى وضعها « جيليوت » ، وأحللت محلها الحانا من وضعى ، هى تلك التى كانت موجودة فى الاصل . فاذا بها قد اكتسبت شيئـا من الصبغـة الفرنسيـة ، كمـا اعترف ــ واقصد بذلك الطريقة التى كان يلقيها بها الممثلون ــ الا انها لم تؤذ سمع احد ، بل انها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية ، كما اعتبرت كذلك ــ من ناحية النظم ــ حتى لدى الجمهور . **واهديت التمثيلية الى السيد « ديكلو » الذى رعاها ، وأعلنت ان هذا سيظل الاهداء الوحيد . على أننى كتبت اهداء لشخص آخر ــ بموافقة السيد « ديكلو » نفسه ــ ومع ذلك فانه ولا بد قد وجد ان هذا الاستثناء قد زاده هو تكريما !**

ولدى عن هذه التمثيلية حكايات كثيرة ، ولكن ثمة امورا اكثر اهمية لاتدع ضرورة ذكرها وقتا انفقه فى تلك . على اننى قد اعود اليها يوما ، فى « الملحق » . وان كنت ــ مع ذلك ــ لن اغفل واقعة معينة قد يكون لها اثر فى كل ماعقب ذلك من احداث . فلقد اطلعت ذات يوم ، فى مكتب البارون هولبـاخ ، على موسيقاه . وبعد أن شهدت كثيرا من القطع ، قال لى وهو

يرينى مجموعة من الالحان على المعزف : « هاك قطع لحنت من اجلى خصيصا ، وهى مليئة بالذوق ، صالحة للغناء ، وليس هناك من عرف بها او رآها سواى . فخليق بك أن تختار واحدة منها تدسها فى الالحان التى تتخلل مشاهدك ! » .. ولما كان ذهنى زاخرا بموضوعات لالحان و « سيمفونيات » تفوق ماكان بوسعى أن افيد منه ، فاننى لم ابد كثير احتفال بالحانه . على انه راح يلح على بحرارة اضطررت معها الى أن انتقى احدى أغانى الرعاه ، فاختصرتها وحورتهـــا الى قطعة ثلاثية تليق بالمشهد الذى يلج فيه رفاق « كوليت » (١) المسرح . وحدث بعد بضعة اشهر ــ و « العراف » لا تزال تعرض ــ ان ولجت يوما غرفة « جريم » ، واذا بنفر من الناس يحيطون بمعزفه ، **واذا به هــو ينهض عن المعزف فى تعجــل ، بمجرد وصولى ، واتجه بصرى ــ بحركة آلية ــ الى حامل « النوتة » الموسيقية ، فرأيت مجموعة البارون دولباخ بالذات مفتوحة عند القطعة التى الح على فى أن آخذها ، مؤكدا أنها لن تخرج من يديه قط ! وبعد ذلك ببعض الوقت ، رأيت المجموعة ذاتها مفتوحة ، على معزف السيدة ديبيناى ، فى يوم دعت فيه بعض الأصدقاء الى ندوة موسيقيـــة فى دارها** . ولم يتحدث جريم او اى شخص آخر من هذا اللحن ، وما كنت أنا لأقول عنه شيئا ، لو لم يشع بعد قليل ، أننى لم اكن مؤلف « عراف القرية » . ونظرا لأننى لم أكن يوما عازفا ماهرا ، فانى أوقن انه كان من المحتمـــل ان يقـــال اننى لم اكن اعرف شيئا عن الموســـيقى ، لولا « قاموس الموسيقى » الذى كنت قد وضعته (٢) .

* * *

---

(١) بطلة اوبرا « عراف القرية »

(٢) ما كنت لأحدس على الاطلاق ، ان هذا سيقال فيما بعد ، رغم وجود « القاموس » !

• ولقد حدث قبـــل اخراج « عراف القرية » بفترة من الزمن ، أن وصل الي باريس بعض الممثلين الهزليين الايطاليين فدعوا الى التمثيل فى « الاوبرا » دون ان يخطر ببـــال ما كان مقدرا ان يترتب على ذلك . واذ كانوا سيىء التمثيل ، وكانت الفرقة الموسيقية اذ ذاك من الجهل بحيث قضت ــ غير حافلة ــ على لذة القطـــع التى كانت تعزفها ، فانهم الحقوا بفن الاوبرا الفرنسية ضررا لم تتمكن قط اصلاحه . ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى (١) ، اللذين كانا يسمعان فى الدار ذاتها ، فى يوم واحد ، فتح الآذان الفرنسية ، فلم تعد تطيق بطء الموسيقى ، التى اعتادتها ، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الايطالية . فما كاد المهرجون الايطاليون ينتهون من عرضهم ، حتى كان الناس يبادرون الى الانصراف . فرؤى أن من الضرورى تغيير نظـام العرض ، وارجاء الممثلين الهزليين الى النهاية . فعرضت ((انجليه)) ، و ((بيجماليون)) و ((الجن)) (٢) ، ولكن ايا منها لم تستطع ان تستوى على ساقيهـــا . ولم تصمد للمقـــارنة سوى ((عراف القرية)) ، اذ قوبلت باستحسان فاق ((الوصيفة)) (٣) الايطالية ذاتهـــا .
وكان ذهنى مليئا ــ عندما وضعت المشهد الذى بين فصلى تمثيليتى ــ بألحان تلك المسرحية الايطالية ، فاستعرت بعض افكار منها . غير انني ، كنت ابعد من ان اتوقع ان انتقد فى هذه الناحية . ولو اننى كنت ممن يسطون على انتاج الغير ، فكم من سرقات كان يجب ان تتكشف ، وكم كان هناك من المشتغلين الى ان يعنوا بابرازها ! ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وقد ضاعت هباء كل المحاولات التى بذلت للعثور فى انتاجى الموسيقى

---

(١) موسيقى الاوبرا الفرنسية ، وموسيقى الاوبرا الايطالية
(٢) Eglé, Pygmalion, Lesylphe
(٣) Serva Padrona . وهى احدى التمثيليات التى كانت الفرقة الايطالية تعرضها

على اتفه أثر من موسيقى سواى .. كما ان كل أغانى كانت تبدو - اذا ما قورنت بالأغاني الأصليـــة التى كان يزعم اننى اخذتها عنها - جديدة ، جدة الطابع الموسيقى الذى ابتدعته . ولو ان « موندوفيل » او « رامو » تعرض لمثل هـذا الفحص والمقارنة لخرج منه مهلهلا !

ولقد اكتسب الممثلون الهزليون للموسيقى الايطالية مستمعين جد متحمسين ، فاذا باريس بأسرها تنقسم الى فريقين ، راحا يتجادلان فى عنف وكانهما بصدد مسألة متعلقة بالدولة أو بالدين . وكان اقواهما نفوذا ، واكثرهما عددا ، يتالف من العظماء ، والاغنياء ، والنساء ، ويتشبث بالموسيقى الفرنسية . اما الآخر - وهو اكثرهما حمية ونشاطا وتحمسا - فكان يتالف من فنانين حقيقيين ، ومن اكفاء ونوابغ . وكانت عصبة تجتمع فى دار « الأوبرا » ، تحت مقصورة الملكة ، بينما كان الفريق الآخر يملأ بقية الصالة ، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسى ، تحت مقصورة الملك . ومن هنـــا جاء اسما الحزبين الذين اشتهرا فى ذلك الحين : « ركن الملك » ، و « ركن الملكة » . وادى الخلاف - اذ احتدم - الى اصدار منشورات . فاذا شاء « ركن الملك » ان يهزأ ، سخر منه « النبى الصغير » ، واذا اقحم نفسه فى جدال ، افحمته « رسالة فى الموسيقى الفرنسية » .. وكانت هاتان النشرتان هما الوحيدتان اللتان كتب لهما البقاء فى هذه المعركة ، اما النشرات الباقية فقد ماتت .. وكان « جريم » يحرر الأولى ، وانا احرر الاخرى !.

بيد ان « النبى الصغير » ظلت تنسب الى طويلا - فى اصرار - رغم انكارى ، وكانت تحرر بأسلوب فكه ، ولا تحتشم محررها اقل عناء .. فى حين ان « رسالة فى الموسيقى » كانت تمثل الجد ، وقد اثارت ضدى الأمة باسرها ، اذ خيل اليها انها - ممثلة فى موسيقاها - قد اهينت !.. وان وصف الأثر الذى احدثته هذه النشرة - والذى يفوق ما يصدقه العقل - لجدير

بقلم « تاسيتوس » (١) .. وكانت تلك فترة الصراع الأكبر بين البرلمان ورجال الكهنوت . . وكان البرلمان قد اوقف عن الاجتماع ، وبلغت فورة السخط ذروتها ، واخذ كل شيء ينذر بانفجار وشيك ! .. وما ان ظهرت النشرة ، حتى انصرفت الخواطر لتوها عن المعارك الاخرى، ولم يعد ثمة تفكير فى غير الخطر المحدق بالموسيقى الفرنسية ، ولا عاد ثمة هياج الا ضدى انا .. بل انه كان من الشدة بدرجة ان الأمة لم تفق منه ابدا . ففى البلاط ، لم تعد ثمة موازنة الا بين « الباستيل » والنفى : وكان من المحتمل التعجيل بأمر القبض على ، لو لم يفلح السيد دى فوبيه فى ايضاح ما فى هذا من تصرف أخرق . وقد يظن القارىء اننى اهرف ، حين يقرأ ان من المحتمل ان هذه النشرة حالت دون قيام ثورة فى الدولة . ومع ذلك فان هذه حقيقة واقعة ، لعل باريس بأسرها تشهد بها حتى اليوم ، اذلم يمض بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عاما (٢)

* * *

• **واذا** كانت حريتى لم تصادر ، فاننى لم اعف من ادنى الاهانات ، بل ان حياتى أصبحت فى خطر . فأعدت فرقة موسيقى « الاوبرا » مؤامرة شريفة (!) لاغتيالى اثناء مغادرتى المسرح . وقد نميت الى ، فلم تزدنى الا ترددا على « الاوبرا » ، ولم اعرف الا بعد ذلك بوقت طويل ، ان السيد « انسيلو » — الضابط فى فرقة الفرسان — الذى كان يكن لى مودة ، قد افسد مفعول هذه المؤامرة ، اذ دبر حمايتى — عند مبارحتى الأوبرا — دون أن أشعر . وكان اول استغلال لنظام اشراف البلدية على دار الاوبرا ، هو حرمانى من الدخول ، وان يحدث

---

(١) كورنيليوس تاسيتوس ، كاتب ومحام ذاع صيته فى التاريخ الرومانى وقد عاش فيما بين سنتى ٥٥ و ١٢٠ بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة

(٢) كتب روسو هذا الجزء حوالى سنة ١٧٦٨

ذلك بأشد الأساليب المهينة .. أى **بمنعى علنا من الدخول بدون « تذكرة » ، بطريقة اضطرتنى الى ابتياع « تذكرة » فى الشرفة العليا للدار (١) ، لكى اتفادى عار الرجوع دون دخول ، فى ذلك اليوم . وكان الظلم صارخا جدا ، اذ أن الثمن الوحيد الذى تقاضيته عن اوبراى ، عندما نزلت لهم عنها ، هو حق الدخول – دون مقابل – طيلة العمر .** ذلك لأن هذا وان كان حقا اعتاد ان يحظى به كل المؤلفين – ومن ثم فقد كان استحقاقى اياه مضاعفا – الا اننى حرصت على اشتراطه ، بحضور السيد ديكلو . ومن الصحيح انى تلقيت – عن طريق خزانة الاوبرا – خمسين « لوى » كمكافأة شرفية لم اطلبها .. وفضلا عن ان هذا المبلغ لم يكن يعادل ماكنت استحقه وفقا للوائح ، فان دفعه لم يكن ذا صلة البتة بحق الدخول دون مقابل ، الذى طالبت به رسميا ، والذى كان امرا مستقلا تماما عن الموضوع !

ولقد جمع هذا التصرف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة ، حتى ان الجمهور – الذى كان فى أوج عداوته لى – لم يحجم عن ابداء استنكاره جهارا وبالاجماع ، وصاح كثيرون – ممن كانوا يسبوننى فى الليلة السالفة – بأعلى أصواتهم فى دار « الأوبرا » ، بأن من العار ان يحرم من حق الدخول – وبهذا الاسلوب – مؤلف يستحقه عن جدارة ، بل وله ان يصحب معه شخصين بالمجان . وهكذا صدق المثل الايطالى القائل : « يعرف الصديق فى المحنة »

Ogn'un ama la giustizia in casa d'altrui

ولم يكن لدى ازاء هذا سوى قرار واحد ، هو ان استرد تمثيليتى ما دمت قد حرمت الجزاء المتفق عليه . ومن ثم كتبت الى السيد دارجنسون، الذى كان يتولى ادارة «الأوبرا» ، وارفقت رسالتى بمذكرة لم إكن قد تلقيت عنها ردا ، فظلت

---

(١) أدنى الدرجات فى المسرح .. « أعلى التياترو »

المذكرة ــ وكذلك الرسالة ــ دون جواب ودون رسالة . ولقد ظل صمت هذا الرجل الظالم راسخا فى فؤادى ، ولم يساعد على تنمية التقدير الضئيل الذى كنت دائما احســه نحو شخصيته ونحو مواهبه. **وهكذا احتفظت «الأوبرا» بتمثيليتى وسلبتنى الجزاء الذى كنت قد نزلت فى مقابله عن حقوقى فيها. وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوى ، فانه يعتبر سرقة.. اما اذا حدث من القوى نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بما للغير وحسب !**

اما الكسب المالى الذى دره هذا العمل الفنى ، فمع انه لم يرق الى ربع ما كان يدره على اى مؤلف سواى ، الا انه كان ــ بالنسبة الى ــ من الضخامة بحيث انه كان كافيا لأن يمكننى من العيش عليه سنوات عدة، وأن يعوضنى عن عملى فى النسخ اذ ان هذا العمل كان كاسدا على الدوام. فلقد نلت مائة «لوى» من الملك ، وخمسين من السيدة دى بومبادور ــ عن عرض التمثيلية فى (البيل فى) ، حيث قامت هى نفسها بدور كولان ــ وخمسين من « الأوبرا » ، وخمسمائة من « بيسو » مقابل نشرها .. اى ان هذا العمل الثانوى ، الذى لم يكلفنى سوى عمل خمسة اسابيع أو ستة ، در على من النقود ــ رغم سوء حظى ورغم غبائى ــ ما يعادل مادره على كتابى «اميل» ، الذى استغرق منى عشرين عاما فى التفكير ، وثلاثة فى التأليف ! .. على اننى دفعت ثمنا غاليا ، فى مقابل الكسب المادى الذى اجدته على هذه التمثيلية. . وقد تمثل هذا الثمن فى المضايقات التى لا نهاية لها، والتى ترتبت عليها. اذ كانت هذه التمثيلية بذرة الاحقاد الخفية الناشئة عن الغيرة ، والتى لم تتكشف الا بعد ذلك بوقت طويل!

.. ولم أعد ــ منذ نجاحها ــ أجد من جريم وديدرو ، او من اى من الأدباء الذين كنت اعرفهم ــ فيما عدا القليل ــ الحفاوة والصراحة وحسن المعاشرة التى كنت أخالنى قد عثرت عليها لديهم من قبل . واصبحت لا اكاد اظهر فى دار البارون ، حتى

لوحة رائعة نشرت على صدر كتاب «اميل»

يكف الحديث عن ان يكون عاما .. ويتجمع القوم فى فرق صغيرة ، ويدور التهامس ، بينما اظل وحيدا لا اجد من ابادله الحديث .. ولقد تحملت طويلا هذا الانفضاض عنى ولما كنت ارى ان السيدة دولباخ – التى كانت لطيفة وحفية – قد ظلت تكرم وفادتى باستمرار ، فاننى رحت اتقبل جفوة زوجها بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة . ولكنه فى احد الأيام تحرش بى دون داعٍ ، ودون مبرر ، وفى غلظة بالفة ، فى حضور ديدرو، الذى لم ينبس بكلمة .. وفى حضور مارجنسى ؛ الذى كثيرا ما

اعرب لى ـ منذ ذلك الحين ـ عن اعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتسمت بهما اجاباتى .. وانتهى الأمر الى ان طردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة ، فخرجت منه وقد عقدت العزم على ان لا اعود اليه اطلاقا . على ان هذا لم يمنعنى من ان اتحدث بأمانة واحترام عنه وعن منزله ، فى حين انه لم يذكرنى دائما الا بعبارات حاقدة، جارحة، فما وصفنى مرة الا بـ «خادم المدرسة » الصغير، دون أن يملك ـ رغم ذلك ـ ان يعين اساءة واحدة ، ايا كان نوعها، بدرت منى نحوه أو نحو أى امرىء كان يهتم بامره . وهكذا انتهى الى ان حقق تنبؤاتى وهواجسى !..
أما أنا ، فأعتقد أن أصدقائى المذكورين كانوا على استعداد لأن يغفروا لى تأليف الكتب ـ وان تكن كتبا رائعة ـ لأن هذا المجد لم يكن غريبا عنهم . بيد انهم لم يكونوا يغتفرون لى ان وضعت اوبرا ، ولا ان لقى هذا العمل الادبى الفنى نجاحا باهرا ، لأن

احدا منهم لم يكن فى وضع يمكنه من ان ينهج عين هذا النهج ، ولا ان يطمع فى عين ما نلت من تقدير وتكريم ! .. كان ديكلو وحده هو الذى سما فوق الغيرة ، بل انه بدا اكثر مودة لى ، واصطحبنى الى دار الآنسة « كينول » ، حيث لقيت رعاية ، وانسا ، وملاطفة ، بقدر ما افتقدت فى دار السيد دولباخ !

***

• **وبينما** كانت « العراف » تمثل فى «الأوبرا» ، كان مؤلفها موضوع مناقشة فى « الكوميدى فرانسيز » ، ولكنه كان اقل حظا من تمثيليته . . ذلك اننى اذ عجزت ـ خلال سبع أو ثمانى سنوات ـ عن عرض « نارسيس » فى مسرح الايطاليين (اوزيتاليان) ، بغضت هذا المسرح الذى كان ممثلوه يسيئون اداء المسرحيات الفرنسية . ومن ثم فقد كان حريا بى أن أكون أشد رغبة فى ان تعرض تمثيليتى فى المسرح الفرنسى ـ الكوميدى فرانسيز ـ منى فى ان تعرض لدى الايطاليين . وأفضيت برغبتى الى « لانو » الممثل الفكاهى ، الذى كنت قد تعرفت اليه ، والذى كان معروفا ـ كذلك ـ بأنه رجل فاضل ذو نفوذ . ولقد اعجب بتمثيليتى الفكهة « نارسيس » ، وأخذ على عاتقه ان يعمل على اخراجها دون اعلان اسم مؤلفها . وحصل لى ـ فى الوقت ذاته ـ على ترخيص بالدخول ، دون مقابل ؛ سررت به كل السرور ، اذ كنت دواما أوثر المسرح الفرنسى على المسرحين الآخرين (الاوبرا ، والايطالى) . واستقبلت التمثيلية باستحسان ، رغم انها قدمت دون ذكر المؤلف .. بيد ان لدى ما يحملنى على ان اعتقد ان الممثلين ، وكثيرين غيرهم ، لم يكونوا يجهلونه . ولقد قامت الآنستان «جوسان» و « جرانفال » بدورى العاشقين . ومع ان الاداء اسفر عن نقص فى البراعة ، الا انه ـ بوجه عام ـ لايمكن ان يوصف بأنه سىء تماما . على اننى دهشت ـ وتأثرت ـ لما تبدى من استغراق الجمهور ، اذ راح يصغى فى صبر وهدوء ، من اول التمثيلية الى آخرها ، بل وسمح بعرضها مرة ثانية ، دون ان يبدى أية بادرة تنم عن ملل !

أما انا ، فقد بلغ من ضجرى ـ فى العرض الاول ـ اننى لم استطع المكث الى النهاية . فتركت المسرح وذهبت الى مقهى (دى بروكوب) ، حيث وجدت « بواسى » وبعض الآخرين ، الذين يحتمل ان يكونوا قد ضجروا مثلى . وهناك ، اعلنت

فشلى بصوت عال ، معترفا فى شجاعة وتواضع بأننى مؤلف التمثيلية ، ومتحدثا عنها بما كان الجميع يرونه فيها . ولقد لقى هذا الاعتراف العلنى من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة ، اعجابا قويا ، حتى انه بدا لى أقل ما يكون ايلاما ! .. كذلك وجدت جزاء لعواطفى الصادقة فى الجرأة التى أقدمت بها على اعترافى . واعتقد اننى ـ فى هذه المناسبة ـ لقيت فى الكلام زهوا يفوق ما كنت خليقا بأن اجده من حياء زائف لو اننى لذت بالصمت ! .. على انني ـ اذ تبينت ان لا شك هناك فى ان التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة ، وان كان التمثيل قد شوهها ـ عملت على طبعها ، وبدأت فى المقدمة ـ التي كانت من خير ما كتبت ـ اكشف عن مبادئى فى صراحة تفوق قليلا كل ما فعلت من قبل .

وسرعان ما سنحت لى فرصة الاقدام ـ فى غير ماتحفظ ـ على عرض هذه المبادىء فى مؤلف ادبى عظيم الأهمية . فقد حدث فى ذلك العام (١٧٥٣) ـ على ما اظن ـ ان اتخذ محفل ديجون من موضوع « منشأ عدم المساواة بين البشر » مادة لبرنامج مسابقته . وهزنى هذا الموضوع العظيم ، واذهلنى ان جرؤ المحفل على عرضه للمباراة . على انه اذا كان قد أوتى هذه الشجاعة ، فقد رأيت ان بوسعى ان اوتى الشجاعة على الخوض فيه .. وشرعت فى ذلك

* * *

• ولكى أفكر فى هذا الموضوع العظيم ، وانا مرتاح الخاطر ، قمت برحلة الى (سان جيرمين) ، حيث قضيت سبعة ايام أو ثمانية ، مع تيريز ومضيفتنا ـ التى كانت امراة طيبة ـ واحدى صديقاتها . وانى لأحسب هذه النزهة بين أحب ماقمت به من نزهات فى حياتى .. وكان الجو جميلا ، وقد اضطلعت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالب والنفقات . وراحت تيريز تتسلى

بصحبتهما . أما أنا ، فقد خلوت من الشواغل ، ورحت اشاطرهن ابتهاجهن فى أويقات الوجبات ، متخففا من كل هم . وكنت أقضى بقية النهار موغلا فى الغابة ، حيث اخذت ابحث ، وحيث وجدت صورة العصور الأولى ، فرحت اتعقب التاريخ خلالها فى جرأة ، مهونا من شأن أكاذيب البشر التافهة .. وتجاسرت على ان اكشف طبيعتهم ، وأتعقب سير الزمن والأشياء التى شوهت هذه الطبيعة .. **وبالمقارنة بين الانسان – كما صنعه الانسان – والانسان كما صنعته الطبيعة ، كشفت له – فى كماله المزعوم – عن المصدر الحقيقى لمصائبه وشقائه . وارتفعت روحى – وقد انتشت بهذه التأملات السامية – الى مقربة من مقام الربوبية ، فأطلت من هناك على أقرانى من ابناء البشر ، وهم يسيرون عميانا فى طريق الأباطيل والاوهام ، وطريق أخطائهم ، ومحنهم ، وجرائمهم ..ورحت أصيح بصوت واهن ما كانوا ليستطيعون ان يسمعوه : « ايها الحمقى ، الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة ، الا اعلموا ان كل مساوئكم انما تنبثق منكم ! »**

وكانت نتيجة هذه التأملات : « حديث فى عدم المساواة » ، وهو مقال صادف هوى من نفس ديدرو ، فاق كل ما صادفته كتاباتى الاخرى ، وقد اولانى نصيحة بشأنه ، كانت انفع النصائح (١) ، ولكنها لم تجد فى اوربا كلها من القراء من ادركها سوى قليلين ، ولم يشأ واحد من هؤلاء ان يتكلم عنها ! .. وكان المقال قد كتب من اجل المسابقة ، فأرسلته وانا واثق –

(١) علق « روسو » على هذا ، بقوله : « لم يكن لدى – فى الوقت الذى كتبت فيه هذا – أى حدس عن مؤامرة ديدرو وجريم الكبرى ، والا لكنت قد رايت بسهولة كيف استغل الاول ثقتى ، لكى يخلع على كتاباتى هذا الاسلوب الجاف ، وهذا الجو القاتم اللذين لم يستمرا بعد ان توقف عن توجيهى .. فالجزء الخاص بالفيلسوف الذى سد أذنيه – خلال احدى نقاط الجدل – حتى يكتسب

←

الاحتجاج على عدم المساواة

(لوحة رائعة من رسم مورو الشاب)

سلفا ــ بانه لن يفوز بنجاح ، اذ كنت اعرف عن يقين ان جوائز المحافل لم تخلق للأعمال الأدبية التى من هذا النوع !

وأدت هذه النزهة وهذا الشاغل الى تحسن مزاجى وصحتى ، اذ كنت منذ عدة سنوات معذبا باحتباس البول ، وقد استسلمت نهائيا للأطباء ، فاستنزفوا قواى ــ دون ان يخففوا علتى ــ وهدموا بنيتى . ولكنى عندما عدت من (سان جيرمين) وجدت

صلابة دون أنات رجل فى محنة ، من اسلوب ديدرو . وقد امدنى بكثير غير هذا الجزء ، ويفوقه شدة ، حتى اننى لم اقو على حمل نفسى على استعماله . على اننى عزوت تلك الروح القاتمة الى ماجرى له فى « زنزانة » فانسين .. وان هذه الروح لتبدو مرة اخرى ، وبنسبة كبيرة ، فى مؤلفه « كليرفال » . بيد انه لم يخطر ببالى اطلاقا أن ارتاب فى ان هذا كان ينطوى على أدنى نية خبيثة » !

مريدا من القوى ، وشعرت بكثير من التحسن . وتبعت هذه البادرة ، فعقدت العزم على أن أشفى أو أن أموت دون معونة الأطباء أو العقاقير . وودعتهم الى الأبد ، وشرعت اعيش ليومى ، استريح عندما اعجز عن المشى ، وأسير بمجرد أن أملك القدرة على السير . وكانت الحياة فى باريس ، بين قوم ادعياء محبين للمظاهر ، لا تروق لى .. كان تعصب الأدباء وتحزبهم ، ومنازعاتهم المخزية ، وافتقارهم الى النقاء الذى يتجلى فى كتبهم ، والمظهر المترفع الذى يخدعون به المجتمع .. كل هذه كانت بغيضة الى نفسى !.. وما اقل ماوجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة فى الاتصال بالناس ، لا سيما اصدقائى ! .. حتى لقد عافت نفسى هذه الحياة الصاخبة ، واخذت اتوق - فى رغبة صادقة - الى الاقامة فى الريف . ولما لم أجد أى أمل فى ان تمكننى مهنتى من الاستقرار هناك ، رحت اسارع الى قضاء بضع الساعات - التى كنت استطيع أن أفرغ فيها من العمل - هناك . واعتدت ، لعدة اشهر ، ان اخرج للرياضة وحيدا - عقب الغداء فى بداية الامر - فى غابة (بولونيا) ، لأدير فى فكرى موضوعات لمؤلفاتى المقبلة . ولم اكن اعود قبل هبوط الليل !

من سنة ١٧٥٤ الى سنة ١٧٥٦

• رأى « جوفكور » - الذى كانت علاقاتى به فى أوج توثقها اذ ذاك - ان لا بد له من الرحيل الى (جنيف) بحكم عمله ، فعرض على ان ارافقه فى هذه الرحلة . ووافقت على ذلك ، واذ لم اكن بصحة جيدة استغنى معها عن عناية «الدادة» (١) ، فقد تقرر ان تكون معنا فى الرحلة ، وان تتولى أمها حراسة البيت . واعددنا عدتنا على ان نرحل نحن الثلاثة معا ، فى اول يونيو سنة ١٧٥٤

---

(١) يقصد تيريز

وجدير بى ان انظر الى هذه الرحلة على انهـا فترة التجربة الأولى التى صادفتنى خلال سنى عمرى الاثنتين والاربعين ـ اذ ذاك ـ والتى نبهتنى الى تلك الفطرة المفعمة بالثقة التى فطرت عليها والتى اعتدت دائما ان اسلم نفسى اليها دون ماتحفظ ولا حرج . وكانت لدينا مركبة متوسطة ، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة ، دون ان تستبدل جواديها . وكنت كثيرا ما اهبط واسير على قدمى . ولم نكد نقطع نصف طريقنا حتى أبدت تيريز أعظم نفور من ان تبقى وحيدة فى المربة مع

« جوفكور » ، فما ان رغبت فى الهبوط ـ بالرغم من رجائها ـ حتى هبطت هي الأخرى وسارت . وظللت الومها وقتا طويلا على هذه النزوة ، بل ورحت اعارضها بشدة ، حتى رات نفسها مضطرة ـ فى النهاية ـ الى ان تصارحنى بالسبب .. وخيل الى اننى أحلم .. وهويت من حالق ، عندما سمعت ان صديقى السيد دى جوفكور ، المسن الذى جاوز الستين ، والمصاب بالنقرس ، والمنهار البنيان ، والذى هدته حياة اللهو والعبث.. صديقى هذا كان يبذل غاية جهده ، مذ بدأنا الرحلة ، ليفسد امرأة لم تعد شابة ولا جميلة ، امرأة كانت لصديقه .. وكان يسعى الى ذلك باحط الوسائل ، وبادعاها الى الخجل ، حتى لقد قدم اليها كيس نقوده .. وحتى لقد حاول ان يثير نزواتها

بان راح يقرأ عليها كتابا فاحشــا ، وبأن أخذ يريهــا الصور الفاضحة التى امتلأ بها الكتاب ! .. ولقد ألقت تيريز بالـكتاب الخبيث ــ مرة ــ من العربة ، وهى فى غمرة السخط . وقالت ان الرجل فى اول يوم فى الرحــلة ، انتهز فرصــة ايوائى الى الفراش قبل العشاء ــ اذ كنت أعانى صداعا شديدا ــ واستنفد الوقت كله ــ وقــد كان خلاله وحيــدا معها ــ فى محــاولات وتصرفات اكثر لياقة بالحيوان المهتاج ، او بالجدى ، منها برجل محترم ، ائتمنته على نفسى وعلى رفيقتى !

يا للمفاجأة ! .. ويا له من ألم فى الفؤاد جــديد على ! .. أيقدر لى ، انا الذى كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصــداقة لا تنفصل عن كل المشــاعر المستحبة والنبيلة التى تــكسبها بهاءها ــ ان اجد نفسى لأول مرة فى حياتى ، أقرن هذه الصداقة بالازدراء ، واسحب ثقتى وتقديرى من رجــل كنت أحبــه ، وكنت اعتقد اننى محبوب منه ؟ ! .. لقد أخفى التعس مسلكه المعيب عنى ، ولكى اتجنب احراج تيريز ، الفيتنى مضطرا الى ان اخفى عنه استيائى ، والى ان ادفن فى قرارة فؤادى مشاعر ما كان له ان يعلم بها اطلاقا ! .. **فيا وهم الصـــداقة الوادع القدسى ، لقد كان جوفكور اول من رفــع نقابك لعينى ، وكم من ايد قاسية قد حالت ــ منذ ذلك الحين ــ دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية !**

وتركت جوفكور فى (ليون) ، لاتخذ طريقى خــلال اقليم (سافوا) ، اذ لم اقو على ان أمر ــ من جديد ــ على مقربة من « ماما » دون ان اراها . ولقد رأيتها .. ولكن ، يا الهى ! .. فى اية حــال ؟ .. بل فى اى هوان ؟! .. ما الذى تبقى لها من صفاتها الأولى ؟ .. افهذه هى السيدة دى فاران بعينها ، التى كانت متألقة ، والتى اوفدنى اليها اسقف بونفير ؟ .. لشد ما حزن قلبى ! .. ولم ار لها من مخرج سوى ان تترك اقليمها . وحمت الحف عليها فى حرارة ، ودون جدوى ، مرددا ما الححت

عليها به هدة مرات فى خطاباتى ، ضارعا اليها ان تأتى فتعيش معى فى سكينة ، وتسمح لى بأن أكرس ايامى وأيام تيريز من اجل ان نحيل ايامها سعيدة . ولكنها ابت ان تصغى الى متشبثة بمعاشها الذى لم تسحب منه شيئا ، منذ امد طويل ، رغم انه كان يدفع بانتظام . ووهبتها ـ مرة اخرى ـ قسطا طفيفا من نقودى ، يقل عما كان ينبغى ان اعطيها ، وأقل مما كان يجب ان اقدم لولم اكن موقنا تمام اليقين من انها لن تفيد منه بـ « سو » واحد !

٦ ولقد قامت ـ اثناء مكثى بجنيف ـ برحلة فى (شابليه) ، فجاءت لزيارتى فى (جرانج كانال) . وكان يعوزها المال كى تواصل الرحلة ، ولم أكن احمل معى ما كان لازما لها ، فأرسلته اليها بعد ساعة ، بوساطة تيريز . **يا للمسكينة ((ماما)) ! .. فلأذكر دليلا واحدا جديدا ، على طيبة قلبها : ذلك انه لم يكن قد تبقى لها من حليها ، سوى خاتم صغير ، فخلعته عن اصبعها لتضعه حول اصبع تيريز ، التى نقلته فى التو الى اصبع ((ماما)) من جديد ، وهى تقبل تلك اليد النبيلة وترويها بدموعها !** .. آه ! كانت تلك هى اللحظة المواتية لكى أسدد دينى ! .. كان خليقا بى ان أهجر الكل لأتبعها ، وان الازمها حتى ساعتها الأخيرة ، وان أقاسمها حظها ، مهما يكن !.. ولكنى لم افعل شيئا من هذا القبيل ، فقد شعرت ـ وقد شغلت عنها بغيرها ـ ان الرابطة التى كانت تشد كلا منا الى الآخر قد تفككت ، اذ كان ينقصها الرجاء فى ان استطيع ان احيل علاقتى بماما الى شىء نافع لها !.. ولقد بكيت حسرة عليها ، ولكننى لم أتبعها .. وليس بين بواعث تأنيب الضمير التى صادفتنى فى حياتى ، ماهو اشد ولا أبقى من هذا الباعث ! .. وانى لأستحق ألوان العقاب الفظيعة التى لم تكف عن تعذيبى منذ ذلك الحين .. فليتها تكفر عن جحودي !.. الجحود الذي تبدى فى مسلكي فعلا ، ولكنه مزق

قلبى فى عنف ما كان ليحدث لو ان هذا القلب كان قلبا جاحدا يوما !

***

● كنت قبل رحيلى من باريس قد شرعت فى صوغ اهداء « حديث فى عدم المساواة » ، وقد فرغت منها فى (شامبيرى) ، وسجلت تاريخ ذلك اليوم مقرونا باسم المكان ، اذ رأيت ان من الأفضل أن لا أقرن التاريخ باسم باريس أو جنيف ، كى اتفادى كل المضايقات . واذ وصلت الى (جنيف) ، أسلمت نفسى لتحمسى وهيامى بالنظام الجمهورى .. هذا التحمس المستهام الذى قادنى الى هناك ، والذى ازداد بالاستقبال الذى حظيت به . وفى غمرة المآدب والمجاملات التى احاطتنى بها كل الأوساط ، استسلمت بكل كيانى الى الغيرة الوطنية ، وقد أخجلنى ان احرم من حقوقى كمواطن بسبب اعتناقى دينا يخالف دين آبائى(١) ، فقررت ان اعود الى هذا الاخير علانية . ورأيت ان الانجيل واحد لجميع المسيحيين ، وان لب العقيدة ما اختلف الا باختلاف اولئك الذين اقحموا انفسهم فى تفسير ما كانوا عاجزين عن فهمه . ولقد كان من حق الحاكم الفرد — فى كل بلد — ان يعين اسلوب العبادة ، وان يبت فى مسألة العقيدة المعقدة .. ومن ثم فان واجب الرعية ان يقروا العقيدة وان يمارسوا أسلوب العبادة اللذين نص عليهما القانون . وكان طول اختلاطى بأهل البحث والدراسة أبعد من ان يزعزع ايمانى ، بل انه عززه ، لا سيما واننى كنت انفر من المنازعات والتعصب . ولقد ادت دراسة الانسان والكون — فى كل مكان — الى اطلاعى على القضايا الرئيسية والعقلية التى توجهها . **ولقد علمتنى قراءة التوراة — لا سيما الانجيل الذى انصرفت اليه عدة سنوات — كيف ازدرى التفسيرات الجوفاء الحمقاء ، التى خلعها على تعاليم**

(١) كان «روسو» قد تحول عن الكاثوليكية الى البروتستانتية في صباه

عيسى المسيح اناس ليسوا اهلا لادراكها على الاطلاق ! .. ومجمل القول ان الفلسفة اذ قربتني من جوهر الدين ، صرفتني عن هذا الركام من قواعد الايمان الزائفه التى حجبت عن الناس هذا الجوهر !

وكما كنت اومن بأن صاحب العقل المدرك ليس بحاجة الى طريقتين يختار بينهما فى الوصول الى المسيحية ، فاننى كنت اومن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام ــ فى كل دولة ــ انما يدخل فى نطاق التشريع والقانون . ومن هذا المبدأ المعقول ، الاجتماعى ، السلمى ــ الذى جر على ما جر من اضطهادات قاسية ــ انسابت هذه النتيجة : اذا شئت ان اصبح مواطنا ، فان من واجبى ان اكون بروتستانتيا ، وان اعود الى دين وطنى . وعقـــدت عزمى على ذلك ، بل اننى اســتشرت فى ذلك راعى الأبرشيه التى كنت اقيم فيها ، والتى كانت خارج المدينة .. ولم اكن ارجو سوى ان لا اضطر الى ان امثل امام مجمع الكرادلة . ومع ان المراسم الكنسية كانت حاسمة فى هذا الصدد ، الا انه رؤى التجاوز عنها اكراما لى ، فعينت لجنة من خمسة او ستة أعضاء ، لتتلقى اقرارى بعقيدتى ، فى جلسة خاصة . ولسوء الطالع ، شاء القس « بردريو » ــ وكان شخصا لطيفا ، لينا ، ربطتنى به روابط من الود ــ أن يلح على بأن من دواعى الغبطة أن القى كلمة فى هذا الاجتماع الصغير . وازعجنى توقع هــذه الكلمة ، الى درجة اننى ــ بعد دراسة شغلت بها ليل نهار لثلاثة اسابيع ــ اعددت خطابا قصيرا .. وارتبكت عندما حانت لحظة القائه ، حتى اننى عجزت عن ان انطق بكلمة واحدة منــه .. وتصرفت كاغبى تلاميذ المدارس ! .. وتولى اعضاء اللجنة عنى الحديث ، ورحت أجيب فى عى بـ « لا » و « نعم » ، ثم قبلت فى الطائفة ، وردت الى حقوقى كمواطن .. وكذلك ادرج اسمى فى قائمة « الحرس الوطنى » الذى كان يتقاضى موارده من ابناء

المدينة والطبقة المتوسطة فحسب (١) ، ودعيت الى اجتماع غير عادى للمجلس العام ، لتلقى اليمين من « السنديك »موسار(٢). ولقد تأثرت للعواطف الطيبة التى ابداها لى المجلس ومجمع الكرادلة - فى هذه المناسبة - وللاجراءات الكريمة الحفية التى صدرت من جميع المستشارين والقساوسة والمواطنين ، حتى اننى - بدافع من الرجاوات الملحة من ديلوك الطيب ، ومن ميلى الصادق بوجه خاص - لم أعد أفكر فى العودة الى باريس الا لكى اتخلص من مسكنى ، واسوى اعمالى البسيطة ، واجد عملا للسيدة لوفاسير وزوجها - يقيهما العوز - ثم اعود مع تيريز فنستقر فى (جنيف) بقية ايامى !

واذ استقر رأيى على هذا القرار ، ارجأت كل الشواغل الهامة، لكى أهنأ بأصدقائى الى ان يحين وقت الرحيل الى باريس . وكانت اكثر الوان التسلية ارضاء لى ، هى الطواف حول البحيرة فى قارب مع ديلوك الأب ، وزوجة ابنه ، وتيريزى . وقضينا سبعة أيام فى هذه الجولة ، فى ابدع طقس عرفته. وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التى اطربتنى - عند الطرف الأقصى للبحيرة - واوردت بعض اوصافها فى ((هيلويز الجديدة))عندما كتبتها بعد سنوات !

وكانت الصلات الرئيسية التى عقدتها فى جنيف - عدا صلتى بديلوك الذى تحدثت عنه - هى صداقتى للقس فيرن ، الذى كنت قد عرفته فى باريس من قبل ، والذى كانت لدى عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدى منه فيما بعد .. وصداقتى للسيد بردريو ، الذى كان - فى ذلك الحين - راعى ابرشية ريفية ، واصبح اليوم استاذا للأدب ، والذى سأظل دائما اتحسر على صحبته المفعمة باللطف والدعة ، وان كان هو قد رأى ان فصم

(١) ذكر « روسو » أنه كان يقيم خارج المدينة ، فكان ضمه الى الحرس نوعا من التكريم له

(٢) « السنديك » هنا لقب كان يطلق على رئيس الهيئة

هذه المعرفة ، كان عملا سليما .. وهناك السيد « جالابير » ، الذى كان استاذا لعلم الطبيعة ـ اذ ذاك ـ ثم اصبح مستشارا و« سنديك » ،وقد قرات عليه رسالتى عن عدم المساواة ـ بعد ان تجاوزت عن المقدمة والاهداء ـ فبدأ عليه انه طرب لها .. والاستاذ « لولان » ، الذى ظللت على تراسل معه حتى وفاته ، والذى ذهب فى ثقته بى الى درجة ان عهد الى بأن ابتاع بعض الكتب للمكتبة العامة .. والاستاذ « فيرنيه » ، الذى ادار لى ظهره ـ ككل الناس ـ بعد ان أريته الادلة على ود وصداقة كانا خليقين بأن يمسا قلبه ، اذا كان لقلب رجل من رجال الدين ان يتأثر بشىء !.. وشابوى ، الكاتب الذى خلف جوفكور فى العمل ، والذى رغب فى ان يخلفه فى الصداقة ، وسرعان ماخلفه فعلا .. وميرسيه دى ميزير ، وقد كان صديقا قديما لأبى ، كما اثبت انه كذلك بالنسبة لى ،ولكنه ـ بعد ان كان قداستحق تقدير وطنه من قبل ، ثم اصبح مؤلفا مسرحيا ومرشحا لمجلس المائتين ـ تحول عن آرائه ، وعرض نفسه للسخرية حتى وافته منيته .. على ان التعارف الذى وضعت فيه اكبر املى ، هو تعارفى مع « مولتو » .. وكان شابا توحى مواهبه وذكاؤه المتأجج بمستقبل عظيم له . وقد اعتدت دائما ان اشعر بعطف عليه ، رغم ان مسلكه نحوى كان كثيرا ما يثير الريب ، ورغم انه كان على علاقات ودية بألد أعدائى .. على اننى ـ رغم كل هذا ـ لا استطيع ان أصد نفسى عن التطلع اليه كشخص يرجى ان يكون يوما هـو الذائد عن مذكراتى ، والمنتقم لى ، بوصفى صديقه !

* * *

• وفى غمرة هذه المتع والمرفهات ، لم افقد ميلى الى النزهات التى كنت انطلق فيها وحيدا على قدمى ، فلم اكف عن ممارستها .. وكم من نزهات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة ،

لم يكن يمكث خلالها فى رأسى ـ الذى اعتاد العمل ـ شىء من الهواجس . وكنت اقلب فى ذهنى اثناءها المشروع الذى كنت قد رسمته من قبل ، لكتابى : « المذاهب السياسية » ، الذى لن البث ان اتحدث عنه .. كذلك كنت افكر فى كتابة « تاريخ فاليه » (١) .. ومأساة شعرية لم يجردنى موضوعها ـ الذى لم يكن سوى حياة «لوكريس» (٢) ـ من الامل فى خنق الضحكات، وان كنت قد جرؤت على ان اقدم هذه المرأة التعسة على المسرح مرة اخرى ، فى وقت لم يكن من المحتمل فيه ان تعود حياتها الى المسرح الفرنسى . كذلك حاولت ان اعالج موضوع « تاسيتوس »(٣) ، وترجمت الكتاب الأول من « التواريخ » .. ولسوف توجد هذه الترجمة بين اوراقى

وبعد اربعة اشهر من الاقامة فى (جنيف)، عدت الى(باريس) فى شهر اكتوبر ، متحاشيا المرور بليون حتى لا التقى فى طريقى بجوفكور . ولما كنت قد قررت ـ فى تدبيراتى ـ ان لا اعود الى (جنيف) الا فى الربيع التالى ، فقد عاودت فى الشتاء عاداتى واعمالى ، التى كان اهمها مراجعة النسخ التجريبية (البروفات) لرسالتى « حديث فى عدم المساواة » ، التى كانت تطبع فى (هولندا) ، لدى المكتبى « ريى » الذى كنت قد تعرفت اليه فى جنيف . ذلك لأنه لما كان اهداء هذا الكتاب معقودا للنظام الجمهورى ، وكان مثل هذا الاهداء لايروق للمجلس(٤) ، فقد انتظرت حتى ارى وقعه فى جنيف قبل ان اعود اليها . ولم

---

(١) اقليم « الفالية » فى الاراضى السويسرية ، فى الوادى الاعلى لنهر الرون

(٢) امرأة رومانية ، قتلت نفسها يأسا وكمدا عندما اغتصبها ابن حاكم روما المستبد ، فادت مأساتها الى قيام النظام الجمهورى فى روما سنة ٥١٠ قبل الميلاد .

(٣) تاسيتوس كاتب رومانى أوردنا سيرته فى صفحة ١٧٥ من هذا الجزء و « التواريخ » من أشهر مؤلفاته

(٤) مجلس المائتين ، الذى كان بمثابة الهيئة النيابية لجمهورية جنيف

يكن هذا الوقع فى صالحى ، بل ان ذاك الاهداء ـ الذى لم توح به سوى أنقى العواطف الوطنية ـ خلق لى فى المجلس اعداء ، كما جلب على غيرة بعض المواطنين . فقد كتب لى السيد « شويه » ـ « السنديك » الأكبر ، فى ذلك الحين ـ رسالة مهذبة ولكنها فاترة ، ستوجد فى اوراقى ، فى الملف « ا » ، رقم (٣) . وتلقيت من بعض الخاصة ـ وبينهم ديلوك وجالا بير ـ تهانىء قليلة ، كانت هى غاية ما جوزيت به ، فلم أجد واحدا من ابناء (جنيف) يشكر لى صادقا تلك الحمية المنبعثة من القلب ، والتى تبدو ملموسة فى الكتاب . ولقد صدم هذا الفتور كل من لاحظوه . واذكر اننى كنت اتناول الغداء ـ ذات يوم ـ فى دار السيدة دوبان ، فى (كليشى) ، بصحبة كروميلان ـ وزير الجمهورية (١) ـ والسيد دى «ميران» ، فقال هذا فى صراحة مسموعة ، ان المجلس كان مدينا لى بمكافأة وبتكريم عام ، من اجل هذا الكتاب ، وانه انما يخزى نفسه اذا قصر فى هذا . ولم يجرؤ كروملان ـ الذى كان ضئيل الجسم ، اسود القلب ، دنيىء المكر ـ ان يرد على ذلك فى حضورى ، ولكنه لوى ضبه فى حركة بشعة اضحكت السيدة دوبان !.. **وكانت الفائدة الوحيدة التى عادت على من هذا المؤلف ـ الى جانب اننى ارضيت به فؤادى ـ هى لقب « المواطن » الذى خلعه على اصدقائى ، ثم حذا الجمهور حذوهم ، وما لبثت ان فقدته عقب ذلك ، لفرط استحقاقى اياه !** على ان هذا النجاح الخابى ما كان ليحولنى عن تحقيق أوبتى الى (جنيف) ، لو لم تتغلب على ذلك بواعث كانت ذات نفوذ قوى على فؤادى . فان السيد ديبيناى كان راغبا فى ان يضيف الى قصر « لاشيفريت » جناحا كان ينقصه ، فأنفق فى سبيل انجاز ذلك ، مبالغ جسيمة . وفيما كنت ذاهبا ـ ذات يوم ـ مع السيدة ديبيناى ، لمشاهدة عملية

---

(١) الوزير المفوض لجمهورية جنيف فى باريس

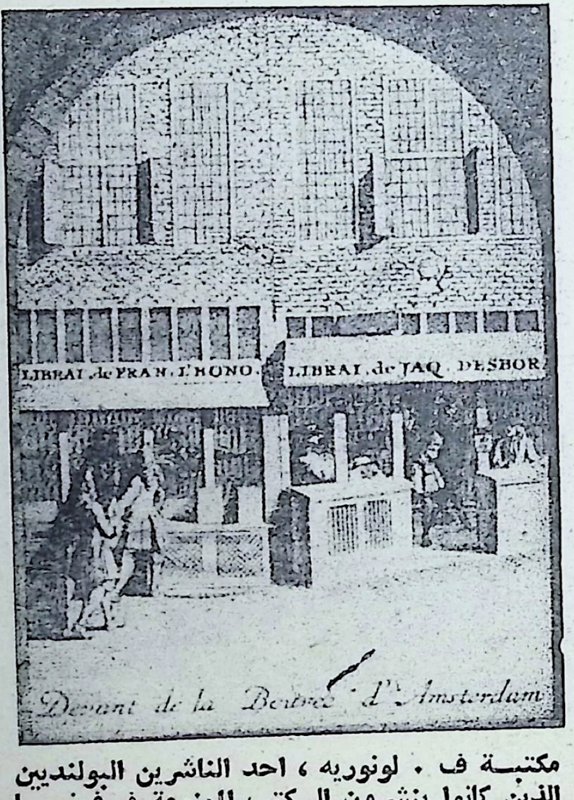

مكتبة ف . لونوريه ، احد الناشرين البولنديين الذين كانوا ينشرون الكتب الممنوعة فى فرنسا

البناء مضينا فى سيرنا الى ما بعد الموقع بحوالى ربع فرسخ ، اي الي مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقة بالقصر ، فى

متاخمة غابة (مونمورنسى)، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق، اقيم ليكون مطبخا خلويا، وقد الحق به كوخ صغير مهدم، يدعى « ليرميتاج » (١)

وكان هذا الموقع المنعزل ، الملائم بى ، قد ملك على حواسى عندما رأيته للمرة الأولى ، قبل رحلتى الى جنيف . وفى اعجابى به ، انبعثت منى هذه الكلمات : « آه !.. يا له من مقام بهيج ياسيدتى !.. ها هوذا ملاذ كأنما خلق لى ! » .. ولم تكترث السيدة ديبيناى لقولى كثيرا ، فى ذلك الحين . ولكننى — فى زيارتى الثانية — دهشت عندما وجدت فى مكان الطلل القديم، منزلا صغيرا ، يكاد يكون جديدا بأكمله ، وقد قسم تقسيما بديعا، وأصبح جد مهيأ ليكون مقاما لاسرة تضم ثلاثة أفراد!.. ذلك ان السيدة ديبيناى عملت على انشاء هذا المبنى فى صمت، وبنفقات جد ضئيلة ، مستخدمة فى ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون فى القصر ، وبعض المواد التى كانت متوفرة هناك !

وعندما رأت دهشتى ، قالت : « ها هوذا ملجأك يادبى، فقد اخترته بنفسك ، وقد أنالتك اياه الصداقة ، عسى ان يضع خاتمة لتفكيرك الجائر فى البعد عنى ! » . وما اعتقد اننى شعرت يوما بتأثر أشد ولا اعذب مما شعرت به اذ ذاك !.. وغسلت بدموعى يد صديقتى الكريمة . واذا لم أكن قد تخليت تماما عن عزمى فى تلك اللحظة، فان هذا العزم قد تصدع على الاقل!

.. وأصبحت السيدة ديبيناى — التى أبت ان تنهزم أمام رغبتى فى الاستقرار فى جنيف — شديدة الالحاح ، واستعانت بكثير من الوسائل المتباينة ، وبكثير من الاشخاص ، لكى تتغلب على .. بل انها ذهبت فى ذلك الى حد ان عينت السيدة لوفاسير وابنتها فى خدمتها .. وبهذا انتصرت فى النهاية على اصرارى.

---

(١) L'Ermitage ، اى صومعة الناسك

واذ تنحيت عن فكرة الاستقرار فى وطنى ، قررت ، ووعدت بأن اقيم فى (ليرميتاج) . وبينما كان المبنى يجف (١) ، تكفلت السيدة ديبيناى بامر الاثاث . ومن ثم فان المكان كان معدا تماما للسكنى فى الربيع التالى

***

• **وكان من** الأشياء التى ساعدت كثيرا على انأبت فى الامر، استقرار المقام بفولتير ، على مقربة من جنيف . فقد أدركت ان هذا الرجل كان موشكا ان يحدث انقلابا هناك، واننىخليق بأن اجد فى وطنى عين النقائص ، والمظاهر، والاخلاق التىكانت تنفرنى من باريس ، ومن ثم فلا بد من النضال دون انقطاع ، ولن يبقى لى من خيار فى مسلكى سوى ان اكون أحد اثنين : أما متحذلقا متغطرسا لايطاق، او مواطنا رديئا جبانا !.. ولقد أدى الخطاب الذى كتبه لى «فولتير» عن كتابى الأخير ، الى ان أشير الى هواجسى فى ردى ، فكان الأثر الذى أحدثته اشارتى معززا لرأيى . ومنذ ذلك الحين ، اعتبرت جنيف فى حكم الضائعة ، ولم أكن مخطئا فى حدسى . **ولعله كان من الخليق بى**

(١) كانت العادة – فى ذلك العهد – أن يترك المبنى خاليا عقب الفراغ من بنائه ، ريثما يجف اللبن والملاط المستخدمان فى انشائه

ان أتحدى العاصفة ، او اننى شعرت بمقدرة على ذلك ، ولكن .. ما الذى كنت أملك ان أفعله ـ وانا وحيد ، خجول ، عيى ـ ضد رجل متكبر ، غنى ، يستند الى مؤازرة الكبار ، ويجيد الكلام البراق ، وقد صار معبود النساء والشباب ؟ .. لقد خشيت ان اعرض شجاعتى للخطر ، دون جدوى ، فلم انصت الا الى فطرتى المسالمة ، والى حبى للطمأنينة والخمول .. فهو اذا كان قد خدعنى اذ ذاك ، فانه لايزال يخدعنى اليوم ، فى هذا المضمار عينه !.. ولو اننى آثرت المقام فى جنيف ، لجنبت نفسى كثيرا من المحن والتعاسات ، ولكنى ـ بكل ما اوتيت من حمية ومن غيرة وطنية ـ اشك فى اننى كنت مستطيعا ان اقوم بعمل عظيم ، أو نافع ، لبلادى

وكان ترونشان قد استقر فى جنيف حوالى ذلك الوقت ، فما لبث ان جاء الى باريس بعد قليل ، ليقوم بدور الدجال(١) ، وليتسلل ببعض كنوزها . وما ان وصل ، حتى قام بزيارة الشيفالييه جوكور .. وكانت السيدة ديبيناى تواقة الى ان تستشيره شخصيا ، ولكن الوصول اليه ـ خلال صفوف الجماهير ـ لم يكن ميسورا . وهرعت الى ، فأقنعت ترونشان بأن يذهب لزيارتها ، واذا بهما يعقدان روابط صداقة عزاها ـ فيما بعد ـ على حسابى أنا !.. هكذا كان نصيبى دائما ، فما جمعت بين صديقين ـ كنت اعرف كلا منهما على حدة ـ الا واتحدا ، دون توان ، ضدى . ومع انهم فى المؤامرة ـ التى دخلها آل ترونشان من ذلك الحين ، لكي ينحطا ببلادهما الى درك العبودية ـ كانوا يشعرون بمقت نحوى ، الا ان الطبيب ظل طويلا يبدى لى آيات حسن النية . بل انه ذهب الى درجة ان كتب لى ، بعد عودته الى جنيف ، عارضا على منصبا فخريا يضعنى على رأس المكتبة العامة هناك . ولكن

(١) تيودور ترونشان الطبيب السويسرى ، الذى ولد فى جنيف سنة ١٧٠٩ ، ومات سنة ١٧٨١

رأيى كان قد استقر ، فلم يزعزع هذا العرض عزمى

ومدت ـ فى هذه الفترة ـ اتردد على دار السيد دولباخ .. وكانت مناسبة ذلك ان الموت عدا على زوجته ـ كما عدا على السيدة فرانكويى ـ ابان اقامتى فى جنيف . وقد حدثنى ديدرو ـ اذ أشار الى ذلك فى خطاباته ـ عن الحزن العميق الذى نزل بالزوج ، فحرك الأسى فؤادى، وتحسرت ـ فى نفسى ـ على هذه المرأة الطيبة، وكتبت الى السيد دولباخ . اذ ان هذا الحادث المحزن جعلنى انسى كل اخطائه، وما ان عدت من جنيف ، وكان هو الآخر قد عاد من جولة قام بها فى فرنسا ليسرى عنه الاسى ، حتى ذهبت لزيارته مع جريم وأصدقاء آخرين ، وواصلت زيارته ـ بعد ذلك ـ الى ان رحلت الى (ليرميتاج) . **وعندما شاع فى الوسط المحيط به ، ان السيدة ديبيناى ـ التى لم يكن قد تعرف اليها بعد ـ كانت تعد لى مسكنا ، انهالت على السخريات كالمطر ، وقيل اننى عاجز عن ان اعيش بدون تملق واطراء المدينة ، وبدون متعها وملاهيها، واننى لن أطيق البقاء فى عزلة ، ولو لخمسة عشر يوماً !.. ولما كنت ادرك حقيقة مشاعرى ، فقد تركتهم يقولون ما حلا لهم ، ومضيت فى طريقى .** ومع ذلك ، فان دولباخ ساعدنى على ان أعثر على مأوى للشيخ الطيب (لوفاسير) (١) ، الذى كان قد تجاوز الثمانين من عمره، والذى كانت زوجته تشعر بأنه عبء ثقيل يبهظها ، فكانت لاتكف عن ان ترجونى ان اريحها منه !..

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « هذه احدى الحيل التى تخدعنى بها ذاكرتى . فقد علمت لتوى ـ وبعد كتابة هذا بأمد طويل ـ خلال حديث مع زوجتى عن ابيها الطيب ، ان الذى ساعد على انزاله بالملجا ، لم يكن السيد دولباخ ، وانما كان السيد دى شينونسو ، الذى كان اذ ذاك من اعضاء لجنة « فندق الله » . وقد نسيته تماما ، وذكرت السيد دولباخ فى مكانه ، الى درجة اننى كنت على استعداد لأن أقسم انه الذى قام بالخدمة . » .. والفندق الذى يعنيه « روسو » هنا ، من اقدم ملاجىء باريس .

وقد وضع فى ملجأ للفقراء ، حيث عجل كبر سنه وحزنه لبعده عن اسرته، بارساله الى القبر، بمجرد ان حل بالمكان تقريبا!.. ولم تأس زوجته واطفاله عليه كثيرا ، ولكن تيريز – التى كانت مشغوفة بحبه – لم تجد قط عزاء لمصابها فيه ، ولم تصفح عن نفسها قط اذ تركته – وهو على شفا نهاية اجله – يقضى ايامه الأخيرة بعيدا عنها !

***

• وتلقيت فى هذه الفترة تقريبا ،زيارة لم إكن ارتقبها قط ، وان كان صاحبها من اقدم المعارف . واعنى به صديقى «فينتور» ، الذى فاجأنى ذات صباح لطيف ، عندما كان آخر شخص يخطر ببالى . وكان معه زميل .. وكم لاح لى انه تغير !.. فبدلا من اخلاقه الكريمة السالفة ، لم أجد فيه سوى مظهر مفسود منحل ، منعنى من أن أكاشفه بدخيلتى .. أو لعل عينى لم تعودا كما عهدتهما ، او ان الافراط فى العبث قد أطفأ ذكاءه ، أو ان كل تألقه السابق كان يعتمد على اشراقة الصبا ، التى لم يعد محتفظا بها !.. ولقد عاملته فى غير اكتراث تقريبا ، وافترقنا فى فتور . ولكنه لم يكد ينصرف ، حتى اهاجت ذكرى الفتنا القديمة.. ذكريات صباى ، تلك الذكريات التى كانت فى رونقها ، وفى بهائها ، وفى كمالها ، مقصورة على هذه المراة الملائكية التى لم تكن – اليوم – أقل تغيرا منه .. وطرائف وأقاصيص تلك الاوقات الهانئة . . وذلك اليوم الشاعرى الذى قضيته فى (تون) ، فى براءة وطرب بين تلكما الفتاتين الفاتنتين اللتين كان كل ما انعمتا به على ، مجرد قبلة على اليد ، ولكنها خلفت – مع ذلك – حسرة ناعمة دائمة ! .. واذا كل النشوات البهيجة التى أسكرت قلبى الشاب ، والتى شعرت بها اذ ذاك فى اقوى صورها ، والتى كنت اظنها قد ولت الى الأبد .. كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة، جعلتنى أبكى

شبابى الذى أدبر بمباهجه ، والذى ضاع على !.. آه ! كم كنت جديرا بان أبكى عودة هذه الذكريات ــ العودة المتأخرة ، الحزينة ــ لو انى تنبأت بالأسى التى كان مرتقبا ان تكبدنيه !

وقبل ان أغادر باريس، وفى اثناء الشتاء الذى سبق اعتكافى، حظيت بمتعة صادفت هوى من قلبى ، وأقبلت على تذوقها بكل نقائها . ذلك ان «باليسو»ــ وكان عضوا فى محفل نانسى، اذاعت صيته بضع تمثيليات وضعها ــ كان قد ظفر بعرض احدى هذه التمثيليات فى (لونيفيل) . على مشهد من ملك بولندا . وكان من الجلى انه اراد ان ينشد الحظوة ، اذ دس فى تمثيليته شخصية رجل جرؤ على ان يناجز الملك بقلمه . ولكن «ستانيسلاس» كان رجلا كريما ، لايميل الى الهجو، وقد استنكر ان يجرؤ أحد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل فى محضره . فكتب السيد الكونت دى تريسان ــ بأمر من الملك ــ الى « داليمبير » والى انا ، فانبانى بان نية صاحب الجلالة قد اتجهت الى تحقيق اقصاء السيد باليسو ، عن المحفل . على اننى رجوت السيد تريسان مخلصا ــ فى ردى ــ بأن يشفع لدى ملك بولندا للحصول على عفو عن باليسو . وصدر العفو فعلا . واذ كتب لى السيد دى تريسان ليخبرنى ــ باسم الملك ــ بذلك ، اضاف ان هذا الحادث سيثبت فى سجلات المحفل ، فرددت بأن هذا سيكون بمثابةتوقيع عقاب دائم، اكثر مما هو عفو . واخيرا ، حصلت ــ بعد عناء ورجاء ــ على وعد بأن تظل المسألة كلها بعيدة عن السجلات ، وان لايبقى اى أثر منها بصفة رسمية . وقد صحب الوعد اقرارات تقدير من جانب الملك ، ومن جانب السيد دى تريسان ، مما اثار زهوى الى حد كبير . **وشعرت فى هذه المناسبة بأن تقدير اولئك الذين هم جديرون بالتقدير ، يبعث فى النفس شعورا أعذب وأسمى من شعور الخيلاء والغرور !.. وقد ضممت خطابات السيد دى تريسان وردودى الى أضابيرى ، وستوجد أصولها فى ملف**

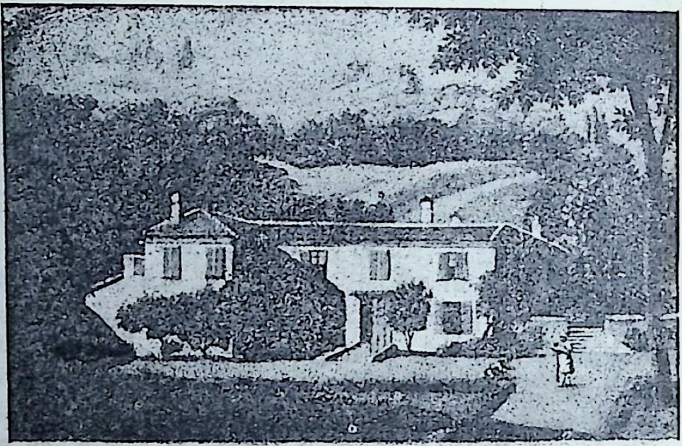

ليرميتاج .. مسكن روسو فى مونمورنسى

«أ» ، تحت ارقام ٩ و ١٠ و ١١

انني لأشعر كل الشعور ، بأنه اذا قدر لهذه المذكرات ان ترى الضوء يوما ، انني اخلد بنفسي هنا ذكرى واقعة كنت ارغب في ان أمحو آثارها ، ولكنني أثبت كثيرا غيرها ، رغما عني . فان الهدف الأكبر لمشروعي هذا ، يتمثل دائما امام عيني . فان الواجب الذى لا محيص عنه ، والذى يتطلب ان أحقق هذا الهدف بأكمل صوره ، لايدع لي سبيلا للنكوص من أجل اعتبارات واهية تعمل على ان تعوقني عن غايتي . انني في موقفي الفذ الفريد ، أدين للحقيقة بما لا أدين لسواها بأكثر منه . فلكي أعرف القراء بنفسي ، لابد لي من ان اعرف كل نواحي هذه النفس ، طيبها ورديئها . ان اعترافاتي مرتبطة

ـ بالضرورة ـ باعترافات كثير من النـاس ، وانى لأبوح بهذه وتلك بنفس الصراحـة ، فى كل ما يتعلق بى ، دون ان أجـد مايقتضي ان اعامل اى امـرىء غيرى بمـا لا أعامل به نفسى ، ولست أتمنى سوى ان أوتى مزيدا من الصراحة يفوق ما أبديت. اننى أصبو الى ان اكون دائما منصفا وصادقا ، فأقول عن الغير كل خـير ما استطعت الى ذلك سـبيلا ، ولا اذكر من الشر الا ما يتعلق بى ، وبقدر ما اكون مضطرا الى ذكره .

فمنذا الذى يجد من حقه ان يطالبنى ـ وانا فى هذا الموقف الذى اقحمت فيه ـ بمزيد ؟.. ان اعترافاتى لم تكتب اطلاقا لكى تظهر فى حياتى ، ولا فى حياة الأشخاص الذين تتناولهم . ولو كان لى السلطان على مصيرى ومصير هـذا المخطوط ، لما رأى النور الا بعد موتى وموت هؤلاء الاشخاص بوقت طويل. ولكن الجهـود التى يبذلها الشانئون ذوو النفـوذ ـ مدفوعين بجزعهم منها ـ لكى يمحوا كل أثر لهـذا المخطوط ، يضطرنى الى ان ابذل كل ما يسمح لى به أشد القـوانين ، وأقسى الوان العدالة ، فى سبيل صون هذه الآثار . ولو كان مقدرا لذكرياتى أن تموت معى ، حتى لا أمس اى أحد ، لتحملت أى ظلم جائر وعابر يترتب على ذلك . اما وقد قـدر لاسمى ان يعيش ـ اخيرا ـ فان من واجبى ان احاول أن اسلم الأجيال معه ذكريات الرجل التعس الذى كان يحمله .. كى ابديه على ما كان عليه فى الواقع والحقيقة، وليس كما عمل اعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه !

الكراسة التاسعة

سنة ١٧٥٦

• **لم** يسمح لى التلهف على سكنى « ليرميتاج » بأن انتظر حتى يعود فصل الطقس البديع، فما ان تم اعداد مسكنى حتى اسرعت الى الإقامة فيـه ، وسط السخريات المدوية من ثلة دولباخ ، الذين راحوا يتنبأون علانيـة بأننى لن استطيع ان احتمل العـزلة ثلاثة أشهر ، وانهم لن يلبثـوا ان يرونى عائدا لأعترف باخفـاقى ، ولأعيش مثلهم فى باريس . أما أنا ـ وقد قضيت خمس عشرة سنة بعيـدا عن بيئتى ـ فاننى اذ رأيت نفسى وشيك العودة اليها ، لم ابد اى اكتراث مطلقـا لمزاحهم الساخر. فاننى منذ ان القيت ـ على الرغم منى ـ فى المجتمع، لم أكف عن التحسر على (شارميت) ، وعلى الحياة الناعمة التى حظيت بها هناك .. كنت احس اننى خلقت للاقامة فى الريف، فكان من المستحيل ان اهنأ بالعيش فى غيره .. فى **البندقية : فى غمرة الشئون العـامة ، وفى منصب خاص بنـوع من التمثيل الديبلوماسى ، وفى آمالى الطـامحة ومشروعاتى للرقى .. فى باريس : فى دوامة المجتمـع الراقى ، وفى الملاذ الحسـية التى تكتنف حفلات العشاء ، وفى حفلات المسرح اللامعة، وفى سحب المجد الزائف الذى حف بى .. فى كل هذه وتلك، كانت ذكريات ادغالى، وجداولى، وتجوالى على القدمين ، حاضرة ابدا لتشغل بالى وتبعث الأسى فى نفسى ، وتنتزع منى التنهـدات والحنين والحسرة !**

كل الأعمال التى كان فى طوقى ان أجعل نفسى فى ربقتهـا ، وكل المشروعات الطامحة التى راحت تنمى حميتى باطراد ، لم يكن لها من غاية سوى ان ابلغ يوما تلك البحبوحة الريفية الهانئة ، التى رحت اهنىء نفسى ـ فى تلك اللحظة ـ على اننى احرزتها ..

فاننى وان لم احظ بالاستقلال الكريم ـ الذى كنت اعتبره وحده الكفيل بأن يقودنى الى هذه الهناءة ـ الا اننى رايت ان بوسعى ، نظرا لوضعى الخاص ، ان استغنى عنه ، وان اصل الى نفس النهاية بطريق اخرى جد مختلفة . على اننى لم أكن املك دخلا ما ، وان كنت امتلك اسما ومواهب . وكنت معتدلا، وقد حرمت نفسى من معظم الحاجات الباهظة النفقات . . تلك التى كانت منشودة لدى الناس عامة . والى جانب ذلك ، فبالرغم من كسلى ، الا اننى كنت مجدا عندما أشاء ، ولم يكن كسلى راجعا الى اننى عاطل خمول ، بقدر ما كان خلة الرجل المستقل الذى لايحب ان يعمل الا عندما يروق له العمل . ولم يكن احترافى نسخ القطع الموسيقية رائجا ، ولا مريحا ، ولكنه كان مصدر رزق مضمون ، وقد حبذ المجتمع شجاعتى اذ أقدمت على اختياره . فقد كان لى دائما ان اطمئن الى عمل ، وان اطمئن الى رزق كاف لعيشى اذا انا عملت جادا . **وكانت الفرنكات الالفان التى تبقت من ارباحى من ((عراف القرية)) ومن مؤلفاتي الأخرى، بمثابة رصيد يقينى الضيق . كما ان المؤلفات العديدة التى كانت تحت الاعداد ، كانت تبشر ـ دون ما تطفل على الناشرين ـ بموارد كافية لأن تمكننى من العمل على سجيتى، دون ما ارهاق لنفسي، بل ودون ان اجور على أوقات**

الفراغ المخصصة للتريض والتجوال . وكانت اسرتى الصغيرة، مؤلفة من ثلاثة اشخاص ، شغل كل منهم بما هو نافع ، ولم تكن اعالتها مبهظة . وقصارى القول ان مواردى - بالنسبة لحاجاتى ورغباتى - كانت قادرة بحق على ان تتيح لى السعادة الدائمة فى الحياة التى اختارتها ميولى .

ولقد كان بوسعى ان ارتمى تماما فى احضان الجانب الاكثر ادرارا للربح ، وبدلا من ان اذل قلمى للنسخ ، كان بوسعى ان اكرسه تكريسا تاما للكتابة التى كانت - فى الاعتكاف الذى اخترته ، والذى شعرت بأننى قادر على مواصلته - كفيلة بأن تمكننى من ان اعيش فى سعة ، بل فى بذخ ، لو اننى وافقت على ان اجمع بين حيل المؤلف والعناية بنشر كتب جيدة . بيد اننى كنت أشعر بأن الكتابة من أجل كسب العيش ، لن تلبث ان تخنق نبوغى ، وان تقتل موهبتى التى كانت فى قلبى اكثر مما كانت فى قلمى ، والتى لم تنبعث الا من اسلوب فى التفكير راق ، أشم ، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة .. **فما من شىء قوى، ولا من شىء عظيم يمكن ان ينساب من قلم اجير مرتش!.. ان الحاجة - وربما الجشع - كانت كفيلة بأن تدفعنى الى أن اتعجل اكثر من ان أتقن . ولولا ان الرغبة فى النجاح زجت بى الى الدسائس، لكان من المحتمل ان تجعلنى اناضل لأقول ما قد يطيب للناس ، وليس ما هو صادق ونافع ! ..وبدلا من المؤلف المبرز ، الذى كان بوسعى ان اغدوه ، فاننى ما كنت لأصبح سوى مسود للورق !.. لا ، لا ! .. لقد كنت اشعر دائما ان مكانة المؤلف لايمكن ان تصبح مرموقة ومحترمة ، الا اذا كان التأليف بعيدا عن ان يكون حرفة .. اذ انه من الصعب ، كل الصعب ، ان يفكر الانسان تفكيرا نبيلا ساميا ، اذا ماكان مضطرا الى ان لا يفكر الا طلبا للرزق ! .. ولكى يكون الكاتب قادرا ، ولكى يجسر على ان ينطق بالحقائق الجليلة ، ينبغى ألا يعول على النجاح ويركن اليه .** ولقد دفعت بكتبى الى الناس بضمير

مطمئن الى اننى انما تكلمت من اجل الصالح العام غير حافل بأى شىء آخر . فاذا رفض الكتاب ، فيا تعسا لأولئك الذين لم يشاءوا أن يفيدوا منه . أما أنا ، فما كنت بحاجة الى رضاهم وقبولهم لكى اعيش ، فان مهنتى كانت كفيلة بأن تعولنى ، اذا لم تلق كتبى مشتريا .. وهذا بالذات هو الذى جعلها تباع وتروج !

* * *

• وفى التاسع من ابريل سنة ١٧٥٦ ، غادرت المدينة فلم أعد الى سكنى المدن قط ، اذ اننى لا اعتبر من السكنى فى شىء، تلك الفترات الوجيزة التى قضيتها - فيما بعد - سواء فى باريس أو فى لندن أو غيرهما من المدن. فقد كانت مجرد اقامة عابرة، أو اقامة بالرغم منى دائما !.. ولقد أقلت السيدة ديبيناى ثلاثتنا فى عربتها ، وتولى خادمها الريفى أمر متاعى البسيط، واستقر بى المقام فى بيتى الجديد ، فى اليوم ذاته . ووجدت معزلى الصغير مهيأ ، ذا اثاث بسيط ولكنه كاف ، وينم عن ذوق !.. **كانت اليد التى عنيت باعداد هذا الأثاث قد اضفت عليه - فى نظرى - قيمة تفوق كل تقدير ، وقد لذ لى ان اكون ضيف صديقتى ، فى بيت من اختيارى، شيدته هى خصيصا لى!**

ومع ان الطقس كان باردا ، بل كان ثمة جليد ، فان الارض كانت قد بدأت تخضوضر ، وكانت زهور النرجس وورود الربيع قد ظهرت ، وشرعت البراعم تتفتح على الأشجار.. وقد امتازت ليلة وصولى بأول شدو للبلبل فى اعقاب الشتاء ، وقد انبعث من غابة كانت تتاخم البيت ، فكأنما كان البلبل ذاته عند نافذتى ! .. وبعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكنى ، فخلت اننى لا ازال فى شارع (جرينيل) ، لولا ان شدو البلبل نبهنى ، فهتفت فى نشوتى : « ها قد تحققت كل امانى أخيرا ! » .. وكان أول ما فكرت فيه هو ان اسلم نفسى

لمفعول الأشياء الريفيـة التى كانت تحيط بى . وبدلا من أن أشرع فى تنسيق مسكنى ، فاننى شرعت فى اعداد نفسى لنزهاتى، فلم يبق ثمة درب ، ولا شجرة ضخمة ، ولا غيضة (مجموعة من الشجر) ، ولا بقعة منعزلة حول مسكنى ، الا وتفقدتها فى اليوم التالى .. وكنت كلما ازددت تعرفا بهذا المعزل الفاتن ، ازددت احساسا بأنه ماخلق الا لي !.. كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران ـ وان لم تكن موحشة ـ تنقلنى فى الخيال الى آخر أطراف المعمورة .. كانت قـد اوتيت تلك المفاتن التى تملك القلوب ، والتى لايجدها المرء قط على مقربة من المدن. وما قدر لامرىء انتقل الى هناك فجأة ، ان يصدق انه كان لايبعـد عن باريس بأكثر من أربعة فراسخ !

وبعد بضعة ايام من الاستسلام لنشوتى الريفية ، فكرت فى تنسيق اوراقى وتنظيم مهامى، فخصصت فترة الصباح للنسخ ـ كما اعتدت أن أفعل دائما ـ وفترة ما بعد الغداء للتريض والتجوال ، مزودا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص ، اذ اننى لم استطع ان اكتب او ان افكر على سجيتى اطلاقا ، الا فى الهـواء الطلق والفضاء ، ولم اجد بنفسى ميلا الى أن أغـير اسلوبى ، بل اننى قدرت ان غابة (مونمورنسى) ـ التى كانت تكاد تصل الى بابى ـ لن تلبث ان تغدو مكتبى ومكان عملى !.. وكانت لدى عدة مؤلفات بدأتها من قبل ، فعمدت الى مراجعتها .. كنت مبدعا كل الابداع فى مشروعاتى ، ولكن تنفيذها كان يسير ببطء ، فى ضوضاء المدينة . وقد توقعت ان امضى فيها بمزيد من العجلة ، اذا ما تخففت من كل ما اعتاد ان يشغلنى عن العمل .. واعتقد اننى قـد حققت هذا التوقـع تماما .. وبالنسبة لرجل كثير المرض، كثير التردد على قصر «لاشيفريت» وايبيناى واوبون وقصر مونمورنسى ، كثير التشاغل عن عمله فى داره بفضل الفضوليين المتعطلين، دائم الانشغال بالنسخ نصف نهاره .. **اذا قدر كل هذا ، واحصيت المؤلفات التى انجزتها**

خلال السنوات الست ـ التى قضيتها فى لبرميناج ومونمورنسى ـ لنجلى ، فيمـا اوقن ، اننى اذا كنت قد بددت وقتى خلال هذه الحقبة من الزمن ، فان تبديده لم يكن فى خمول ، علـى الأقل !

وبين الأعمال الأدبيـة المتباينة ـ التى كانت على الرف ـ كان المؤلف الذى أطلت التفكير فيه ، والذى اقبلت عليه بأعظم قدر من الشغف ، والذى وددت ان اعمل فيه طول عمرى ، والذى اعتقد انه ختم شهرتى . ذلك هو كتابى فى «المذاهب السياسية» . اذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة ـ او اربعة عشرة ـ سنة ، مذ خطرت لى فكرته ، عندما كنت مقيما فى البندقية ، حيث اتيحت لى الفرصة كى أشهد عيوب نظام الحكم فيها ، رغم ماكان له من صيت . ومن ذلك الحين ، اتسعت آرائى بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الاخلاق ، فقدر لى ان أرى ان كل شىء كان يتصل اتصالا جوهريا بالاعتبارات السياسية ، وانه مامن شعب يملك ـ مهما يكن تقدمه ـ ان يصبح فى حال غير التى تعده لها طبيعة نظام الحكم فيه . ومن ثم ، فان المسألة الـكبرى ـ مسألة خير نظام ممكن للحكم ـ انكمشت فى نظرى الى ما يأتى : **ما كنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذى يكون أفضل صفات ، واكثر تنورا ، واوسع حكمة . . وبالايجاز ، الشعب الذى يكون ((احسن)) شعب ، بأوسع معانى كلمة ((احسن)) ؟** . . ولاح لى ان هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤال آخر ، قريب الشبه منه ، وان لم يكن مثله تماما . ذلك هو : **ما هى الحكومة التى تحرص ـ بطبيعتها ـ دائما ، على ان تكون وثيقة القرب من القانون ؟** . . ومن هنا خطر لى سؤال آخر : **ما هو القانون ؟** . . وتبعته سلسلة من الأسئلة لها عين القيمة . ورأيت ان هذا كله يفضى الى حقائق عظيمة ، ذات نفع بالنسبة لرفاهية الجنس البشرى ، ولا سيما رفاهية وطنى ، حيث لم اجـد ـ خلال الرحلة التى قمت بها الى هناك ـ دراية بالقانون وبالحرية

صحيحة ، ولا واضحة بالقدر الذى كان يرضينى. ولقد آمنت بأن الايعاز بهذه الدراية ــ بطريق غير مباشر ــ هو أسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم ، وخير شفيع لى كى يغفروا لى ان استطعت ان امد بصرى الى اعلى وابعد مما بلغته ابصارهم !

ومع اننى كنت قد عكفت ــ لخمس سنوات او ست ــ على وضع هذا المؤلف ، الا اننى لم أكن قد قطعت فيه شوطا يذكر . فان الكتب التى من هذا القبيل ، تتطلب تأملا ، و فراغا ، وطمأنينة. فضلا عن اننى كنت اعمل فيه فى الخفاء ــ كما يقال ــ دون ان افاتح احدا ــ ولا ديدرو نفسه ــ بما اعتزمت . فقد كنت اخشى ان لا يبدو ملائما كل الملائمة لروح العصر ، وللبلد الذى كنت اكتبه فيه ، وان جزع اصدقائي قد يعرقل جهودى فى تنفيذه(١) . ولم اكن بعد واثقا من انه سيتم فى وقت مناسب ، وبحيث يتسنى ظهوره ابان حياتى .. وكنت راغبا فى ان اتمكن دون اى تقيد ــ من ان أهب موضوعى كل ما كان يتطلبه . ولما كنت خلوا من التحامل المغرض ، وغير راغب قط فى الجنوح اليهما ــ فاننى كنت مطمئنا الى اننى سأظل دائما بمنأى عن اللوم .. **لقد وددت ان استخدم ــ اكمل استخدام ، دون ريب ــ حق التفكير ، هذا الحق الذى اوتيته بحكم وجودى .. ولكنى فى حرصى دائما على احترام نظام الحكم الذى كنت أعيش فى ظلاله ، وعلى عدم الخروج على القانون اطلاقا ، وعلى التزام الحذر حتى لا انتهك حق الغير .. فى كل حرصى هذا ، لم اكن**

---

(١) عقب «روسو» على هذا بقوله : « كانت حكمة ديكلو المتزمتة هى التى اوحت الى بهذا الخوف . اما ديدرو ، فلست ادرى كيف كانت اجتماعاتى به تتجه دائما الى جعلى اكثر سخرية وعجوا واقذاعا مما كنت بطبيعتى . وهذا بالذات هو الذى ردنى عن ان استشيره فى مشروع كنت راغبا فى ان لا استخدم فيه سوى قوة المنطق والمحاجة فقط ، دون آتفه اثر لتعنت او تعصب. ومن الممكن الحكم على الأسلوب الذى انتهجته فى هذا المؤلف ، على ضوء أسلوبى فى « العقد الاجتماعى » الذى اخذته عنه.» ــ وقد قدم « كتابى » ملخصا للعقد الاجتماعى فى العددين (٣١) و (٣٢) .

راغبا ـ فى الوقت ذاته ـ فى ان افـرط ، بدافع من الخوف ، فى امنيات هذا الحق .. حقى فى التفكير ! . بل اننى لأذهب الى الاعتراف بأننى وجدت وضعى فى فرنســا ـ كأجنبى يعيش فيها ـ مواتيا لكى اقول الحق فى جرأة .. فقد ادرك تماما اننى ما دمت لا اطبع شيئا فى الدولة ، دون ما اذن ـ وهو ما كنت اعتـزمه ـ فلن اكون مسـئولا امام أى احـد فى فرنسـا عن مبادئى ، وعن الترويج لها فى اى مكان آخر ! .. ولقد كان من المحتمل ان اكون اقـل حرية فى جنيف ، او فى اى مكان آخر طبعت فيه كتبى ،اذ كان للسلطات حق الاعتراض على محتوياتها. ولقد كان لهذا الاعتبار اثر كبير فى حملى على ان انصاع لالحاف السيدة ديبيناى ، فأهجر ما كنت قد انتويته من الاقامة فى جنيف . فقد شعرت ـ كما ذكرت فى « اميل » ـ بأن المرء اذا اراد ان يؤلف كتبا فى الصـالح الحقيقى لوطنه ، فليس له ان يؤلفها فى هذا الوطن ، اللهم الا ان يكون موهوبا فى التآمر والدس والخداع !

ومما زادنى ســعادة ، اننى اقتنعت بأن حكومة فرنسا ، ستعتبر ان من الكرامة ان تدعنى فى سلام ، ان لم تحمنى ، ولو انها لم تكن تنظر الى بعين راضية !.. ولقد كان هذا ـ فيما بدا لى ـ نهجا سياسيا بسيطا ، وصريحا اذ انه يرمى الى التسامح ازاء مالا سبيل هناك الى منعه .. فلو اننى حملت على مغادرة فرنسا ـ وهو ما لكل الحكومات الحق فى ان تقدم عليه ـ لظلت كتبى ماضية فى الصدور ،و لكن بتحفظ اقل .. **اما اذا تركت دون ازعاج ، فاننى ـ كمؤلف ـ سأعتبر رهينة وضمانا لكتبى، كما ان هذا كفيل بأن يمحو الآراء الخاطئة التى كانت متغلغلة فى بقية اوروبا ، اذ يكسب السلطات الفرنسية شـهرة احترام حقوق الامم عن سعة افق ورقى تفكير !**

والذين يحكمون ـ على ضوء النتيجة ـ بأن ثقتى قد غررت بى ، ربما كانوا هم المخدوعون . ففى العاصفة التى هبت على،

لوحة تمثل منظرا من «هيلويز الجديدة»

كانت كتبى خير حجة فى جانبى، لولا ان شخصى هو الذى كان مقصودا .. فان احدا لم يول المؤلف كثير اهتمام ، ولكنهم كانوا يتوقون الى القضاء على جان جاك نفسه .. وكان أسوأ ما جرته كتاباتى، هو التكريم الذى كان من المحتمل ان يولونى اياه. ولكن .. يجب ان لا نقفز الى المستقبل ، ولندعه الى حينه !.. ولست ادرى ما اذا كان هذا اللغز ـ فهو لايزال لغزا فى نظرى الى اليوم ـ سيلقى ما يوضحه فى نظر قرائى ، فيما بعد

وانما الذى ادريه هو انه اذا كانت آرائى التى جاهرت بها، جديرة بأن تجلب على المعاملة التى قاسيتها، لما توانيت عن التعجيل بأن اصبح فريسة لها . ذلك لان ما ظهر من كتبى – التى بسطت فيها هذه المبادىء بكل جرأة، ان لم أقل بكل شجاعة(١)– كان قد احدث أثره ، على ما بدا ، قبل ان آوى الى (ليرميتاج) ، دون ان يخطر ببال احد ان يناجزنى الحرب ، او – على الاقل – ان يعوق نشر المؤلف فى فرنسا ، حيث كان يباع فى علانية لاتقل عن التى كان يباع بها فى هولندا . ولقد ظهرت « هيلويز الجديدة » – بعد ذلك – بنفس السهولة، وبنفس التحبيذ ، كما ينبغى ان يقال . ومن الأمور التى تبدو ابعد من ان تصدق ، ان العقيدة التى بشرت بها فى « هيلويز » هذه ، كانت عين تلك التى بشرت بها فى « اسقف سافوا » .. وكل ما اقدمت على قوله فى « العقد الاجتماعى » ، كان قد قيل فى « حديث فى عدم المساواة » .. وكل ما جاهرت به فى « اميل » ، ظهر قبل ذلك فى « جولى » .. ولكن هذه العبارات المدوية ، لم تثر سخطا ضد الكتابين الاولين (٢) ، ومن ثم فما كان من المعقول ان تكون هى التى اثارت سخطا ضد الكتاب الأخير (٣)

* * *

• **وهناك** مشروع كتاب آخر ، من نفس النوع تقريبا ، ولكن فكرته واتتنى متاخرة عن افكار تلك الكتب ، وقد شغلت بالى فى ذلك الحين .. ذلك هو « مختارات من اعمال الأب دى سان بيير » ، الذى لم املك الحديث عنه من قبل ، اذ شغلنى عن ذلك سياق السرد . فلقد أوحى الى بالفكرة الراهب دى مابلى – عقب عودتى من جنيف .. ولم يعرضها على مباشرة،

---

(١) يقصد كتابه : « حديث فى عدم المساواة فى الظروف والاحوال » .
(٢) يقصد كتابيه : « اميل » و « حديث فى عدم المساواة » .
(٣) يقصد « العقد الاجتماعى » .

وانما وسط فى الأمر السيدة دوبان ، التى كانت مهتمة ـ الى حد ما ـ باقناعى بالاضطلاع بالمشروع ! .. فقد كانت احدى ثلاث او اربع من حسان باريس ، تهافتن على الراهب الشيخ « سان بيير » . واذا لم تكن قد ظفرت بالايثار منه ، فانها ـ على الأقل ـ قد تقاسمته مع السيدة ديجويون . ولقد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصدر فخر لها وله ، ومن ثم فان كبرياءها كانت خليقة بأن تجد ما يرضيها اذ ترى مؤلفات صديقها الميت الحى ، تبعث على يدى سكرتيرها . ومع ان هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بديعة ، الا انها كانت معروضة بأسوأ تعبير ، الى درجة تجعل من العسير على القارىء ان يحتمل قراءتها . ومما كان يبعث على الدهشة ، ان الراهب كان يعتبر قراءه مجرد « اطفال كبار » ، ولكنه ـ مع ذلك ـ كان يخاطبهم باعتبارهم رجالا .. فضلا عن انه لم يتجشم اى عناء فى حملهم على الانصات اليه.

من أجل هذا عرض على الاضطلاع بهذه المهمة التى كانت نافعة ـ فى حد ذاتها ـ كما كانت مناسبة لرجل مجد فى النسخ والتعديل ، ولكنه كسول فى التأليف ، الفى ان المجهود الذى يبذل فى التفكير مرهق ، فكان يؤثر ـ فيما يوافق هواه ـ ان ينقح ويحسن افكار سواه ، على ان يبتدع افكارا جديدة من لدنه ! .. والى جانب ذلك ، فاننى لم أقصر دورى على مجرد التفسير والترجمة ، اذ اننى لم أكن ممنوعا من ان أستغل تفكيرى فى بعض الأحيان ، وكنت مطلق اليد فى ان أصوغ عملى بالشكل الذى يمكن كثيرا من الحقائق الهامة من ان تظهر فى مسوح الراهب « سان بيير » ، دون ما تعرض للخطر الذى قد يحدق بها اذا ما ظهرت فى ثيابى أنا . وفضلا عن كل هذا ، فان المهمة لم تكن باليسيرة .. لم تكن تتطلب أقل من القراءة ، ثم الاستيعاب والتفكير ، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدا مهوشة ، مضطربة التنسيق ، مليئة بالحشر والاطناب

والتكرار والآراء الضحلة أو الخاطئة ..وكان لا بد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجليلة الدسمة التى كانت تشجع على احتمال المهمة الوعرة ! .. بل اننى كنت موشكا ـ فى كثير من الاحيان ـ على ان انفض يدى منها ، لو اننى استطعت ان انسحب فى تصرف كريم .. ولكنى عندما تقبلت مخطوطات الراهب ـ التى أعطانيها ابن اخيه الكونت دى « سان بيير » ، بايعاز من « سان لامبير » ـ أصبحت مرتبطا بشكل ما ، بأن استعملها ..وأصبح الواجب يقتضينى اما أن أردها ، واما ان أجعل لها قيمة . وبهذه النية الأخيرة حملتها الى « ليرميتاج » ، فكانت أول عمل اعتزمت ان أكرس له وقت فراغى !

ورحت أفكر ـ اذ ذاك ايضا ـ فى مشروع كتاب ثالث ، كنت مدينا بفكرته الى بعض ملاحظات اخذتها على نفسى ، ومما زاد من شعورى بالرغبة فى الاقدام عليه ، اننى وجدت من الأسباب ما جعلنى أصبو الى ان انتج كتابا ذا نفع حقيقى للجنس البشرى ، بل كتابا يكون انفع ما قدم الى البشر ، اذا ما قدر للتنفيذ ان يطابق الخطة التى رسمتها مطابقة ناجحة . فلقد لوحظ ان الغالبية من الناس كثيرا ما يكونون ـ فى سياق حياتهم ـ على غير ما هم عليه اصلا ، وكأنهم يتحولون الى اناس مختلفين تمام الاختلاف . ولم اكن أبغى باصدار كتاب فى ذلك ، ان أقر شيئا معروفا كل المعرفة ، بل كان لدى غرض جديد تمام الجدة ، وذو اهمية بالغة .. ذلك هو أن ابحث عن اسباب هذه التطوزات والتغيرات ـ التى تطرأ على الناس فى حياتهم ـ وأن اقتصر على ما يكون منها متوقفا علينا نحن انفسنا ، وان ابين كيف يتسنى ان نتحكم فيها بأنفسنا ، لكى نصبح افضل واكثر ثقة بأنفسنا واطمئنانا اليها ! .. **ذلك لانه لاجدال فى أن الرجل الشريف يعانى فى مقاومة الشهوات التى اكتمل تكوينها ـ والتى ينبغى عليه ان يقاومها ـ عناء أشد مما لو انه كبح أو غير أو**

عدل هذه الشهوات ذاتها من منبعها ، لو قــدر له ان يتعقبها الى هذا المنبع . فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوى ، ولكنه - فى مرة أخرى - يستسلم لأنه ضعيف .. ولو انه كان على ما كان عليه من قبل ، لما استسلم

وفيما كنت افحص نفسى ، وأبحث فى النفوس الأخرى عما يمكن هذا التباين من الحدوث، تبينت انه انما يعتمد - الى حد كبير - على ما تكون أشياء خارجية قد أحدثته - من قبل - من انطباعات داخلية ، واننا فى تغيرنا المستمر - بفعل حواسناه واجهزتنا البدنية - انمــا نكشف ، دون ان نفطن عن أثر ذلك التغير فى انفسنا ، وفى آرائنا ، وفى مشاعرنا ، وفى اعمالنا ذاتها !.. وكانت المشاهدات العديدة والمدهشة - التى جمعتهـا - تعلو على كل طعن .. وقد بدت لى ، فى اصولها الطبيعية ، صالحة لأن تؤلف نظاما خارجيا للسلوك ، يتغير بتغير الظروف ، ويمكن من وضع العقــل أو صونه فى حال تــكون خير الاحوال ملاءمة للفضيلة ! .. **فكم من اخطاء يمكن انقاذ العقل منها ، وكم من رذائل يتسنى خنقها فى مهدها ، اذا تيسرت معرفة التحكم فى النظام الحيوانى بحيث يتلاءم مع النظــام الخلقى الذى كثيرا ما يتعرض للاضــطراب !** .. ان احــوال الجو ، والفصول ، والأصوات ، والألوان ، والظلام ، والنور ، والعناصر ، والمواد ، والضجة ، والصمت ، والحركة ، والسكون .. كل هذه تعمل وتؤثر على جسمنا وعلى عقلنا بالتوالى . كلها تمــدنا بألف فرصة ، تكاد تكون مضــمونة ، للتحكم - منذ البــداية - فى المشاعر التى نتركها تتحكم فينا !

هكذا كانت الفكرة الأصليــة ، التى كنت قــد سطرتها على الورق ، والتى توقعت منها نتيجة عظيمة النــفع لذوى المنبت السليم ، الذين يتحدون ضعفهم ، فى سبيــل حبهم الصــادق للفضيلة .. حتى لقد بدا لى ان من الميسور ان أجعل من هذه الفكرة كتــابا مشوقا من حيث القــراءة ، كمــا هو من حيث

الكتابة ! .. ومع ذلك ، فانني لم احرز سوى تقدم ضئيل فى هذا المؤلف ـ الذى جعلت له عنوانا : **«المبادىء الخلقية الحسية، أو مادية الحكيم »** (١) ـ فقد حالت شواغل ، لن تلبث ان تتكشف ، دون أن أعكف عليه .. ولن يلبث ان يتضح كذلك ، ان هذه كانت خاتمة مشروعى الذى كان أقرب الى نفسى من كل ما يبدو !

***

• **وكنت** ـ الى جانب كل هذا ـ قد فكرت منذ زمن ، فى نظام للتربية كانت السيدة دى شينونسو قد رجتنى ان أشتغل به ، فى غمرة اشفاقها على ابنها من النظام الذى وضعه زوجها لتربيته ! .. و لقد استوجب سلطان الصداقة أن انصرف الى هذا الهدف أكثر من سواه ، رغم انه لم يكن ـ فى حد ذاته ـ مما يصادف هوى من نفسى . ومن ثم فان هـذا المشروع هو الوحيد ـ بين كل المشروعات ـ التى ذكرتها من قبل ـ الذى انجزته . ولقد كانت الغاية التى وضعتها نصب عينى ـ وانا اعمل فيه ـ جديرة ، كما يتراءى لى ، بأن تتيح للمؤلف جزاء آخر غير الذى اتاحه . ولكن .. لنتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المحزن ، قبل ان يحين اوانه . . فسوف أضطر اضطرارا الى الحديث عنه فيما بعد !

ولقد امدتنى هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير فى نزهاتى اليومية . اذ اننى ـ واعتقد اننى ذكرت هذا من قبل ـ لا استطيع التفكير الا وأنا أتمشى ، فما ان اقف ، حتى أكف عن التفكير ، فليس فى وسع عقلى ان يتحرك الا مع قدمى . على اننى اتخذت الحيطة ، فوفرت لنفسى عملا أؤديه داخل البيت فى الايام المطيرة . ذلك هو « قاموس الموسيقى » ، الذى كانت مواده وأصوله مبعثرة ، ناقصة ،

---

(١) La Morale Sensetive, ou Le Materialisme du Sage

مشتتة بحال تجعل من الضرورى اعادة كتابة السفر كله ، من اوله الى آخره تقريبا . ولقد ابتعت بعض الكتب التى كنت بحاجة اليها من أجل ذلك ، وقضيت شهرين فى السعى الى الحصول على كثير من الكتب الأخرى ، التى استعيرت لى من « مكتبة الملك » ، والتى ابيح لى ان أصحب بعضها معى الى « ليرميتاج » . هذه كانت المواد التى تهيىء لى العمل فى البيت ، عندما لا يسمح الطقس لى بالخروج ، أو عندما أسأم النسخ والنقل . ولقد وافقنى هذا التدبير الى درجة اننى واظبت عليه فى « ليرميتاج » وفى قصر « مونمورنسى » على السواء ، ثم فى (موتيير) بعد ذلك ، حيث اكملت هذا المؤلف ، بينما كنت ماضيا فى مؤلفات غيره . وقد اعتدت دائما ان أجد فى تغيير الأعمال مادة للترويح حقا !

وتبعت فى دقة بالغة ـ ولفترة من الزمن ـ النظام الذى ذكرته ، فوجدته صالحا للغاية ، ولكن الفصل الجميل (الربيع) لم يلبث ان زاد من تردد السيدة ديبيناى على ضيعة (ايبيناى) او ضيعة (لاشيفريت) ، فوجدت من الشواغل ـ التى لم تكن تكبدنى من قبل شيئا ، ولكنى لم أحسب لها فى تدبيرى حسابا ـ ما عطل كثيرا من مشروعاتى الأخرى . فلقد قلت ـ من قبل ـ ان للسيدة ديبيناى خصالا بالغة اللطف ، اذ كانت تحب أصدقاءها حبا خالصا ، وتخدمهم بكثير من الشهامة ، ولا تضن عليهم بوقت ولا بمال ، ومن ثم فانها كانت تستحق ـ عن جدارة ـ ان تجازى عن ذلك برعاية خاصة . **ولقد كنت ـ حتى ذلك الحين ـ اؤدى هذا الواجب ، دون أن أفكر فى انه واجب ، ولكننى لم البث ان فهمت ـ فى النهاية ـ اننى مغلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعورى بوطأتها سوى الصداقة وحدها !** .. ولقد ضاعفت من هذا العبء بنفورى من المجتمعات الحافلة ، اذ تكرمت السيدة ديبيناى فعرضت اقتراحا بدا ملائما بالنسبة لى ، وأكثر ملاءمة بالنسبة لها ، ذلك هو أن تحيطنى

علما بالأوقات التى تكون فيها على انفراد ، أو على وشك الانفراد . ولقد وافقت على ذلك ، دون ان أفطن الى ما كنت أقيد به نفسى . وترتب على ذلك اننى لم أعد أؤدى لها زيارات فى الوقت المناسب لى ، ولكن فى الوقت المناسب لها هى ، واننى لم اطمئن يوما الى ان نهارى رهن رغبتى . ولقد أفسد هذا القيد ـ الى حد كبير ـ ما كانت توفره لى زياراتى لها ـ فيما مضى ـ من متعة .. وتبينت ان الحرية ـ التى طالما وعدتنى بها ـ لم تمنح لى الا بشرط أن لا أحظى بها اطلاقا ! .. **ولقد رغبت ـ فى مرة أو مرتين ـ فى ان أجربها ، فاذا بكثير من الرسائل ، وكثير من المذكرات ، وكثير من امارات الخوف تنهال من السيدة ديبيناى معربة عن قلقها على صحتى .. حتى تبينت تماما ان لا شفيع لى فى عدم الاسراع اليها لدى أول بادرة تنم عن رغباتها ، الا بأن ألزم فراشى تماما !**

وكنت مضطرا الى ان اخضع لهذه الربقة ، فانصعت فى تساهل يفوق ما كان ينتظر من عدو لدود لكل ما يحد من الحرية .. وقد ساعد الوفاء الصادق ـ الذى كنت أكنه للسيدة ـ على الحيلولة ، الى حد كبير ، دون ان أشعر بالاغلال التى كانت ترتبط بهذا الموقف . ولقد استطاعت السيدة ديبيناى ان تملأ بهذه الطريقة الفراغ ـ الذى خلفه غياب الثلة التى كانت تحيط بها ـ الى حد ما . ولقد كانت التسلية التى ظفرت بها من نوع لا يلذ لها كثيرا ، ولكنها كانت افضل من العزلة التامة ، التى لم تكن تطيقها . **على انها اصبحت أقدر على ملء الفراغ بسهولة ، عندما شرعت تجرب قلمها فى الأدب ، ودخلت رأسها نزوة كتابة قصص ، ورسائل ، وفكاهيات ، وحكايات ، وما الى هذه التفاهات ، كيفما اتفق لها ! .. على ان الكتابة لم تكن أعظم ما لذ لها بل أن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب ..** فاذا هى سودت صحيفتين او ثلاثا ، كان من الضرورى لها ان

منظر من كلاران .. ورد فى ((هيلويز الجديدة))

تطمئن الى وجود اثنين او ثلاثة ينصتون الى هذا العمل الضخم ويحبذونه . ونادرا ما كنت أحظى بشرف أن اكون واحدا من هؤلاء الصفوة المختارة ، اللهم الا اذا شفع لى مستمع آخر !.. ذلك لاننى كنت ـ وحدى ـ لا اكاد اساوى شيئا يذكر ، لا فى ندوة السيدة ديبيناى فحسب ، وانما فى ندوة السيد دولباخ ، وحيثما كان جريم نجما متألقا .. وكان هـذا التجاهل التام لقدرى يلائمنى تمام الملاءمة ، اللهم الا عندما اكون مع السيدة وحيدين ، اذ اننى لم اكن اعرف أى مسلك اتخذ .. ذلك لاننى لم اكن اجرؤ على الحـديث فى الادب ـ اذ لم أكن أعتبر كفءا لابداء الرأى فيه ـ ولا فى آداب السلوك والمجاملة والايناس ، لأننى كنت مفرط الخجل ، وكنت أخشى الظهور بمظهر مضحك أمام غانية عجوز ، اكثر من خشيتى الموت ! .. فضلا عن ان هذه الفكرة لم تخطر ببالي اطلاقا عندما كنت برفقة السيدة

ديبيناى ، ولا كان من الممكن ان تخطر مرة واحدة فى حياتى ، ولو قدر لى ان اعيش طيلة عمرى بصحبتها .. **وما كان ذلك لأننى كنت أضمر نفورا شخصيا منها ، بل لعلنى – على النقيض – كنت احبها كل الحب كصديقة ، وكنت قادرا على أن أحبها كعشيقة ! ..** كان يروق لى ان راها وان أجاذبها الحديث . ومع ان حديثها كان طليا – اذا ماكانت فى جماعة – الا انه كان ممضا فى الجلسات الخاصة .. اما حديثى أنا ، فلم يكن لبقا سيالا ، ولم يكن ذا عون كبير فى ايناسها .. وكنت حين أخجل من الصمت فترة طويلة ، أرهق نفسى فى سبيل بعث الحياة فى الجلسة . ومع ان هذا كثيرا ماكان يتعبنى ، الا انه أبدا ما ضايقنى ! .. **كنت أبدى لها آيات الغزل عن طيب خاطر ، وأمنحها بعض قبلات أخوية صغيرة ، لم يكن يلوح لى انها ذات اثارة حسية لها .. وكان هذا غاية ما فى الأمر ! ..** فلقد كانت مفرطة النحول ، شديدة البياض ، ذات صدر مبسوط كراحتى ! .. وكان هذا العيب وحده ، كافيا لأن يطفى كل حرارة فى كيانى ، فما قدر لقلبى ولا لحسى يوما ان يريا اية أنوثة فى امراة بلا نهدين . . وقد كانت ثمة أسباب أخرى – لاجدوى من ذكرها – تجعلنى أنسى الناحية الجنسية دائما ، اذا ما كنت بالقرب من السيدة ديبيناى !!

* * *

• **اما** وقد رضت عقلى على قبول تبعية لا غنى عنها ، **فاننى** اسلمت نفسى لها دون ما مقاومة فألفيتها ـ فى العام الاول، على الاقل ـ أقل عبءا مما كنت أتوقع . وكانت من عادة السيدة ديبيناى أن تقضى الصيف بأسره ـ تقريبا ـ فى الريف . ولكنها لم تقض هناك ، فى هذا العام ، سوى شطر منه .. اما لأن أعمالها كانت تتطلب وجودها فى باريس ، واما لأن غياب « جريم » جعل الاقامة فى « لاشفريت » أقل ملاءمة لها عن ذى قبل . ولقد كنت استغل الفترات التى لم تكن تقضيها هناك، او التى كانت تستضيف خلالها كثيرا من الناس ، لأنعم بعزلتى مع تيريزى الطيبة وأمها ، على نمط يجعلنى أعرف لهذه الفترات قدرها. ومع اننى كنت قد اعتدت ـ لبضع سنوات ـ ان اتردد على الريف كثيرا ، الا اننى لم أكن استمتع بهذه الرحلات ، اذ انها كانت دائما فى صحبة أشخاص محبين للمظاهر ، وكانت دائما ماتفقد بهجتها بتأثير الشعور بالتقيد والحرج ، وان كانت قد أذكت فى نفسى الميل الى المتع الريفية .. وكنت كلما لمحت هذه المتع عن كثب ، ازددت شعورا بحرمانى منها . **كنت قد سئمت ـ كل السأم ـ « صالونات » باريس ، ونافورات الماء، والبساتين ، وحدائق الزهور . وكان أصحابها أشد بعثا للملل .. كنت ضجرا من التطريز ، والعزف، وحبك الصوف، والانحناءات ، والمجاملات الحمقاء ، والعواطف الضحلة ، ورواة القصص التافهين ، ومآدب العشاء الكبيرة ،** حتى أصبحت اذا ما لمحت ـ بنظرة من ركن عينى ـ شجرة من اشجار الصنوبر، أو عشبا من الاعشاب الشوكية ، او سياج مزرعة ، أو مخزنا للغلال ، او مرجا .. وحتى أصبحت اذا ما شممت ـ وانا أمر بمزرعة ـ عبير « العجة » المتوبلة بالاعشاب الشذية .. وحتى أصبحت اذا ما سمعت عن بعد أصوات الماعز الرفيعة .. أصبحت اتمنى ازاء هذا كله ، ان يذهب كل الطلاء الاحمر ،

والمساحيق ، والعطور ، الى الشيطان ! .. وكنت اتحسر على الغداء الذى تعده الزوجة المتفرغة لبيتها فى الريف ، والنبيذ المحلى .. وكنت أود ـ من قلبى ـ ان ألكم السيد الطاهى ، والسيد رئيس السقاة ، اللذين كانا يضطرانى الى أن اتناول الغداء فى موعد عشائى المعتاد ، وأن أتناول العشاء فى الساعة التى اعتدت أن أنام فيها .. وكنت اود ـ فوق كل شىء ـ ان اصفع السادة خدم الموائد الذين كانوا يلتهمون بأعينهم اللقم التى آكلها ، ويبيعونى ـ اذا لم أشأ أن أموت ظمأ ـ نبيذ مخدومهم المعتق ، بما يفوق عشرة امثال ما ادفعه من اجله فى أرقى حانة !

ولكن .. ها أنذا أخيرا فى دارى ، فى مأوى منعزل مستحب ، حر فى ان اقضى أيامى فى حياة مستقلة ، متشابهة ، آمنة ، كنت اشعر اننى انما خلقت لأنعم بها ! .. وقبل أن اذكر الاثر الذى احدثه هذا الوضع ـ الجديد على ـ فى فؤادى ، يروق لى أن ألخص الميول الخفية لهذا القلب ، حتى يتسنى الالمام بجلاء بأسباب هذه التطورات الجديدة

* * *

• **لقد** اعتدت دائما أن أعتبر يوم اتحادى مع تيريز هو التاريخ الذى أصبحت فيه حريصا على مبادىء الخلق . فلقد كنت بحاجة الى ود وثيق ، مذ انفصم فى قسوة ذلك الود الذى كنت مكتفيا به .. ان الظمأ الى الهناء لا يمكن ان يرتوى فى قلب الانسان ! .. ولقد كانت « ماما » تسعى الى الشيخوخة ، وتنحدر الى الهوان ، وكان من الواضح لى انها لن تسعد ثانية على الأرض ، فلم يبق لى سوى ان ابحث من سعادة لنفسى ، ما دمت قد فقدت كل أمل فى ان اقاسمها سعادتها ! .. رحت أطفو من فكرة الى فكرة ، ومن خطة الى خطة ، بعض الوقت . وكانت رحلتى الى (البندقية) خليقة بأن تزج بى فى الشئون

العامة ، لو ان الرجل الذى قدر لى ان ارتبط به ، كان على شىء من الادراك السليم . وانا ممن يسهل هبوط عزيمتهم ، لا سيما فى المشروعات الشاقة البطيئة . لذلك فان ضعف نجاح هذا العمل (الشئون العامة) نفرنى من امثاله . ولما كنت ـ وفقا لمبدئى القديم ـ انظر الى الاهداف البعيدة، على انها احابيل للحمقى ، فقد وطنت العزم على ان أعيش ـ بعد ذلك ـ دون اية خطة مرسومة ، اذ اننى لم اعد أرى شيئا فى الحياة كان قادرا على ان يغرينى على ان اتعب نفسى !

وفى هذه الفترة بالذات ، بدأ تعارفنا ، فلاح لى ان لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة ، يتمشى مع طبيعة شخصيتى ، حتى اننى ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن ولا الزلات على ايهانها، ولم يؤد أى شىء ـ كان يحتمل ان يفصمها ـ الا الى توثيقها . **ولسوف تتبدى قوة هذه الرابطة فيما يلى ، عند ما اكشف عن الجراح والآلام التى خلفتها فى قلبى ـ فى اوج تعاستى ـ دون ان تبدر منى شكوى واحدة ، حتى الوقت الذى اكتب فيه هذه السطور !**

وعند ما يعرف اننى ـ بعد ان فعلت كل شىء ، وبعد ان جابهت كل عناء لاتفادى فراقها ، وبعد ان عشت معها خمسا وعشرين سنة برغم سجية البشر ـ أقدمت فى النهاية على الزواج منها فى شيخوختى ، دون ان يكون لديها اى توقع أو اى رجاء ، ودون ان ارتبط معها بخطوبة أو بوعد .. عندما يعرف هذا ، يسهل على المرء أن يصدق ان الحب الجامح ، الذى عبث برأسى منذ اليوم الاول ، قد قادنى تدريجا الى آخر حماقاتى .. ولسوف يزداد المرء اقتناعا بهذا ، اذا ما عرف الأسباب الخاصة ، والقوية ، التى كانت خليقة بأن تمنعنى من ان اقدم على شىء كهذا .. **فماذا يظن اذن ، اذا انا اعلنت ـ بكل ما لا بد ان يكون قد عرفه فى خلقى من صدق ـ اننى منذ اللحظة الأولى التى رأيتها فيها ، حتى يومنا هذا ، لم اشعر**

نحوها بأضأل قبس من الحب ، واننى لم اعد اكثر اشتهاء لمضاجعتها ، منى لمضاجعة السيدة دى فاران ، وان الرغبات الحسية التى كنت اشبعها لديها ، لم تكن ـ فى نظرى ـ سوى استجابة للنوازع الجنسية، دون ان يكون لها اية علاقة بالفرد؟..

لقد يعتقد القارىء اننى اذ اوتيت بنية تختلف عن بنية سواى من الرجال ، كنت عاجزا عن ان اشعر بالحب ، لا سيما وانه لم يدخل قط بين المشاعر التى ربطتنى بتلكما المراتين اللتين كانتا أعز النساء لدى . ولكن ، صبرا يا قارئى ! .. ان اللحظة المشئومة تقترب ، وستجد انك مخدوعا أكثر مما تخال !

* * *

• اننى اكرر حديثى ، وانى لأدرك ذلك ، ولكنه امر لابد منه. لقد كانت اولى ، وأعظم ، واقوى ، واعتى حاجاتى جميعا ، تنحصر باكملها فى فؤادى .. تلك هى الحاجة الى زمالة أشد ما تكون الفة وقربى وتوثقا .. ومن اجل هذا الغرض ـ بوجه خاص ـ كنت محتاجا الى امراة اكثر منى الى رجل .. الى صديقة ، اكثر منى الى صديق . وكانت هذه الحاجة من التفرد بحيث ان اوثق العلاقات الجسدية ما كانت لترضيها .. **كنت اتوق الى روحين فى جسد واحد وقد ظللت ـ بدون ذلك ـ اشعر بالفراغ دائما !**

ولقد ظننت ان اللحظة التى لا اعود اشعر فيها بذلك ، قد حانت .. فان هذه الشابة اللطيفة ، كانت كفيلة ـ بفضل الف من الصفات الرائعة ، بل وبفضل مظهرها الشخصى الذى كان خلوا من اى افتعال او اغواء ـ بأن تستوعب كل كيانى فى كيانها ، لو اننى استطعت ان استوعب كيانها فى كيانى ، كما كنت آمل !

ولم يكن لدى ما اخشاه من ناحية الرجال ـ فقد كنت موقنا من اننى الرجل الوحيد الذى احبته تيريز حبا صادقا ـ وكانت شهواتها من الفتور بدرجة انها نادرا ماكانت تشعر

بحاجة الى رجال غيرى ، حتى عندما كففت عن ان اكون رجلها فى هذا المجال ! .. ولم تكن لى اسرة ، فى حين انها كانت ذات أسرة ، ولم تكن هذه الأسرة ـ التى كان افرادها جميعا من صنف يخالف فى الخلق صنفها ـ بالتى استطيع أن اعتبرها كأسرتى .. وكان هذا اول أسباب شقائى ! .. ماالذى كنت اتردد فى ان أجود به ، لكى اضع نفسى من امها موضع الابن ؟.. لقد حاولت ماوسعتنى الحيلة ، دون ان أوفق اطلاقا ! .. **كان من العبث أن أحاول أن أوحد كل مصالحنا ، فقد كان هذا مستحيلا .. اذ كانت الام لا تنفك تخلق مصالح تختلف عن مصالحى ، ثم تضعها فى وجه هذه ، بل وضد مصالح ابنتها رغم ان الصنفين لم يكونا مختلفين ! .. ولقد أصبحت واولادها الآخرين واحفادها ديدانا ظامئة الى الدماء ، وكان ابسط ضرر الحقوه بتيريز ، هو أنهم راحوا يسرقونها .** اذ كانت الفتاة المسكينة قد تعودت ان تنصاع ـ حتى لبنات اخواتها ـ فتركت نفسها نهبا ومطية ، دون ان تنبس ببنت شفة .. ولقد آلمنى أن أرى أنه لم يكن بوسعى أن أفعل شيئا لمساعدتها ، رغم اننى كنت اعتصر مواردى ونصائحى فى هذا السبيل ! .. ولقد حاولت أن أقصيها عن امها ، ولكنها كانت تعارض هذا دائما ، فاحترمت معارضتها ، وازددت تقديرا لها ، بيد ان هذا لم يحل دون ان يكون رفضها ضارا بمصالحها مصالحى . كانت مطبوعة على الوفاء لأمها وبقية اسرتها ، ومن ثم فقد كانت ملكا لهم أكثر مما كانت ملكا لى ، بل واكثر مما كانت ملكا لنفسها !

اقرأ فى الجزء الرابع

الذى يصدر فى منتصف نوفمبر

تحليل «روسو» لعلاقاته بتيريز ، وحبه لمدام دوديتو ، التى يرى معها ، فى موقف غرامى ، فى اللوحة المنشورة

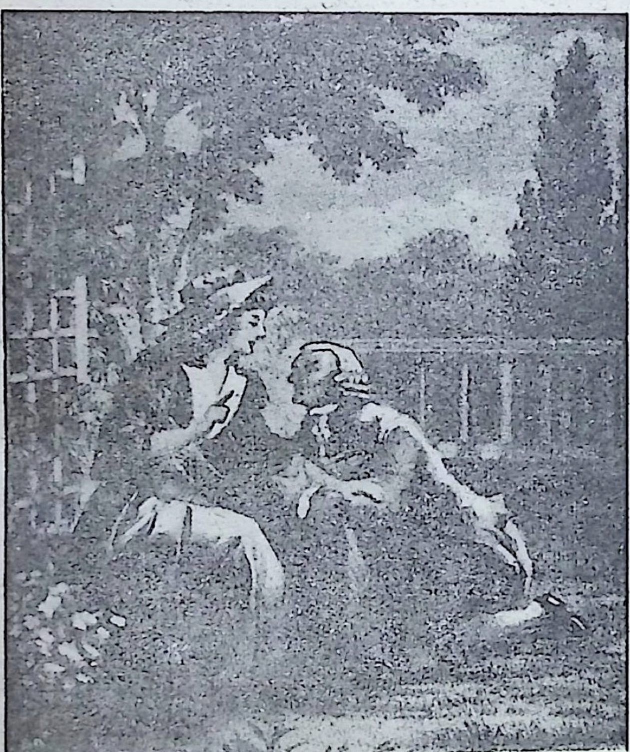

والمؤامرات التى تعرض لها ، والصراع الذى دار بينه وبين اصدقائه الحاقدين واعدائه الألداء ، وغضب الحكومات عليه ، وهجره للأدب

مدام دودوتو
مدام دى ڤاران
مدام ديبيناى
مدام دى لوكسمبورج
جميع هؤلاء النساء الشهيرات
كانت لهن علاقات غرامية مع الأديب الفرنسى الخالد
چان چاك روسّو
اقرأ قصصهن معه فى هذا الجزء الثالث من موسوعة الإنسانية الجبارة:
الاعترافات
فلا تهمل فى اقتناء هذا الجزء الذى بين يديك،
واطلب مافاتك من الجزءين الأولين من إدارة "كتابى"
(١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) قبل نفادهما..
يصدرها حلمى مراد
مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية